مَوَاعِظُ قُرْآنِيَّة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

رقم الإيداع: /٢٠١٩

الترقيم الدولي:

الناشر

دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع

المنصورة - مصر

٢٣ شارع محمد عبده - خلف الجامع الأزهر - القاهرة

٠٠٢٢٥١١٧٧٤٧

فرع المنصورة: شارع الهادي - عزبة عقل - المنصورة

ت: ٠٠٢٠١٠٠٧٨٦٨٩٨٣ - ٠٠٢٠١٠٠٧٧١١٦٦٥

واتس/ ٠٠٢٠١٠٠٧٨٦٨٩٨٣

Dar_Elollaa@hotmail.com

﴿ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

مَوَاعِظُ قُرْآنِيَّةٌ

تأليف

خادم القرآن العزيز

محمد بن هاشم عبد العزيز

عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ

دار اللؤلؤة

للنشر والتوزيع

المنصورة - مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى قُرَّةِ عَيْنِي، إلى البَسْمَةِ التِي رُسِمتْ عَلى وَجْهِي، إلى هِبَةِ الله لِي، ابنتي الغالية/

نورمحمد هاشم عبد العزيز

التي أسأل الله أن يجعل لها من اسمها نصيبًا بالإيجاب فتكون نورًا، وأن ينبتها نباتًا حسنًا، وأن يجعلها من أهل القرآن، وأن يحفظها من شرِّ كلِّ ذي شر، وأن تكون من الصالحات اللهم آمين.

مقدمة المؤلف

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَصَبَ مِنْ كُلِّ كَائِنٍ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ بُرْهَانًا، وَتَصَرَّفَ فِي خَلِيقَتِهِ كَمَا شَاءَ عِزًّا وَسُلْطَانًا، وَاخْتَارَ الْمُتَّقِينَ فَوَهَبَ لَهُمْ بِنِعْمَتِهِ أَمْنًا وَإِيمَانًا، عَمَّ الْمُذْنِبِينَ بِرَحْمَتِهِ عَفْوًا وَغُفْرَانًا، وَلَمْ يَقْطَعْ أَرْزَاقَ أَهْلِ الْمَعْصِيَةِ جُودًا وَامْتِنَانًا، وَأَعَادَ شُؤْمَ الْحَسَدِ عَلَى الْحَاسِدِ لأَنَّهُ ارْتَكَبَ عُدْوَانًا.

رَوَّحَ أَهْلَ الإِخْلاصِ بِنَسِيمِ قُرْبِهِ، وَحَذَّرَ يَوْمَ الْقِصَاصِ بِجَسِيمِ كَرْبِهِ، وَأَكْرَمَ الْمُؤْمِنَ بِهِ إِذْ كَتَبَ الإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ، وَدَعَا الْمُذْنِبَ إِلَى تَوْبَةٍ لِغُفْرَانِ ذَنْبِهِ.

أَحْمَدُهُ حَمْدَ عَبْدٍ لِرَبِّهِ مُعْتَذِرٍ إِلَيْهِ مِنْ ذَنْبِهِ، وَأُقِرُّ بِتَوْحِيدِهِ إِقْرَارَ مُخْلِصٍ مِنْ قَلْبِهِ، وَأُصَلِّي عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ، **أما بعد:**

فإنَّ الخيرَ كلَّ الخيرِ أن يعيش الإنسان في صحبة كتاب الله سبحانه وتعالى، كما أن الشرف كلَّ الشرف أن يعيش المرءُ خادمًا لكتاب ربِّه، ولا يخفى أن القرآن هو المنهاج الذي ارتضاه الله للناس، وبيَّن الله سبحانه وتعالى أن القرآن نور قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء:١٧٤].

* وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

– ولقد أمرنا ربُّنا بتدبر القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

* وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد:٢٤].

* وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩].

* وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون:٦٨].

ومن هنا أقول: وأنا أتدبر القرآن الكريم كما أمرني ربي وخالقي سبحانه وتعالى، استوقفتني هذه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧]، وخصوصًا قوله تعالى: ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾.

وتتبَّعْتُ الكلمة في كتاب الله تعالى فوجدتها تكررت في القرآن عدَّة مرات قال تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٧٥].

* وقــال تعــالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ ﴾ [يونس:٥٧].

* وقــال تعــالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨ ﴾ [آل عمران:١٣٨].

* وقــال تعــالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٣٤ ﴾ [النور:٣٤].

– فأخذ بقلبي كيف أن القرآن **مَوْعِظَةٌ ربَّانِيّةٌ هادية موجهةٌ للناس جميعًا،** إنه موعظة من الله، وهل هناك أبلغ من الموعظة الربانية؟ وأيسر منها؟ وأكثر منها نفاذًا إلى القلب والضمير؟

– إنَّ أعلى المواعظ في كتاب الله، فمن أراد أن يكون واعظًا حقًّا فعليه بكتاب الله سبحانه وتعالى.

– وإن مواعظ البشر مهما سمت في البلاغة والتأثير، عاجزة عن أن تقارب الموعظة القرآنية أو تدانيها، ولو أقبل الدعاة والوعاظ على الموعظة القرآنية وخاطبوا المسلمين بها، لتغلغل الكلام في قلوبهم، وتأثرت به أعمالهم، وصلحت به حياتهم.. وأي قلب لم تنفعه الموعظة القرآنية فهو ميت لا ينفعه شيء آخر.

والموعظة القرآنية تولد الشفاء للصدور، والقضاء على ما في هذه الصدور من أمراض وأدناس وأرجاس، ليعود لها نورها، وتعمل فيها فطرتها المؤمنة التي فطر الله الناس عليها، والقرآن قادر بإذن الله على أن يشفي الصدور

والقلوب من مختلف أمراضها المادية والنفسية، أمراض الشبهات والشهوات، وأمراض الهوى والانحراف، وأمراض الشك والشرك، وأمراض القلوب والنفوس والجوارح والحواس، وأمراض السياسة والاقتصاد والأخلاق والاجتماع والحياة والحضارة.

– ومن هنا مُعْلِنًا فقري بين يدي ربي سبحانه انطلقت مستعينًا به، أجمع مواعظ قرآنية، وأرجوا ربي سبحانه وتعالى أن تكون طريقًا من الطُّرق الموصلة إلى الجنَّة، وأن يكون لها أثر على النفوس والقلوب.

وأقول: إنني عشتُّ أيامًا أطوِّف حول القرآن الكريم، أجمع من مواعظه المباركة، والعِظَة كما يقول أهل اللغة: ما يُوعَظ به من قَوْل أو فعْل وتذكير بالواجبات ودعوة إلى السّيرة الصّالحة.

– وبناء على هذا التعريف كنت حريصًا على المجيء بما يوعظ به القلب وينشط به العقل، فجمعت مواعظ عديدة، في مناحي شتَّى، ثم لمَّا بدأت في تنظيمها وترتيبها، غلبني حالي وسبقني قلبي، ووافقه قلمي في ما سبق إليه، فجات أكثر المواعظ تتحدث عن الملك الجبار صاحب العظمة والكبرياء، الذي تتحير دون إدراك جلاله القلوب والخواطر، وتدهش في مبادي إشراق أنواره الأحداق والنواظر، المطلع على خفيات السرائر، العالم بمكنونات الضمائر، المستغني في تدبير مملكته عن المشاور والموازر، مقلب القلوب وغفار الذنوب ومفرج الكروب سبحانه وتعالى.

– وجاءت بعض المواعظ تعالج قضية من القضايا الخطيرة كالكفر، والكبر.

- وجاءت بعض المـواعظ تُـذّكِّرُ بالحقيقـة التـي لا مهـرب منهـا وهـي الموت.

- وجاءت بعض المواعظ تُذّكِّرُ بالقرآن وبركاته ونفحاته. وغير ذلك من الموضوعات، وها هي عناوين المواعظ كما جاء ترتيبها في الكتاب:

- **الموعظة الأولى:** لماذا لا تتجه القلوب إلى الله؟
- **الموعظة الثانية:** إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا
- **الموعظة الثالثة:** لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا
- **الموعظة الرابعة:** القوَّةُ لله جَمِيعًا
- **الموعظة الخامسة:** وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ
- **الموعظة السادسة:** هل تحب ربك؟
- **الموعظة السابعة:** استنكار كفر الكفار بالله
- **الموعظة الثامنة:** احذر من تسوية الله بغيره
- **الموعظة التاسعة:** الأنس بالله
- **الموعظة العاشرة:** وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
- **الموعظة الحادية عشرة:** البداية من العبد والتمام من الله
- **الموعظة الثانية عشرة:** النَّوايَا الحَسَنة و النَّوايَا السَّيِّئَة
- **الموعظة الثالثة عشرة:** التحدث الحقيقي بالنعمة

۞ **الموعظة الرابعة عشرة:** كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ

۞ **الموعظة الخامسة عشرة:** الذنوب سبب للحرمان

۞ **الموعظة السادسة عشرة:** شيئان لا يجتمعان: التكبر والعلم

۞ **الموعظة السابعة عشرة:** كيف نحصل على المال

۞ **الموعظة الثامنة عشرة:** حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ

۞ **الموعظة التاسعة عشرة:** احذر أن يضيع عمرك

۞ **الموعظة العشرون:** وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ

۞ **الموعظة الحادية والعشرون:** إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ

۞ **الموعظة الثانية والعشرون:** وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ

۞ **الموعظة الثالثة والعشرون:** يقظة متأخرة فات أوانها.

۞ ۞ **الموعظة الرابعة والعشرون:** الكنز المفقود.

***

عملي في هذا الكتاب

انطلقت مستعينًا بالله طالبًا منه العون والمدد والتوفيق وقمت بالآتي:

١- جعلت كلَّ موعظةٍ تحتَ آية من كتاب الله تعالى أو جزء من آية، وأصوغ بفضل الله تعالى وتوفيقه موضوعًا مترابطًا حول هذه الموعظة.

٢- عزوت الآيات إلى مواضعها في القرآن الكريم ذاكرًا اسم السورة ورقم الآية.

٣- قمت بتخريج الأحاديث، فأذكر من روى الحديث من أئمة هذا الشأن، وإن كان في البخاري ومسلم أو في أحدهما اكتفيت، وإن كان في غيرهما أذكر من رواه وخرَّجه مستصحبًا ذكر درجة الحديث من صحة أو ضعف أو...... وهذا في الأعم الأغلب.

٤- القصص والمواقف لها أثر في النفوس، لهذا في بعض المواعظ كنت حريصًا على ذكر المواقف من حياة الأنبياء الكرام عليهم السلام، ومن سيرة الرسول المصطفى ﷺ، ثم من حياة الصحابة والتابعين، مع مراعاتي أن آتي بالمواقف من كتب التاريخ المعتبرة، مع حرصي على انتقاء ما يتوافق مع العقل الصحيح والمنهج القويم دون شطط أو زيغ أو مغالاة.

٥- كما ذكرت في بعض الأحيان من كلام الشعراء والأدباء ما يخدم موضوع الموعظة، مع حرصي على انتقاء ما كتبت من شِعْرٍ يساعد ويخدم

الموضوع.

وبعد هذا لا أستطيع أن أدّعي أنني جئت بما لم يأت به أحد وإنما هذا جهد المقل، وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب كاتبَه وقارئَه وناشرَه، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله لي ذخرًا وزادًا في يوم لقياه إنه سميع قريب مجيب.

وأسأل الله أن يجازي عني أساتذتي خير الجزاء، فهم أهل فضل ومنّة.

وأسأل ربي سبحانه وتعالى أن يرحم **أمّي الغالية الحبيبة** كما ربَّتْنِي صغيرًا، وأن يمتِّعَها بالنَّظرِ إلى وجهه الكريم، وأن يجمعها مع النبي ﷺ في الجنة.

- كما أسأله سبحانه أن يبارك لي في زوجتي الكريمة **(أم نور)** وأن يجزيها عني خير الجزاء.

- وأسأل الله أن يحفظ لي هبته الغالية ابنتي الحبيبة **(نور)** التي أسأل الله أن ينبتها نباتًا حسنًا، وأن تكون قرة عين لي في الدنيا والآخرة، كما أسأل الله لها السِّتر في الدنيا والآخرة هي وجميع بنات المسلمين.

وأسأل الله برحمته أن يحفظ بلاد المسلمين وأهل الإسلام.

✍ **وكعادتي أقول:**

إن هذا العملَ عملٌ بشري يعتريه ما يعتري الإنسان من نقص، وأُشهد الله ﷻ أنّ كل خطإٍ وقعت فيه في كلامي أو في كتاباتي يخالف الصواب والمنهج الصحيح فأنا راجع عنه في حياتي وبعد مماتي.

- ولا أجد ما أقول لمن وجد خطأً عندي إلا ما قاله الشاطبي:

أَخي أَيُّهَا الْمُجْتَازُ نَظْمِي بِبَابِهِ...يُنَادَى عَلَيْهِ كَاسِدَ السُّوْقِ أَجْمِلا

وَظُنَّ بِهِ خَيْرًا وَسَامِحْ نَسِيجَهُ...بِالإغْضَاءِ وَالْحُسْنَى وَإِنْ كَانَ هَلْهَلا

وَسَلِّمْ لِإِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ إِصَابَةٌ...وَالْاخْرَى اجْتِهَادٌ رَامَ صَوْبًا فَأَمْحَلا

وَإِنْ كَانَ خَرْقٌ فَأَدَّرِكْهُ بِفَضْلَةٍ...مِنَ الحِلْمِ ولْيُصْلِحْهُ مَنْ جَادَ مِقْوَلا

فدائمًا الإنسان يثبت بشريته، ويأبى الله إلا أن تكون العصمة لكتابه ولرسوله ﷺ.

✍ وأختم قائلًا:

وليس يضرني وقوف أهل المعرفة على ما لي من التقصير، ومعرفتهم أن باعي في هذا الميدان قصير، فلئن أخطئ فمن الذي عُصِم؟! ولئن أُخَطَّا فمن الذي وُصِمَ؟!

وأعلمُ أن الخطأ والزلل، هما الغالبان على من خلق الله من عجل، فإن أصبتُ فمن الله وحده، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، واللهُ ورسولُه منه براء، وأتمثل قول الشاعر:

لقد مضيت وراء الركب ذا عَرَجِ... مؤمِّلًا جبر ما لاقيتُ من عَرَجِ

فإن لحقتُ بهم من بعد ما سبقوا... فكم لرب الورى في الناس من فرِجِ

وإن ضللتُ بقفر الأرض منقطعًا... فما على أعرج في الناس من حَرَجِ

وأسأل أل الله تعالى أن ينفعني وإخواني من طلاب العلم بهذا العمل، وأن يخلص نيتي فيه لوجهه، فإن القلوب بيده وأن لا يجعل لأحد من خلقه فيه

نصيبًا وأن ينفعني به يوم ألقاه ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه ببنانه ورضيه بجنانه :

راجي عفو ربّه العزيز

محمد هاشم عبد العزيز

في مسقط رأسي

الضهرية - شربين - دقهلية

الخميس ٢ جمادى الآخرة /١٤٤٠هـ -

الموافق ٧ فبراير ٢٠١٩م

جوال: ٠٠٢٠١٠٠٣٠٦٢٠٦٥

الموعظة الأولى

لماذا لا تتجه القلوب إلى اللّه؟

لماذا لا تتجه القلوب إلى الله؟

يقول صاحب العظمة والكبرياء: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح:١٣].

✍ **يقول القرطبي**: قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح:١٣] قيل: الرجاء هنا بمعنى الخوف. أي: ما لكم لا تخافون لله عظمة وقدرة على أخذكم بالعقوبة.

ومن هنا نبدأ:

إن القلوب بصفة عامة تحب من يحسن إليها ويكرمها، ويحرص عليها، ويرأف بها.

- والقلوب تخاف ممن تتأكد أنه يملك عقابها وحرمانها مما تحب.
- والقلوب تفتقر وتتجه إلى من يملك احتياجاتها وما تريد.
- والقلوب تطمئن وتسكن لمن تشعر بالحماية والأمن في جواره.
- والقلوب تستعين بمن تراه قادرًا على أن يفعل ما تريد... وهكذا.

والسؤال الآن: لماذا لا تتجه القلوب إلى الله؟

فإن كان الأمر كذلك فلماذا لا تتجه القلوب إلى الله وتتعامل معه بما هو أهله مع أنه سبحانه وتعالى يحسن إليها ويكرمها، ويملك احتياجاتها كلها، وهو القادر على فعل أي شيء، ويستطيع عقابها وحرمانها مما تحبه؟.

لماذا تتجه القلوب إلى بعض المخلوقين بالتعظيم والتوقير ولا تتجه إلى الخالق العظيم ذي الجلال والإكرام؟

السبب وراء ذلك هو الجهل به سبحانه، وبمقامه الجليل، وبقدره العظيم، والجهل كذلك بالطريقة التي يتعامل بها سبحانه وتعالى معنا من ود، وحب، وشفقة.

تأمل معي هذه الآية: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الحشر:١٣]، فعدم معرفة هؤلاء بالله جعلتهم يرهبون البشر أكثر من رهبتهم لله.

أحاديث تعرِّفُ بعظمة الله:

* عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «**مَا جَمَعَكُمْ؟**» قَالُوا: اجْتَمَعْنَا نَذْكُرُ رَبَّنَا، وَنَتَفَكَّرُ فِي عَظَمَتِهِ. فَقَالَ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِبَعْضِ عَظَمَتِهِ**»؟ قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «**إِنَّ مَلَكًا مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ يُقَالُ لَهُ إِسْرَافِيلُ، زَاوِيَةٌ مِنْ زَوَايَا الْعَرْشِ عَلَى كَاهِلِهِ قَدْ مَرَقَتَا قَدَمَاهُ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، وَمَرَقَ رَأْسُهُ مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ الْعُلْيَا فِي مِثْلِهِ مِنْ خَلِيقَةِ رَبِّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**».(١)

* وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ**

---

(١) العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني: (٣/ ٩٤٩)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: (٦/ ٦٦).

سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ». (١)

* وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ذِكْرُهُ أَذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ دِيكٍ قَدْ مَرَقَتْ رِجْلَاهُ الْأَرْضَ، وعُنُقُهُ مُنْثَنِي تَحْتَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَقُولُ: سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَكَ رَبَّنَا فَرَدَّ عَلَيْهِ: مَا يَعْلَمُ ذَلِكَ مَنْ حَلَفَ بِي كَاذِبًا». (٢)

* وعَنْ زِيَادِ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، قَالَ: بَلَغَنِي: «أَنَّ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ مَنْ يَسِيلُ مِنْ عَيْنَيْهِ أَمْثَالُ الْأَنْهَارِ مِنَ الْبُكَاءِ، فَإِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ، قَالَ: سُبْحَانَكَ مَا تُخْشَى حَقَّ خَشْيَتِكَ، قَالَ اللهُ ﷻ: لَكِنَّ الَّذِينَ يَحْلِفُونَ بِاسْمِي كَاذِبِينَ لَا يَعْلَمُونَ». (٣)

* وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، رِجْلَاهُ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، وَعَلَى قَرْنِهِ الْعَرْشُ، وَبَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ وَعَاتِقِهِ خَفَقَانُ الطَّيْرِ سَبْعِمِائَةِ سَنَةٍ، يَقُولُ الْمَلَكُ: سُبْحَانَكَ حَيْثُ كُنْتَ». (٤)

* وعَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ: أَيُّ آيَةٍ أَنْزَلَهَا اللهُ عَلَيْكَ أَعْظَمُ؟، قَالَ: «آيَةُ الْكُرْسِيِّ»، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى

---

(١) سنن أبي داود: (٤٧٢٧)، والسلسلة الصحيحة: (١٥١).

(٢) المعجم الأوسط (٧/ ٢٢٠)، وانظر: صحيح الجامع: (١٧١٤).

(٣) شعب الإيمان: (٦/ ٤٩٠).

(٤) المعجم الأوسط (٦/ ٣١٤)، صحيح الجامع: (٤١١).

الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الْحَلَقَةِ». (١)

* وعَنْ أبي ذَرٍّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «أَتَدْرِي مَا الْكُرْسِيُّ»؟ فَقُلْتُ: لَا، قَالَ: «مَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا فِيهِنَّ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ أَلْقَاهَا مُلْقٍ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ، وَمَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلَقَةٍ أَلْقَاهَا مُلْقٍ فِي أَرْضٍ فَلَاةً، وَمَا الْعَرْشُ فِي الْمَاءِ إِلَّا كَحَلَقَةٍ أَلْقَاهَا مُلْقٍ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ، وَمَا الْمَاءُ فِي الرِّيحِ إِلَّا كَحَلَقَةٍ أَلْقَاهَا مُلْقٍ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ، وَمَا جَمِيعُ ذَلِكَ فِي قَبْضَةِ اللهِ عز وجل إِلَّا كَالْحَبَّةِ، وَأَصْغَرَ مِنَ الْحَبَّةِ فِي كَفِّ أَحَدِكُمْ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزمر:٦٧]». (٢)

المعاملة على قدر المعرفة:

تخيل أنك ذهبت إلى السوق ودخلت حانوتًا(٣) من الحوانيت وقابلت فيه رجلًا يتسوق مثلما تتسوق، ودار بينكما حديث ومن خلاله عرفت أن هذا الرجل يعمل وزيرًا في حكومة بلدك، هل ستستمر في الحديث معه بنفس

---

(١) العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني: (٢/ ٥٧٠). الأسماء والصفات للبيهقي: (٢/ ٣٠٠)، وانظر الصَّحِيحَة: (١٠٩)، وقال الألباني في الصحيحة: والحديث خَرج مَخْرَجَ التفسير لقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وهو صريح في كون الكرسي أعظم المخلوقات بعد العرش، وأنه جُرْمٌ قائم بنفسه، وليس شيئا معنويا، ففيه ردٌّ على من يتأوله بمعنى المُلك، وسعة السلطان، كما جاء في بعض التفاسير، وما رُوِي عن ابن عباس أنه العلم، فلا يصح إسناده إليه. ا. هـ

(٢) العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني: (٢/ ٦٣٦).

(٣) الحانوت: مكان البيع وهو ما يسمى: (دكَّانًا).

الطريقة التي بَدَأْتَ بها أم ستتغير ليكسوها الاحترام والحذر؟!.. ليس هناك أيُّ شك أنَّ معرفتك به ستدفعُك إلى تغيير معاملتك له.

فطريقة المعاملة تحددها درجةُ المعرفة، وكلما ازدادت المعرفةُ تغيَّرت المعاملة، وهذا ما حدث مع سيدنا موسى - عليه السلام - عندما رأى آثار جلال الله على الجبل الذي اندك فخر - عليه السلام - صعقًا، فلما أفاق ماذا قال لربه؟!

قال صاحب العظمة والكبرياء: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف:١٤٣]، فإن كان هذا قوله عند رؤية أثر جلال الله على الجبل، فكيف لو رأي الله عز وجل؟!

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ**» قَالَ: «**فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا**» قَالَ: «**فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ، مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ**» قَالَ: «**فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟**» قَالَ: «**فَيَقُولُونَ: لَا وَاللهِ مَا رَأَوْكَ؟**» قَالَ: «**فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟**» قَالَ: «**يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا**».(١)

---

(١) صحيح البخاري: (٦٤٠٨). وتتمته: قَالَ: «**يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟**» قَالَ: «**يَسْأَلُونَكَ الجَنَّةَ**» قَالَ: «**يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟**» قَالَ: «**يَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا**» قَالَ: «**يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟**» قَالَ: «**يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا**» ⇦

أهمية المعرفة:

إذن نستطيع أن نقول: إن السبب الرئيس لعدم معاملة الله ﷻ بما هو أهله: عدم معرفته معرفة صحيحة: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام:٩١]، وهذا ما أنكره نوح - عليه السلام - على قومه عندما قال لهم: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح:١٣]، ثم بدأ في تعريفهم بربهم لعل قلوبهم تتجه إليه: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح:١٤ - ٢٠].

وهذا ما أنكره الخليل إبراهيم على قومه عندما قال لهم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الشعراء:٧٠]، فأجابوا إجابة باطلة جاهلة ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الشعراء:٧١]، فأراد أن يشحذ عقولهم للفكر فأوقفهم على عجز آلهتهم فقال لهم: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ

حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً، قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ» قَالَ: «يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا» قَالَ: «يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً» قَالَ: «فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ» قَالَ: «يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ المَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ. قَالَ: هُمُ الجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»

يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الشعراء:٧٢، ٧٣]، فجاء الرد منهم يدل على سفه عقولهم وضياع أفهامهم لأنهم يقلدون غيرهم ولا حجة قاطعة معهم فقالوا: ﴿ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الشعراء:٧٤]، وهنا بدأ الخليل في تعريفهم بربهم لعل قلوبهم تتجه إليه: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[الشعراء: ٧٥ – ٨٣]

قال أعزُّ من قال: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النجم: ٤٢ – ٥٢].

معنى ذلك أن نقطة البداية في طريق العبودية والسير إلى الله هي معرفته سبحانه، وكلما قويت تلك المعرفة، ازدادت العبودية أكثر وأكثر، وهذا ما يؤكده قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٠، ١٩١].

فهؤلاء الصالحون الذين ذكرتهم الآيات، عندما تفكروا في خلق الله، ازدادت معرفتهم به ومن ثَم انعكس ذلك على تعاملهم معه بمزيد من التنزيه والخشية: ﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١﴾ [آل عمران:١٩١].

يقول ابن رجب: وكلما قويت معرفة العبد لله قويت محبته له، ومحبته لطاعته، وحصلت له لذة العبادات من الذكر وغيره على قدر ذلك.(١)

غاية المعرفة:

وغاية معرفة الله ﷻ في الدنيا هي الحضور القلبي الدائم معه، أو بمعنى آخر: أن نتعامل معه سبحانه ونعبده كأننا نراه، فنناجيه من قريب، ونتحدث معه كأننا نشاهده.

- أن نستشعر دومًا قربه منا، فنأنس به ونكثر من مناجاته.

- أن نجده دائمًا يتجلى بصفاته وراء كل حدث من أحداث حياتنا، فنربط أمورنا كلها به، مثل ما قال يوسف - عليه السلام - لأبويه وهو يخبرهم عما حدث له: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٠٠﴾ [يوسف:١٠٠].

مع أن ظاهر الأمر أن ملك مصر هو الذي أمر بإخراجه من السجن، لكنه

(١) استنشاق نسيم الأنس: (٥٠).

يرى الأمور على حقيقتها، وأن الله هو الذي أخرجه، وما الملك إلا ستار للقدر، وجندي ينفذ الأمر الإلهي، قال أصدق من قال: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر:٥].

- إن غاية المعرفة التي ينبغي أن نسعى إليها، أن نجد الله يتجلى بصفاته العلى في كل شيء لينعكس ذلك على جميع تصرفاتنا، فتصبح إرادة وجهه الكريم هي مقصدنا في كل أعمالنا ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [البقرة:١١٥]، فعلى سبيل المثال إطعام الطعام للفقراء والمساكين وغيرهم ينبغي أن يكون المقصود منه رضاه سبحانه: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإنسان:٩] وتكريم أهل الصلاح ينبغي أن يكون الهدف منه إجلال الله ﷻ، كما في الحديث: «**إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ**».(١)

التوحيد الخالص:

* قال ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا مُبَلِّغٌ وَاللهُ يَهْدِي، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللهُ يُعْطِي....**».(٢)

* وقال يومًا لأصحابه: «**مَا أَنَا حَمَلْتُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَمَلَكُمْ،........**».(٣)

---

(١) سنن أبي داود (٤٨٤٣)، وصحيح الجامع: (٢١٩٩).
(٢) المعجم الكبير للطبراني: (٩١٥)، وصحيح الجامع: (٢٣٤٧).
(٣) صحيح مسلم: (١٦٤٩).

* وكان ﷺ إذا غزا قال: «**اللهُمَّ أَنْتَ عَضُدِي وَنَصِيرِي، بِكَ أَحُولُ، وَبِكَ أَصُولُ، وَبِكَ أُقَاتِلُ**».(١)

فهذه الأحاديث تدل على الحقيقة التي ينبغي أن نشاهدها من وراء أحداث الحياة: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح:٢٤].

وهذا هو العلم النافع، والتوحيد الخالص، الذي ينبغي أن نسعى جميعًا إلى تحصيله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩].

إنه العلم بالله، وربط أحداث الحياة - مهما تنوعت - به سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران:١٨].

وَفِي هذا المعنى يقول ابن عطاء: الغافل إذا أصبح ينظر ماذا يفعل، والعاقل ينظر ماذا يفعل الله به.

«**فشهادة أن لا إله إلا الله**».. تتطلب أن يصل الإحساس بوجود الله - سبحانه - ووحدانيته حد اليقين الناشئ من مثل الرؤية والمشاهدة، فهي

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٣٢)، والترمذي (٣٥٨٤)، وقال: حديث حسن.

رؤية ومشاهدة لهذه الحقيقة - بآثارها - في أغوار النفس المكنونة، وَفِي صفحة الكون المنشورة.. رؤية واضحة، ومشاهدة مستيقنة، تقوم عليها «شهادة».(١)

• **الاكتفاء بالله:**

فإذا ما وجد المرء ربه، وربط أحداث حياته كلها به، فإن هذا من شأنه أن يجعله يوحد معاملاته، ويجعلها مع الله.

فهو يدعو ويجاهد من أجل أن يراه ربه فيحبه ويرضى عنه.

يتكلم بحساب، فهو يعلم أن الكلمة التي تخرج من فمه يسمعها ربه قبل أن يسمعها الناس.

ينفق النفقة ولا يهمه كثيرًا من يأخذها - مادام حاله في الظاهر يدل على أنه محتاج - لأنه يعلم أنها تقع في يد الله أولًا: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [التوبة:١٠٤].

فالله ﷻ هو الحاضر معه في كل صفقة أو بيعة يجريها، فيستشعر أنها تتم معه - سبحانه - أولًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح:١٠].

لا يهمه كثيرًا رضا الناس عنه أو سخطهم عليه، فليس هذا مطمعه وليس

(١) مقومات التصور الإسلامي: (١٩٢).

هذا ما يسعى إليه، بل مطمعه في رضاه سبحانه، **كما قال الشاعر**:

فَلَيْتَكَ تَحْلُو وَالحَيَاة مَرِيرَةٌ ... وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالأَنَامُ غِضَابُ
وَلَيْتَ الّذي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرٌ ... وبيني وبينَ العالمينَ خرابُ
إذا صَحَّ مِنكَ الوُدّ فالكلُ هَيّنٌ ... وَكُلُّ الذي فَوْقَ التّرَابِ تُرَابُ

ينتظر الفرصة التي يخلو فيها المكان، وتهدأ الأصوات ليخلو بربه، ويبث إليه أشواقه، ويعرض عليه شكايته، ويطلب منه حاجته، يسارع في استرضائه، إذا ما وقع منه تقصير أو تجاوز **ويتمثل قول أبي نواس**:

إِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً ... فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلا مُحْسِنٌ ... فَمَنِ الَّذِي يَدْعُو وَيَرْجُو الْمُجْرِمُ
أَدْعُوكَ رَبِّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعًا ... فَإِذَا رَدَدْتَ يَدِي فَمن ذَا يرحم
مَا لِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلا الرَّجَا ... وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ إِنِّي مُسْلِمُ

إنه باختصار قد اكتفى بالله واستغنى به عمن سواه.

✍ **قال أحمد بن عاصم الأنطاكي**: من عرف الله ﷻ اكتفى به، ومن لم يعرفه اكتفى بخلقه دونه، فطال غمه، وكثرت شكايته.(١)

وهذه هي الحياة الحقيقية.. الحياة مع الله..

✍ **كان ابن عطاء يقول في مناجاته**: إلهي ماذا وجد من فقدك، وما الذي فقد من وجدك.. لقد خاب من رضي بدونك بدلًا، ولقد خسر من بغى عنك

(١) استنشاق نسيم الأنس للحافظ ابن رجب: (٨٠ – ٨١).

متحولًا.

✍ **وهذا إبراهيم بن أدهم يقول**: اتخِذِ الله صاحبًا، ودع الناس جانبًا.(١)

وكان يقول: أعلى الدرجات أن تنقطع إلى ربك، وتستأنس إليه بقلبك، وعقلك، وجميع جوارحك حتى لا ترجو إلا ربك، ولا تخاف إلا ذنبك، وترسخ محبته في قلبك حتى لا تؤثر عليها شيئًا، فإذا كنت كذلك لم تُبال في بَرٍّ كنت أو في بحر، أو في سهل، أو في جبل، وكان شوقك إلى لقاء الحبيب شوق الظمآن إلى الماء البارد، وشوق الجائع إلى الطعام الطيب، ويكون ذكر الله عندك أحلى من العسل، وأحلى من الماء العذب الصافي عند العطش في اليوم الصائف.(٢)

لوجدتني عنده:

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ، فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ،**

---

(١) استنشاق نسيم الأنس للحافظ ابن رجب: (٧٧).

(٢) جامع العلوم والحكم: (٨٤).

قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْـدِي فُـلَانٌ فَلَـمْ تَسْـقِهِ، أَمَـا إِنَّـكَ لَـوْ سَـقَيْتَهُ وَجَـدْتَ ذَلِـكَ عِنْدِي». (١)

إن هذا الحديث يعلمنا أن غاية المعرفة أن نجد الله ﷻ قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء: ١١٠].

- نجد صفاته العلى تتجلى في أحداث حياتنا.

- نجده قريبًا فنأنس به ونناجيه.

- نجده حكيمًا في كل مشيئة يشاؤها لنا فنرضى بقضائه.

- نجده سريع الحساب يعاقب على الذنب ويعفو عن كثير، فنسارع بالتوبة إليه كلما وقعنا في الخطأ.

- نجده لطيفًا في قدره.

- نجده سميعًا قريبًا يجيب دعاءنا في دقائق الأمور وتفصيلاتها التي دعوناه بها ولم يعرفها سواه فنشعر بالأمان في جواره.

- نجده قهارًا ينفذ مشيئته فنستسلم له.

- نجده قادرًا مقتدرًا فنستعين به دومًا على تنفيذ كل ما نريد.

- نجده حليمًا ستيرًا فنحبه ونستحي منه.

---

(١) صحيح مسلم: (٢٥٦٩).

- نجده معنا في كل وقت وحين، فنكلمه ونبث إليه أشواقنا، ونُسِرُّ إليه بخصوصياتنا.

- نجده حين نأكل، وحين نشرب، وحين ننام، وحين نستيقظ، وحين نركب دوابنا، فهو الذي يطعمنا ويسقينا، وهو الذي يتوفانا حين النوم ويوقظنا، وهو الذي يحملنا ويسيرنا في البر والبحر والجو... ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يس:٤١].

*** وتأمل معي أيها القارئ الكريم هذا الحديث النبوي:** عَنْ أَبِي لَاسٍ الْخُزَاعِيِّ، قَالَ: حَمَلَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى إِبِلٍ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ ضِعَافٍ لِلْحَجِّ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا نَرَى أَنْ تَحْمِلَنَا هَذِهِ؟ فَقَالَ: «**مَا مِنْ بَعِيرٍ إِلَّا وَفِي ذُرْوَتِهِ شَيْطَانٌ، رَكِبْتُمُوهَا فَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ كَمَا أَمَرَكُمُ اللهُ، ثُمَّ امْتَهِنُوهَا لِأَنْفُسِكُمْ فَإِنَّمَا يَحْمِلُ اللهُ**».(١)

فما الدابة التي نركبها إلا ستار وسبب لا قيمة له بدون الله ﷻ، فهو سبحانه الذي سخرها لنا، وهو الذي يحركها لحظة بلحظة، وآنًا بآن، وكذلك كل شيء يحدث في هذه الحياة معنا أو مع غيرنا.

فعندما نضحك نجده من وراء الضحك حيًا قيومًا قد علم برغبتنا في الضحك فمكننا من ذلك: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النجم:٤٣].

وعندما نأكل: نستشعر ربوبيته وقيوميته علينا فنقول: الحمد لله الذي

(١) المعجم الكبير للطبراني: (٢٢/ ٣٣٤)، وانظر: صحيح الجامع: (٥٦٩٩).

أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة.

وعندما يأتينا عطاء من أحد الناس نرى أن الله ﷻ هو الذي أعطانا إياه من خلال هذا الشخص، وعندما نُحرم من شيء، أو يُضيّق علينا البعض نرى الحقيقة واضحة أمامنا وهي أن الله هو الذي حرمنا على يد هؤلاء بسبب ذنب أذنبناه أو لحكمة يعلمها سبحانه.

نجد الله في كل خير نفعله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الدخان:٥٨]، ولو شاء منعه لمنعه: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء:٨٦].

نجد الله الهادي في كل طاعة نقوم بها: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [الأنبياء:٧٣].

وبالجملة نرى الله وراء كل حدث يحدث في الحياة... عند هبوب الريح، وعند طلوع الشمس وعند غروبها.. عند نزول المطر.. عند الكسوف والخسوف قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور:٤٤].

* عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، أَنَّهُ سَمِعَ عَائِشَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ، تَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا كَانَ يَوْمُ الرِّيحِ وَالْغَيْمِ، عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا مَطَرَتْ سُرَّ بِهِ، وَذَهَبَ عَنْهُ ذَلِكَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: «**إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ عَذَابًا سُلِّطَ عَلَى أُمَّتِي**»، وَيَقُولُ، إِذَا رَأَى الْمَطَرَ:

«رَحْمَةٌ».[(١)]

وكان أحد الصالحين إذا ذهب إلى المسجد ليلقي درسه، وجد جموعًا غفيرة من الناس تنتظره فيناجي الله ويقول: اللهم إنك تعلم أنهم يقصدونك أنت، ولكنهم وجدوني عندك.[(٢)]

المعرفة المؤثرة:

فإن قلت: ولكننا نعرف الله ﷻ، ونعرف قدرته وعظمته وفضله علينا ومع ذلك لا نتعامل معه بما يستحقه - سبحانه - ولا نشعر بقربه ولا نأنس به...؟!

نعم، أغلبنا يشتكي من جفاء في علاقته ومعاملته مع الله، مع ما ندعي من معرفته سبحانه وأن الأمر كله بيده، والسبب في ذلك هو أن المعرفة المطلوبة والتي من شأنها أن تغير طريقة المعاملة، وتحسن العلاقة بين العبد وربه، لابد أن تكون معرفة قوية ترسخ في يقين الإنسان وتؤثر في قلبه، أو بعبارة أخرى: تؤثر في مشاعره باعتبار أن القلب هو مجمع المشاعر داخل الإنسان، ومن ثَمَّ تشكل هذه المعرفة جزءًا أصيلًا من إيمانه، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج:٥٤].

(١) صحيح مسلم: (٨٩٩).

(٢) حقيقة العبودية: (ص: ٢٦).

أما المعرفة المحدودة العابرة فلا يمكنها أن تؤثر تـأثيرًا مسـتمرًا في حيـاة العبد، والدليل على ذلك أننا عندما نسمع محاضرة عن فضل الله علينا وتـوالي نعمه وإمداده، فإنَّ المشاعر تتجه بالحب إليه سبحانه، ثم بعـد ذلـك تخفـت حرارة تلك المشاعر بانتهاء أثر الكلام الذي سمعناه، وهـذا هـو الفـارق بـين الحالة الإيمانية العارضة، وبين الحالة الإيمانية المستقرة.

فالحالة العارضة هي الحالة الشعورية العابرة التـي تنتـاب المـرء عنـدما تُستثار مشاعره في اتجاه ما.

هذه الحالة سرعان مـا تـزول وذلـك عنـدما تعـود المشـاعر إلى حالتهـا الأولى، فنجد الشخص يتأثر بالموعظة المؤثرة وقد يبكـي وينتحـب ثـم بعـد ذلك يعود إلى سابق عهده مـن الانشـغال بالـدنيا والغفلـة عـن الآخـرة، فـإذا استمر الطرق على المشاعر بدوام الوعظ والتذكير: استمرت الحالة الشعورية للشخص، وشيئا فشيئا تستقر في المشاعر، أي تُشكل هذه الحالـة جـزءًا ثابتًـا من المشاعر، ومن ثَم يسهُل اسـتثارتها بـأدنى مـؤثر، وتصـبح منطلقـا دائمـا للسلوك.

وهذا هو الفارق بـين الإيمـان الأصـيل الثابـت الـذي يسـتقر في القلـب وتصدقه الأعمال، وبين الإيمان اللحظي العابر الذي يُنتج أعمالًا آنيـة وغيـر مستمرة.

✍ **يقول الحسن**: ليس الإيمان بالتحلي ولا بـالتمني، ولكـن مـا وقـر في

القلب وصدقته الأعمال..(١)

معنى هذا أننا بحاجة إلى أن نجعل معرفتنا بالله تتحول إلى إيمان يستقر في القلب ويرسخ فيه وينمو شيئًا فشيئا حتى يشكل الجزء الأكبر من المشاعر، فيصير حبه سبحانه أحب الأشياء لدينا وخشيته أخوف الأشياء عندنا، وهكذا في بقية المشاعر فتظهر تبعًا لذلك الثمار الطيبة لهذه المعرفة النافعة كما قال ﷺ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**».(٢)

فإذا ما اكتفت المعرفة بمخاطبة العقل فقط، ولم تصل إلى المشاعر، ولم يستقر مدلولها فيها، ستظل هذه المعرفة حبيسة العقل، ولن تظهر ثمارها في السلوك.

يا رب أنت رجائي ... وفيك حسنت ظني

يا رب فاغفر ذنوبي ... وعافني واعفُ عني

العفو منك إلهي ... والذنب قد جاء مني

الموعظة الثانية

إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا

إِنّ الْعِزّةَ لِلّه جَمِيعًا

يقول ربُّ العزة وصاحب العظمة والكبرياء: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ [يونس:٦٥].

إن طريق الدعوة الصحيح، لابد أن يمر بمرحلتين:

الأولى: مرحلة التعريف بالله واليوم الآخر. **الثانية**: مرحلة التعريف بمنهج الله.

وأيّ دعوةٍ إلى الله غَفَلَت عن تعريف أتباعها بالله واليوم الآخر دعوةٌ عرجاء، دعوةٌ لا تنجح، لأن المرء إذا أُمِر بالصلاة، فالسؤال يصلي لمن؟، وإذا أُمِر أن يستقيم، يستقيم خوفًا مِن مَن؟ إنه لا يعرف الله!!

ومن هنا أقول: إذا عرف الإنسان الأمر، ولم يعرف الآمر تفنن في التفلُّت من هذا الأمر، وهذا حال المسلمين اليوم أعظم من أن يُخفى، صار الإسلام شكليات ومظاهر، صار الإسلام لباسًا إسلاميًا؛ صار الإسلام آياتٍ قرآنيةً نزين بها البيت، لكن لا توجد استقامة.

الآيات المكية تُعرفنا بالآمر بينما الآيات المدنية تُعرفنا بالأمر الإلهي:

إن القرآن منه المَكِّي ومنه المدني، والعلماء يذكرون فوارق بين القرآن

المكيّ والمدني، ولكن هناك فارق دقيق بين القرآن المكي والمدني ذكره الدكتور النابلسي فقال: إن القرآن المكي يعرِّف بالآمر وهو الله، والقرآن المدني يعرِّف بالأمر وهو افعل ولا تفعل.

✍ **قلت: (محمد):** ولا يعنى هذا أن القرآن المدني خلا من التعريف بالآمر ففي سورة البقرة مثلًا وهي مدنية: تعريف بالآمر قال تعالى: ﴿ **وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة:١٦٣]. ولكن السمة الغالبة للسور المكية كما قال جزاه الله خيرًا.

- إذن السمة الغالبة أن القرآن المكي يدعوا إلى الإيمان بالله واليوم الآخر عن طريق الآيات، وأيَّة دعوةٍ إلى الله تُغفل هذا الشطر الكبير من الدين فهي دعوةٌ عرجاء لا تنجح، ولنعلم أن الإنسان حينما يؤمن بالله إيمانًا صحيحًا، سيبحث عن أمره ونهيه، بشكلٍ حثيث.

وقفة تدبرية:

وقفت أتأمل في كلمة ﴿ **جَمِيعًا** ﴾ فوجدتها تكررت في القرآن (٤٦)، ستة وأربعين مرة، ولفت انتباهي منها عدة مواضع وهي كالآتي:

١- قال تعالى: ﴿ **أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾ [البقرة:١٦٥].

٢- وقال تعالى: ﴿ **أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ١٣٩** ﴾ [النساء:١٣٩].

٣- وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾ [يونس:٦٥].

٤- وقال تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ [الرعد:٣١].

٥- وقال تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾ [الرعد:٤٢].

٦- وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر:١٠].

٧- وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ [الزمر:٤٤].

فالآيات أثبتت أن: (القوة، والعزة، والأمر، والمكر، والشفاعة) لله جميعًا.

وبناء على حديثنا السابق عن المكي والمدني نلحظ أن النصيب الأكبر جاء في السور المكية فالبقرة وهي مدنية جاء فيها قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة:١٦٥]، وسورة النساء وهي مدنية أيضًا جاء فيها قوله تعالى: ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ١٣٩﴾ [النساء:١٣٩].

ثم تأتي سورة يونس وفيها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ [يونس:٦٥].

وَفِي سورة الرعد قوله تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ [الرعد:٣١]، وقوله: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾ [الرعد:٤٢].

وَفِي سورة فاطر قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر:١٠]. [فاطر: ١٠]

- وَفِي سورة الزمر قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ [الزمر:٤٤].

- فالمحصلة النهائية أن القرآن المكي، له سمة تغلب على سوره، هذه السمة كما أسلفنا هي التعريف بالآمر سبحانه وتعالى وعَجَلّ.

ومستعينًا بربي سبحانه سأقف ثلاث وقفات في ثلاث مواعظ متتاليات أرجو من الله أن تكون زادًا بين يديه أتحدث فيها عن: (العزة، والأمر، والقوة).

والبداية عن العزة فأعود قائلًا: يقول ربُّ العزة وصاحب العظمة والكبرياء: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ [يونس:٦٥]، ويقول أعزُّ من قال: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠﴾ [الصافات:١٨٠].

إن الله منزه عن كل نقص، وسبحانه مختص بالعزة، وكيف لا وهو مالكها الحقيقي والحَصْرِيّ، **يقول ابن كثير**: «(العزيز) أي: الذي قد عز كل شيء فقهره وغلب الأشياء فلا ينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه».(١) **ويقول القرطبي**: «(العزيز) معناه المنيع الذي لا ينال ولا يغالب».(٢)

ويقول أعزُّ من قال: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [يونس:٦٥]، ويفرد الله بالعزة هنا، لأن السياق سياق حماية الله لأوليائه، فيفرده بالعزة جميعًا - وهي أصلًا لله وحده، والرسول والمؤمنون

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٤٣.

(٢) تفسير القرطبي ٢/ ١٣١.

يستمدونها منه، والله ﷻ لا يؤتيها إلا لرسوله وللمؤمنين المتبعين له ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون:٨].

✍ **ويقول ابن القيم في نونيته:**

وهو العزيز فلن يرام جنابه ... أنى يرام جناب ذي السلطان

وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شيء هذه صفتان

وهو العزيز بقوة هي وصفه ... فالعز حينئذ ثلاث معان

وهي التي كملت له سبحانه ... من كل وجه عادم النقصان.(١)

✍ **ويوضح الشيخ السعدي هذه المعاني الثلاثة (للعزيز) فيقول:** «(العزيز) الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته».(٢)

العزة خُلقٌ من أخلاق المؤمنين:

وقد أشار سبحانه في كتابه المجيد أن العزة خُلقٌ من أخلاق المؤمنين التي يجب أن يتحلوا بها ويحرصوا عليها، فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون:٨]، وقال عن عباده الأخيار: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤]، وقال

---

(١) النونية: (٢/ ٢١٨).

(٢) تفسير السعدي: (٥/ ٣٠٠-٣٠١).

وَجَلَّ: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنًا ﴾ [الفتح:٢٩]، والشدة على الكافرين وعلى أعداء الله تستلزم العزة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٩] وهذا يقتضي أن يكونوا أعزاء.

عزة المسلم ورفعته في إيمانه وتوحيده:

إن من أسلم وآمن فقد علا وارتفع، ومن كفر فهو في منتهى الذلة كما قال صاحب العظمة والكبرياء: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾ ﴾ [الحج:٣١] إذا أشرك تنازل عن عزته وعليائه، وتأمّل كيف قال تعالى: ﴿خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الحج:٣١]؛ لأن الإسلام نقله من حضيض الغبراء إلى شامخ العلياء، ولأنه في شامخ العلياء لا يطلب العزة إلا من الله، أما المنافق فإنه يجري خلف الكافرين والمنافقين أمثاله ممن يظهر له ثراؤهم وسلطتهم وشهرتهم فيبتغي منهم العزة ولا يجدها إلا وهمية لأن العزة كلها جميعا بيد الله وحده قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴾ [النساء:١٣٩]، ولذلك وبعد هذا بآيات حذَّر الله عباده المؤمنين من طريق هؤلاء وصنيعهم، فقال سبحانه بعد ذكر النفاق وأحوال المنافقين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ ﴾ [النساء:١٤٤] ثم ذكر سبحانه مصير

المعتزين بالكافرين الموالين لهم فقال أعزُّ من قال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ [النساء:١٤٥].

انقلاب من عُبِدُوا على مَنْ عَبَدُوهُم يوم القيامة:

إن من اعتزوا واعتضدوا بغير الله، سينقلب عليهم من اعتزوا بهم من دون الله كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ [مريم:٨١، ٨٢]، فالذين يطلبون العزة من الكفار والمنافقين لن يجدوا عزةً عند أقوامٍ مساكنهم الدرك الأسفل من النار.

الإسلام دين العزة:

إن ديننا يعلمنا أن نكون أعزاء وإن لم نلبس إلا رديء الثياب، كما يعلمنا ديننا أن العزة فيمن تعلق بالعزيز وحده لا شريك له؛ فربنا يعلمنا الإقدام والثبات في مواطن اليأس، موقنين أن الله العزيز القوي معنا، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [النساء:١٠٤]، ويقول سبحانه: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ [محمد:٣٥]. لا تكن ذليلًا خوَّارًا جبانًا ضعيفًا، بل كن شامخًا بإيمانك قويًا باعتقادك.

المسلمون لا يخافون لأنهم يملكون منبع العزة:

إن المسلمين لا ينبغي لهم أن يخافوا وهم يملكون أعظم شيء وهو

الإيمان، لا يخافون لأن الإيمان هو القوة التي تتحطم عليها قوى الفساد والشرك والإلحاد، فمم نخاف والله معنا ناصرنا ومؤيدنا؟

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران:١٣٩] متى يحصل هذا العلو؟ متى تتحقق هذه العزة؟ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران:١٣٩]، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، فهي لأهل الإيمان والإسلام دون غيرهم، بِغَضِّ النظر عن أي شيءٍ أو وصف آخر.

اعتزاز الأنبياء بالإيمان:

• الخليل إبراهيم:

حينما يؤمن الإنسان بالله فإنه يوقن أن أيّ قوي في قبضة الله، كل ما حوله بيد الله،، كل مَن فوقه بيد الله، كل مَن تحته بيد الله، فلا يمكن أنْ يُقْبِلَ خوفٌ وفزعٌ وهلعٌ وانهيارٌ مع الإيمان بالله، بل إن الإيمان بالله أصلٌ في الصحة النفسية، وَفِي التماسك والقوة والمعنويات المرتفعة، ومواجهة الأخطار بثبات، ولنتذكر أن الإيمان هو الذي جعل إبراهيم عليه السلام في موقف القوي، ليقول للكثرة الكافرة التي أَجَّجَت النار لتحرقه بها، يقول لهم وهو الذي قيد وربط ليُرمى في النار، يقول لهم في كل عزةٍ: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ﴾ [الأنبياء:٦٧]، ليجعل الله الخسار والذلة لمن عاداه: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ٧٠﴾ [الأنبياء:٧٠]، كذلك يكون المؤمن معتزًا، يرى أنه القوي وأعداؤه الضعفاء، لا يتردد ولا يداخله الشك، ولا تهزه ألوان

الأذى ولا التهديد، كل ذلك إذا تغلغل الإيمان فيه.

• **كليم الله موسى عليه السلام:**

سار موسى بأتباعه ليلًا، متوجهًا إلى المشرق، إلى البحر الأحمر، حتى يخرج من مصرَ إلى الأرض المقدسة.

ولما أشرقت شمس الصباح اقترب فرعون وجنوده من المؤمنين، قال تعالى: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الشعراء:٦٠]، أي: وصلوا إليهم عند شروق الشمس، ولما أشرقت الشمس كان موسى على الشاطئ، فوقفوا هناك؛ لأنهم ليس معهم سفن ولا قوارب.

فنظر بنو إسرائيل خلفهم، فرأوا منظرًا في غاية الهول والفزع!!

رأوا فرعون وجنوده مقبلين نحوهم، بعدّتهم وعتادهم!!

فماذا يفعل بنو إسرائيل أمام هذا الجيش العظيم المدجج؟

وبدأ الخوف يسري في قلوب بني إسرائيل، وسيطر علهم الفزع، ها هو فرعون وجنوده سينتقمون منا!!

فأطلقوا صيحة مِلؤها الرعب، وقالوا: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء:٦١] لقد أدركونا، والآن ستكون الإبادة!

هذه هي الضربة القاضية على الإسلام وأهله، لا بقاء لنا!!

ففي حساب البشر ـ المادي ـ ليس أمامهم فرصة للنجاة، فكيف ينجون والبحر من أمامهم، والعدو من خلفهم!! فكل الحسابات البشرية تقول: إنهم

مدركون، وأنه قد انتهى أمرهم!!

ولكن.. للإيمان والتوكل على الله حساب آخر، يعرفه نبيهم موسى عليه السلام، ولهذا طمأنهم وأزال خوفهم، فقال: ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢].

ثم قدّم لهم حقيقة قاطعة، علّلَ بها سبب طمأنينته ويقينه؛ أن الله معه، وأنه سيهديه إلى التصرف المناسب، وسيخلّصه من أعدائه.

﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢] ربي معي بعلمه وحفظه وعنايته، أبدًا لن يتخلّى عني.

وهذا ما يجب أن يكون عليه المسلم؛ أن تقوى ثقته بربه وبنصره، فالقوة والاستعداد المادي والثقة بالعدد والعُدّة بدون تعلّقٍ بالله لا يغني شيئًا.

اعتزاز أتباع الأنبياء بإيمانهم:

وكما اعتز الأنبياء بإيمانهم، اعتز أتباعهم بإيمانهم، وها هو فرعون يهدد السحرة الذين انقلبوا عليه بين عشيةٍ وضحاها، فقال يهددهم: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٢٤]، فماذا كان جواب أهل العزة الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، فانقلبوا من سحرة إلى بررة، انقلبوا من أذلاء أمام فرعون إلى أعزاء بالإيمان، فقالوا ما حكاه القرآن: ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ ﴾ [طه:٧٢] لماذا؟ ما الذي جعلهم ينقلبون بهذا التحول الخطير؟ ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ

ٱلسِّحْرِ﴾ [طه:٧٣] السبب أننا عرفنا الحقيقة، والسبب هو الإيمان وحده ولا شيء غير الإيمان.

العزة الكاذبة:

- إن فرعون اعتز بالتراب والماء ونسي خالق السماء، يقول: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف:٥١] ما سبب العزة عنده؟ ما صلته بالعزة؟ ما مؤهلات العزة لديه؟ ما رصيد العزة عنده؟ أرضٌ ومالٌ وجاهٌ وسلطة ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف:٥١] انظروني في كثرة مالي وَفِي قوتي وفصاحتي.

وَفِي المقابل يقول: انظروا إلى موسى في ضعفه وقلة ما في يده وشيءٍ من عيِّه، ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف:٥٢] وخدع الناس بهذه العزة الزائفة، ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف:٥٤].

كل عزة قامت على باطل لابد أن تزول:

لما اسْتَخَفَّ فرعونُ قَوْمَهُ كانت نتيجة هذه العزة القائمة على الشرك والظلم والتدجيل، ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف:٥٥ - ٥٦].

إن كل عزةٍ قامت على باطلٍ سوف تزول، وكل اعتزازٍ غير موصولٍ بالله

فهو بوارٌ وخسار، ومهما ابتغى بعض الناس العزة بغير هذا الطريق فلهم الذلة، وأناس انتهجوا طرقًا وأحوالًا للوصول إلى عزةٍ أو منعة أو رفعة لكن بغير طريقٍ تَمُتُّ للدين بصلة. فماذا كانت النتيجة؟ كان البلاء فيما طلبوه، وكانت الذلة فيما تبعوه، وكان البوار والخسار فيما سألوه.

- لقد جاء السحرة معتزين مغترين بعزة العبد الذليل فرعون، نعم فرعون لديه عزةٌ وقوةٌ ومنعةٌ لكنها زائلة باطلة؛ جاء أتباعه ﴿ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الشعراء:٤٤] ظنوا أنهم قد تحصنوا بأمنع الحصون، فماذا كانت النتيجة؟ ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الشعراء:٤٥ - ٤٦].

- **صاحب الجنتين واعتزازه بماله وأهله:**

قال أعزُّ من قال: ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الكهف: ٣٢ - ٣٤].

انظر إلى أي درجةٍ بلغت به عزة الطغيان والظلم والاستغناء! ماذا كان نتيجته بعد حوارٍ من صاحب يحاوره؟

يقول له: ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ [الكهف:٣٧] أي عزةٍ تتعلق بها، وأي استغناءٍ أنت فيه من ربك الذي خلقك من تراب؟ ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى

خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [الكهف:٣٧، ٣٨]، ولو أنك يا هذا الذي غرتك دنياك وثمارك وأنهارك﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الكهف:٣٩] يطول الحوار ويطول الجدال ويتردد السؤال، ومع ذلك هذا الذي استغنى بأنهاره وثماره وأشجاره، ما كان خبره؟ وما هي نتيجته؟﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الكهف:٤٢].

أين ما اغتر به؟ أين أنهاره؟ أين أنصاره؟ أين أعوانه؟ أين جنده؟ أين خدمه؟ أين حشمه؟ ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الكهف:٤٣].

• قارون واعتزازه بماله:

إن قارون نسب النعمة لنفسه واعتز بما عنده، حتى ابتلي وفتن بالأموال، ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ ﴾ [القصص:٧٦]، وهنا ذكَّره بعضُ الناس من قومه: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [القصص:٧٦]، لا تفرح ولا تطغى ولا تبطر ولا تمش في الأرض مرحًا، ولا تتكبر على الناس! فما كان جوابه؟ ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓۚ ﴾ [القصص:٧٨].

فما كانت نتيجته؟ ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ

مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص:٨١].

- **أبو جهل وعزته الزائفة:**

إن أبا جهل كان يمشي متبخترًا مدعيًا أنه أفضل وأعز أهل مكة وأكرمهم، فكانت نتيجة عزته الواهمة والموهومة القائمة على الباطل، ما قصَّه ربُّ العزَّة علينا في القرآن: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الدخان:٤٣-٤٤] والأثيم هو: أبو جهل، وكل من لفَّ لفَّه وسلك مَسْلَكه ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان:٤٣ - ٤٩] أي عزةٍ تتعلق بها، أي عزةٍ تدعيها؟ يقال له هذا تهكمًا وهو في حالٍ من الذل والهوان في الدنيا والآخرة.

عزة النفس:

إن المؤمنين يتزينون دائمًا ويعتزون بزينة التعفف والقناعة، والرضا بقدر الله، لذلك فهم لا يذلون لأحد قال الله سبحانه: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة:٢٧٣] إن الوصول إلى مرحلة التعفف أمرٌ يحتاج إلى رصيدٍ كبيرٍ من الصبر والتجمل والتحمل لكل الظروف القاسية دون ضراعةٍ لأحدٍ إلا الله، وهكذا كان خيار خلق الله بعد أنبيائه كانوا على هذه الشاكلة؛ كانوا

يعلمون أن عزة النفس لا يمكن أن تكون إلا بالتعفف عما في أيدي الناس، والتعفف عن الحاجة لهم، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَعِزُّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ**».(١)

أما الذين يظنون أن عزة النفوس لا تأتي إلا بعد شبع البطون وامتلاء الجيوب، فالغني عندهم هو الذي يملك أن يكون عزيزًا، وأما الفقير فهم يرونه ذليلًا خاضعًا ولا ينبغي له إلا أن يذل ويخضع في نظرهم، وفشت هذه المفاهيم في كثيرٍ من المجتمعات المعاصرة إلا من رحم الله، وفشا معها عند بعض الأغنياء الطغيان والتكبر، كما فشا معها عند بعض الفقراء المداهنة والتملق والنفاق، وهؤلاء والله لا يعرفون إلى العزة سبيلًا.

- **من أراد العزة فعليه بفعل ما يأتي:**

- إذا أردت أن تنال العزة في الدنيا والآخرة، فعليك بما يلي:

١- تذلل للعزيز سبحانه وتقرب إليه بِذُلِّكَ يتقرب إليك بعِزِّه، وامدد يدك إليه بافتقار يمدّك منه بعزة وكرامة وغنى، فعن جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى، وَجِبْرِيلُ كَالْحِلْسِ الْبَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللهِ عز وجل**».(٢)

---

(١) المعجم الأوسط (٤٢٧٨)، وصحيح الجامع: (٧٣).

(٢) المعجم الأوسط: (٤٦٧٩)، صَحِيح الْجَامِع: (٥٨٦٤)، الصَّحِيحَة: (٢٢٨٩).

✍ **ولذلك قال بعض العلماء:** طرقت الأبواب إلى الله فوجدتها ملأى، فطرقت باب التذلل إلى الله فلم أجد عليه إلا القليل من الناس. فكلما ذللت له رفعك وأعزك.

- أكرِم الناس، وارفعْ من قدرهم ومكانتهم، وعاملهم كما تحب أن يعاملوك، وارضَ لهم ما ترضاه لنفسك، ولا تنس قول رسول الله ﷺ: «... **وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ، إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ**».(1)

حاول أن تتخلص من الذل، ولا تقبل الذل ولا ترضاه لنفسك، قال ﷺ: «**لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ**» قَالُوا: وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ؟ قَالَ: «**يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ**».(2)

ولا يقف بك الأمر عند تخليص نفسك وذويك فقط من الذلة والمهانة، بل ينبغي أن يصل بك الطموح، ويرتفع بك الواجب إلى أن تزيل الذلة عن الأمة الإسلامية، فخطّط كيف تخرجها من ذلها، وتردها إلى عزتها ومكانتها!!.

٢- التزم بالكلم الطيب والرد بالحسنى واشغل نفسك بالأعمال الصالحة واترك المكر فإنه يبور. قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر:١٠].

(١) صحيح مسلم: (٢٥٨٨).

(٢) سنن ابن ماجه: (٤٠١٦)، سنن الترمذي: (٢٢٥٤)، والسلسلة الصَّحِيحَة:

٣- **الصبر**: فإن الله قادر على تغيير موازين القوة في ثوان معدودة كما رفع بني اسرائيل وأغرق فرعون، وكما خسر الأحزاب بريح اقتلعت خيامهم وشتَّتَتْ ركوبهم، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة:٥٤].

٤- **كن مع الله**: فالعزة بيده ويؤتيها من يشاء وقد وعد أنها للمؤمنين فكن أنت من المؤمنين حتى تنالها قال سبحانه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦].

الموعظة الثالثة

لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا

لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا

يقول صاحب العظمة والكبرياء: ﴿لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ [الرعد:٣١]، ويقول أعزُّ من قال: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ [آل عمران:١٥٤]، ويقول عزَّ مِن قَائِل: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود:١٢٣]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ [الروم:٤].

- إن أهل التفسير لما تكلموا عن قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ﴾ [الروم:٤]، ذكروا ألفاظًا متقاربة، أذكر بعضها ومن خلال هذه المعاني نبدأ لتكون البدايةُ صحيحةً.

✍ **قال القرطبي**: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ [الرعد:٣١] أَيْ هُوَ الْمَالِكُ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ، الْفَاعِلُ لِمَا يَشَاءُ مِنْهَا.(١)

✍ **وقال ابن كثير**: أَيْ: مَرْجِعُ الْأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى اللهِ، ﷻ، مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يكن، ومن يضلل فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ.(٢)

(١) تفسير القرطبي: (٩/ ٣١٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٦١).

✍ **وقال القاسمي**: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١] أي: له الأمر الذي عليه يدور فلك الأكوان وجودا وعدما، يفعل ما يشاء. ويحكم ما يريد لما يدعو إليه من الحكم البالغة.(١)

وقوله تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١] أي أن الأمر كلّه لله، لا يسأل عما يفعل، وهو سبحانه إذ حجز هؤلاء المشركين عن الهدى، وختم على قلوبهم وعلى سمعهم، وجعل على أبصارهم غشاوة، فلم يروا آيات الله الكونية، ولم يسمعوا آيات الله المنزلة على نبيّه، ولم يتحوّلوا عن طريق الشرك.(٢)

✍ **وقال الشعراوي**: وكلمة «أمر» تدلُّ على أنه شيء واحد، وكلمة «جميعًا» تدل على مُتعدِّد، وهكذا نجد أن تعدُّد الرسالات والمُعْجِزات إنما يدلُّ على أن كُلَّ من أمر تلك الرسالات إنما صدرَ عن الحق سبحانه؛ وهو الذي اختار كلَّ مُعْجزة لتناسب القومَ الذين ينزل فيهم الرسول.(٣)

إذن: أفدنا من كلامهم أن مَرْجِعَ الْأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى اللهِ ﷻ، مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يكن، ومن يضلل فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ.

✍ **ومن هنا نقول**: إن الله ﷻ هو وحده الذي يملك هذا الكون كله، قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٨٩]، وقال سبحانه:

---

(١) تفسير القاسمي: (٦/ ٢٨٥).
(٢) التفسير القرآني للقرآن: (٧/ ١٢٢).
(٣) تفسير الشعراوي: (١٢/ ٧٣٤٠).

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة:١٧]، وقال سبحانه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ﴾ [المائدة:١٢٠]، فكل ما تراه أمامك، وكل ما يوجد خلفك، وعن يمينك وشمالك، فهو ملك ذاتي لله جل ثناؤه ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٩١]، ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ﴾ [مريم:٦٤]، ومع مُلكه لكل شيء فهو سبحانه المتصرف والمدبر لشئون جميع خلقه -صغيرها وكبيرها- وهو القائم على تربية جميع مخلوقاته بالإمداد والرعاية فهو: ﴿رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ﴾ [الأنعام:١٦٤].

الله لا ينسى أحدًا من خلقه:

إن الله لا ينسى أحدًا من خلقه كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم:٦٤]، ولما سأل فرعونُ موسى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾ [طه:٥١]، قال موسى عليه السلام: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢].

- إن الله لا ينسى حاشاه، وكيف ينسى أحدًا من خلقه ووجوده، ووجود جميع المخلوقات مرتبط به سبحانه، فإما الإمداد الإلهي المستمر للجميع وإلا فلا حياة ولا وجود قال أعزُّ من قال: ﴿۞ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى

ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ [هود:٦]، وقال سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٠]، وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [الملك:١٩].

فكافة أمور الخلائق وما يستلزمها من مقومات الحياة والحركة والسكون، وما يتعلق بوجودها من علاقات متشابكة بين أنواعها المختلفة أو بين النوع الواحد. كلها بأمره سبحانه، هو الذي يدبرها ويتولى أمرها ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ ﴾ [الأعراف:٥٤].

كل شيء في هذا الكون قائم بأمر الله سبحانه:

إنَّ كل شيء في هذا الكون قائم بالله سبحانه، قال صاحب العظمة والكبرياء: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ﴾ [الروم:٢٥].

* وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحج:٦٥].

* وقال الحق سبحانه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر:٤١].

* وقال تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ

﴿فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [يس:٤٠].

كل شيء في هذا الكون يستمد احتياجاته من الله:

وكل شيء في الكون يستمد احتياجاته من الله سبحانه، فجميع إمدادات الخلائق في خزائنه وحده لا شريك له قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [المنافقون:٧].

- الإمداد بالنوم والاستيقاظ..
- الشعور بالراحة أو التعب..
- القيام أو القعود أو الجلوس..
- الضحك أو البكاء..
- الكلام أو الإنصات..
- الشهيق أو الزفير..
- الهضم أو الامتصاص أو التمثيل الغذائي..

كل هذا وغيره يستمد وجوده وفاعليته من خزائن الله، ولا يوجد أي مصدر آخر في هذا الكون يقوم بذلك، قال صاحب العظمة والكبرياء: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠﴾ [الإسراء:١٠٠].

عنده خزائن كل شيء:

يقول الملك سبحانه: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر:٢١]، فالله عنده خزائن كل شيء، ولذلك عندما طلب سبحانه من الملائكة أن تخبره بأسماء الموجودات على ظهر الأرض كانت فحوى إجابتهم: كيف نخبرك بشيء لم تُعلِّمنا إياه ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ [البقرة:٣٢].

فالعلم لا يُستمدُ إلا من خزائنه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾ [يوسف:٦٨]. وأي فهم، أو حكمة، أو حجة تأتي على لسان أحد فمن عنده سبحانه: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ [الأنبياء:٧٩]، ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ [الأنعام:٨٣]، ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة:٢٦٩].

وعندما أنزل الله ﷻ الملائكة تقاتل مع المؤمنين في بدر، وأنزل كذلك النعاس والمطر، ذكَّرهم بأن هذه الأشياء لا تُحدث نصرًا بذاتها.. لماذا؟

لأن النصر لابد وأن يأتي من عنده سبحانه ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٩ – ١٠].

الدنيا كلها ظلمة، وأي نور فيها فهو مستمد من الله ﷻ ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور:٣٥]، ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور:٤٠].

والرحمة التي ترى مظاهرها الكثيرة في الحياة.. كلها مستمدة من خزائن الرحمة الإلهية ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [فاطر:٢].

حتى الرحمة التي كانت في قلب رسول الله ﷺ فهي مستمدة من خزائن الرحمة الإلهية ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

يدبر الأمور كلها:

الله ﷻ هو وحده الذي يدير هذا الكون ويتابعه.. يقدم ويؤخر.. يخفض ويرفع.. يقبض ويبسط.. يحيي ويميت.

لم يفلت منه سبحانه زمام الكون لحظة واحدة- حاشاه- ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

أَزِمَّة الأمور كلها بيده ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الزمر: ٦٢- ٦٣].

فترتيب الأمور والأحداث، والعلاقات المتشابكة بين الأشخاص، ومقدار أرزاقهم المادية والمعنوية.. كل ذلك وغيره يتولى الله ﷻ تدبيره وترتيبه بما يناسب مصالح عباده لا يغفل عنه لحظة واحدة، قال صاحب العظمة: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد:٢]، وقال أعزُّ من قال: ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الشورى:١٢].

تدبير الله أَمْرَ موسى عليه السلام:

إن الله عز وجل أمر موسى بالذهاب إلى فرعونَ وتبليغِه أن الله هو ربه، ورب كل شيء، وأيد اللهُ – جل ثناؤه– موسى بآية عظيمة تدل على صدقه، هذه الآية هي تحويل عصاه.

رأى فرعونُ الآيةَ الكبرى لكنه لم يستسلم لأمر الله، فامتنع!! والذى منعه هو الكبر.

فاستشار فرعونُ بِطانَتَه في كيفية إبطال ما جاء به موسى– فطرأت له ولهم فكرةُ اتهامِه بالسِّحْر، وراقت لفرعونَ الفكرةُ، وانساق وراءها: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشعراء: ٣٤ - ٣٧] يأتي السحرة، ويجتمعون في مكان فسيح، وتخرج جموعُ الناسِ لمشاهدةِ هذا الأمر المثير، ويأتي موسى عليه السلام ويطلب منهم أن يُظهروا ما عندهم من فنون السِّحْر: ﴿ **فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ** ﴿٨٠﴾ ﴾ [يونس:٨٠].

يُلقي السحرةُ عصيَّهُم وحبالَهم، فإذا بها تبدو للناس كأنها تتحرك كما قال تعالى: ﴿ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف:١١٦].

فماذا فعل موسى– عليه السلام– تجاه ما رآه؟! هل استهزأ بما فعلوه وقال لهم: سترون الفارق بين عصاي وعصيكم، وستعلمون من الأقوى، فالحية التي

ستروها لا مثيل لها؟!

لا، لم يقل لهم هذا، بل قال لهم: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ [يونس:٨١]؛ لأنَّ موسى عليه السلام يعلم أنَّ الأمر لله عز وجل، وأنه سبحانه هو الذي سيُبطل السِّحْرَ، وما الحية، وما العصا، إلا صورٌ وأشكالٌ لا قيمة لها بدون الأمر الربَّاني.

- **نعم**: إن الأمر كلَّه بيدِ الله، والله هو الغالب على أمره قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف:٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢]، كن فيكون، يتحرك الجبل بكلمة، وبحرٌ عظيم بكلمة واحدة يصير طريقًا يبسًا قال صاحب العظمة والكبرياء: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ [طه: ٧٧- ٧٨].

تدبير الله لأمر رسوله صلى الله عليه وسلم:

إن الله عز وجل يدبر الأحداث حدثًا تلو الآخر: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف:٢١]، ومن بين الأحداث حادث الهجرة إلى المدينة المنورة.

- **سراقة بن مالك يلاحق رسول الله صلى الله عليه وسلم:**

أعلنت قريش في نوادي مكة أن من يأتي بالنبي صلى الله عليه وسلم حيًّا أو ميتًا، فله مائة ناقة وانتشر هذا الخبر عند قبائل الأعراب الذين في ضواحي مكة وطمع سراقة بن مالك في نيل الكسب الذي أعدته قريش لمن يأتي برسول الله صلى الله عليه وسلم

فأجهد نفسه لينال ذلك، ولكن الله بقدرته التي لا يغلبها غالب، جعله يرجع مدافعًا عن رسول الله ﷺ بعدما كان جاهدًا عليه.

✍ **قال ابن شهاب:** وأخبرني عبدالرحمن بن مالك المدلجي، وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جعشم، أن أباه أخبره، أنه سمع سراقة بن جعشم يقول: جاءنا رسول كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل منهما لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجالس من مجالس قومي بني مدلج، إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس.

فقال: يا سراقة إني رأيت آنفًا أسودة.(١) بالساحل أراها محمد وأصحابه.

قال سراقة: فعرفت أنهم هم.

فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانًا وفلانًا انطلقوا بأعيننا ثم لبثت في المجلس ساعة.

ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهو من وراء أكمة(٢) فتحبسهما علي، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجه(٣) الأرض حتى أتيت فرسي فركبتها فعرفتها تقرب بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فرسي فخررت عنها، فقمت فأهويت الى كنانتي،

(١) أسودة: جمع قلة لسواد وهو الشخص يرى من بعيد أسود.

(٢) الأكمة: جمعها إكام، وهي الرابية.

(٣) الزج: الحديدة في أسفل الرمح.

فاستخرجت منها الأزلام[1]، فاستقسمت بها، أضرهم أم لا، فخرج الذي أكره.

فركبت فرسي عصيت الأزلام فقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت[2] يدا فرسي في الأرض، حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذ لأثر يديها عثان[3] ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره.

فناديتهم بالأمان فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ.

فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآني[4] ولم يسألاني إلا أن قال: أخف عنا، فسألته أن يكتب لي في كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم[5] ثم مضى رسول الله ﷺ.[6]

---

(١) الأزلام: الأقداح التي كانت في الجاهلية مكتوب عليها الأمر والنهي افعل ولا تفعل.

(٢) ساخت يدا فرسي: أي غاصت في الأرض.

(٣) عثان: أي دخان، وجمعه عواثن على غير قياس، النهاية (٣/ ١٨٣).

(٤) فلم يرزآني: أي لم يأخذا مني شيئًا.

(٥) أديم: قطعة من جلد.

(٦) البخاري: (٣٩٠٦).

وكان مما اشتهر عند الناس من أمر سراقة ما ذكره ابن عبد البر وابن حجر وغيرهما، قال ابن عبد البر: روى سفيان بن عيينة عن أبي موسى عن الحسن أن رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك: (**كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟**) قال: فلما أتى عمر بسواري كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة بن مالك فألبسه إياها، وكان سراقة رجلًا أزب[1] كثير شعر الساعدين، وقال له: ارفع يديك فقال: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز الذي كان يقول: أنا رب الناس، وألبسهما سراقة بن مالك بن جعشم أعرابي من بني مدلج، ورفع بها عمر صوته[2]، ثم أركب سراقة، وطيف به المدينة، والناس حوله، وهو يرفع عقيرته مرددًا قول الفاروق: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز، وألبسهما سراقة بن جعشم أعرابيًّا من بني مدلج.[3]

- **سبحان من بيده الأمر:**

كان سراقة في بداية أمره يريد القبض على رسول الله ﷺ ويسلمه لزعماء مكة لينال مائة ناقة وإذا بالأمور تنقلب رأسًا على عقب لأن الأمر بيد الله القائل: ﴿لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ [الرعد:٣١]، ويصبح سراقة بعد ذلك وهو يرد الطلب عن رسول الله ﷺ، فجعل لا يلقى أحدًا من الطلب إلا رده قائلًا: كفيتم هذا الوجه، فلما اطمأنَّ إلى أن النبي ﷺ وصل إلى المدينة المنورة

---

(١) التزبب في الانسان: كثير الشعر وطوله.

(٢) انظر: الروض الأنف: (٤/ ٢١٨)؛ الهجرة في القرآن: (٣٤٦).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة: (١/ ٤٩٥).

جعل سراقة يقص ما كان من قصته وقصة فرسه، واشتهر هـذا عنـه، وتناقلتـه الألسنة حتى امتلأت به نوادي مكـة، فخـاف رؤسـاء قـريش أن يكـون ذلـك سببًا لإسلام بعض أهل مكة، وكان سراقةُ أميرَ بني مـدلج، ورئيسَـهم **فكتـب أبو جهل إليهم:**

بنـــي مـــدلج إني أخـــاف ســـفيهكم ... ســـــراقة مســـتغوٍ لنصـــر محمـــد
علـــيكم بـــه ألاّ يفـــرِّق جمعكـــم ... فيصـــبح شـــتى بعـــد عـــز وســـؤدد

✍ فقال سراقة يرد على أبي جهل:

أبـــا حكـــم والله لـــو كنـــت شـــاهدًا ... لأمـــر جـــوادي إذ تســـوخ قوائمـــه
علمـــت ولم تَشْـــكُكْ بـــأن محمـــدًا ... رســـول وبرهـــان فمـــن ذا يقاومـــه
عليـــك فكُـــفَّ القـــوم عنـــه فـــإنني ... أرى أمـــره يومًـــا ســـتبدو معالمـــه
بـــأمر تـــود النـــاس فيـــه بأســـرهم ... بـأن جميـع النـاس طُـرًّا مسـالمه.(١)

✍ أيها القارئ الكريم:

إن التوحيد أن تجعل الخالق المكوِّن المدبر نصب عينيك وتفني عمـرك في معرفة أسمائه الحسنى وصفاته العليـا وأفعالـه الحسـنة، وأقوالـه الصـدق وتستدل بها على أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وأن عبادة مـا سـواه باطـــل، قـــال تعـــالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ ﴾ [لقمان: ٣٠].

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٩٤).

فحينئذ تثمر لك هذه الحالة أن تقطع العلائق عن الخلائق من حيث الجملة على الإطلاق، وتجعلهم كالعدم المحض وتقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]، وكيف لا وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٧﴾ [يونس:١٠٧].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ۝٣٨﴾ [الزمر:٣٨]. والآيات في هذا كثيرة.

- إن الله تعالى أمرنا بالتعلق به تعالى وحده، من بعد ما بين لنا صريحًا أنَّ غيرَه لا ينفع ولا يضر، وبيَّن لنا أنه هو الكافي فقال سبحانه: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ۝٣٦﴾ [الزمر:٣٦].

فكيف يكون في قلبِ مؤمنٍ سليمِ الإيمانِ بهذه الآيات وأشباهِها، دعوةُ غير الله في كشف الكربات ودفع الملمات وقد قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦﴾ [الإسراء:٥٦].

ذكر المفسرون: أن ناسًا كانوا يعبدون عيسى، وناسًا يعبدون عزيرًا، فأنزل الله تعالى هذه الآية أن هؤلاء لا يملكون لكم شيئًا، لا كشف الضر عنكم، ولا تحويلًا للضر، قال تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ [الرعد:٣١]،

وقـــال تعـــالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٨٣ ﴾ [يس:٨٣]، وليس الأمر في الدنيا فقط، بل في يوم القيامة أيضًا، قال أعزُّ من قال: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٞ لِّنَفْسٖ شَيْـٔٗاۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩ ﴾ [الانفطار: ١٧- ١٩].

الموعظة الرابعة

القوَّةُ للّه جَمِيعًا

القوَّةُ لله جَمِيعًا

يقول صاحب العظمة والكبرياء: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة:١٦٥]، وَفِي قراءة: ﴿وَلَوْ تَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ [البقرة:١٦٥].(١)

أثر غياب فقه أن القوة لله في نشر اليأس والتشاؤم بين الناس:

إن كثيرًا من النفوس تسرب لها الكثير من جرعات اليأس والتشاؤم، وهي ترى ضعف المسلمين واستطالة الكافرين، وكم تحطم قلب وجزعت نفس وهي ترى أعداء الإسلام يتطاولون على ثوابت الإسلام ومقدساته، ويستبيحون بلاد الدين وحرماته، فجسد الأمة مثل الأشلاء الممزقة، وبلادها مثل الأراضي المحرّقة، ولقد تجرعت الأرض من دماء المسلمين في كل

---

(١) **قال الشاطبي:**

وأيّ خطاب بعد عمّ ولو ترى ... وفي إذ يرون الياء بالضّمّ كلّلا

✍ **يقول الشيخ القاضي**: قرأ المشار إليهما بكلمة (عم) وهما: نافع وابن عامر بتاء الخطاب في قوله تعالى: وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا. ويشير بقوله (وأي خطاب) إلى تفخيم شأن هذا الخطاب وتهويل أمره؛ لما فيه من الدلالة على تفظيع العذاب الذي ادخره الله ﷻ لمتخذي الأصنام أندادا.

مكان وشربت حتى الثمالة، من كثرة ما أريق من دمائهم الطاهرة وأرواحهم الزكية.

وهذا الاستضعاف الذي حلَّ بالأمة جعل الهزيمة النفسية تضرب قلوبَ كثيرين، وهم يرون أعداء الأمة ظاهرين قاهرين متجبرين على المسلمين، وجعلهم يظنون أن أعداء الأمة قوةٌ باطشة لا تقهر، وأن قوتهم أكبر من السقوط والانهزام.

وهذا اليأس القاتل والوهم الكاذب إنما تسرب للقلوب وعشش في النفوس بسبب غياب العلم بأسماء الله وصفاته، وضعف الفقه بمقتضيات ودلائل ومعاني أسمائه الحسنى وصفاته العلا، فلو فقه اليائسون والمنهزمون معنى أن القوة لله جميعًا، لما ظنوا يومًا أن أعداءهم قادرون على إيذائهم أو ضررهم، ولو عاش المسلمون في الرحاب الواسعة والآفاق الممتدة لهذه الآية ودخلوا في كنفها واستظلوا بفقهها لما تطاول عليهم عدو.

صفة القوة في القرآن والسنة:

ونظرا للحاجة الماسة والأكيدة لفهم أن الله هو القوي الذي له القوة جميعًا فسوف ندخل الروضة اليانعة الغناء لاسم الله القوي؛ نفقه معانيه، ونفهم دلالاته، ونعيش في آثاره.

«**القوي**» في اللغة: الكَامِلِ الْقُدْرَة على الشَّيْء؛ تَقول: هُوَ قَادر على حمله، فَإِذا زِدْته وَصفًا قلت: هُوَ قويٌّ على حمله، أما القوي في حق الله وكاسم من أسمائه الحسنى، فتعني القوة الكاملة المرتبطة بالقدرة الشاملة والمشيئة

النافذة.

- **وصف الله ﷻ نفسه بِالْقُوَّةِ:**

لقد وصف الله ﷻ نفسه بِالْقُوَّةِ فَقَالَ أعزُّ من قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات:٥٨].

فالقوة لله جميعًا، يقهر من يشاء، ويذل من يشاء، وينصر من يشاء ويرزق من يشاء ويعز من يشاء، قال أعزُّ من قال: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٦٠﴾ [آل عمران:١٦٠].

- **ورود كلمة القوة في القرآن:**

لقد وردت كلمة القوة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠﴾ [الكهف: ٣٩- ٤٠]، وكذلك في قوله على لسان نبيه هود ﵇: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ۝٥٢﴾ [هود:٥٢].

والقوي سبحانه الذي كتب الغلبة لنفسه ورسله فقال صاحب القوة والعظمة والكبرياء: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢١].

إن الله قوي كامل القدرة لا يستولي عليه العجز في حال من الأحوال، وسبحانه هو الموصوف بالقوة المطلقة، وبالكمال الدال على قوته وجبروته.

فالله تبارك وتعالى هو القوي، الذي لا يغلبه غالب، ولا يرد قضاءه راد، الذي ينفذ أمره وقضاؤه، لا يمنعه مانع، ولا يدفعه دافع، ولا يفوته هارب؛ الذي قهر جميع المخلوقات، ودانت له الخلائق، وخضعت له جميع الكائنات، وامتنع أن يناله أحد من المخلوقات.

الحكمة من اقتران اسم القوي باسم: (العزيز)، واسم: (المتين):

إن المتأمل في القرآن يجد أن المولى جل وعلا قد قرن اسم القوي باسمين مخصوصين تتكامل بهما معاني ودلالات اسم الله القوي، هذان الاسمان هما: **(العزيز والمتين)**.

فكثيرًا ما يقترن اسم الله القوي باسمه العزيز، لأن قوته عن عزة وغنى، فالقوة دائما تتبعها مصلحة، وأصحاب القوة في العالم إما يحمون بها أنفسهم، أو يمنحونها لغيرهم طلبا لتبعيتهم وشراءً لذمتهم أو تهديدًا لنهب ثرواتهم ومصًّا لدمائهم.

أما القوي الغني عن العالمين، الذي يلطف بالخلق أجمعين، فقوته عن عزة وقدرة وحكمة: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾ [الشورى:١٩]، ﴿يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾ [الأنعام:١٤]، يرزق ولا يرزق، ﴿يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾ [المؤمنون:٨٨]، ﴿لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ [التوبة:١١٨].

قال صاحب العظمة: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ [الحج:٤٠]، فالله هو القوي المتين، والقوة من صفاته العُظمى، فهو الغني بذاته لا يحتاج إلى أحد، ولا يبلغ العباد ضره فيضروه، ولا نفعه فينفعوه، وجميع نواصي المخلوقات بيده، لا يتحرك منها متحرك ولا يتصرف متصرف إلا بحوله وقوته وإذنه، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا به.

أحاديث نبوية تتحدث عن أسماء الله وصفاته:

إن أحاديث النبي ﷺ متماشية مع النسق القرآني المتحدث عن أسماء الله وصفاته، مؤكدة على معانيه؛ والأحاديث دائمًا توضح دلالات كثير من الآيات بل وتكشف مقتضياتها، ومن هذه الأحاديث ما يأتي:

* عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: عَلِّمْنِي كَلَامًا أَقُولُهُ، قَالَ: «**قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**» قَالَ: فَهَؤُلَاءِ لِرَبِّي، فَمَا لِي؟ قَالَ: «**قُلْ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي**».(١)

(١) صحيح مسلم: (٢٦٩٦).

* وعَنْ عَائِشَةَ ﵂، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي سُجُودِ الْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ، يَقُولُ فِي السَّجْدَةِ مِرَارًا: «**سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ**».(١)

* وعن عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا، اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ**».(٢)

* وعَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: مَنْ أَكَلَ طَعَامًا ثُمَّ قَالَ: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا الطَّعَامَ، وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ**» قَالَ: وَمَنْ لَبِسَ ثَوْبًا فَقَالَ: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي هَذَا الثَّوْبَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي، وَلَا قُوَّةٍ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ**».(٣)

---

(١) سنن أبي داود: (١٤١٤)، سنن الترمذي: (٣٤٢٥)، وصحيح أبي داود: (٥/ ١٥٧).

(٢) صحيح البخاري: (١١٥٤). و(تعار): انتبه وهو يسبح أو يستغفر أو يذكر الله تعالى بأي ذكر.

(٣) سنن أبي داود: (٤٠٢٣)، صحيح الجامع: (٢٠١٥).

الفارق بين قوة الخالق والمخلوقين:

إن الله جَلَّ وَعَلَا نَفَى عَنْ نَفْسِهِ مُمَاثَلَةَ الْحَوَادِثِ بِقَوْلِهِ: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَأَثْبَتَ لِنَفْسِهِ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْجَلَالِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١].

فَصَرَّحَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِنَفْيِ الْمُمَاثَلَةِ مَعَ الِاتِّصَافِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْجَلَالِ، بناء على ذلك إذا وُصِف الإنسان بصفة من صفات الله، فإنه لا رابط بين الصفتين سوى الرابط اللغوي ورسم حروف العربية.

ومن هنا نقول:

إن الفارق بين قوة الخالق والمخلوقين فارق كبير، بل شتان بين قوة الخالق وقوة المخلوقين، فلا وجه بين القوتين، وبيان ذلك من أوجه عديدة. منها:

أولاً: إنَّ كل قوة في الكون مصدرها الله تعالى، وكل قوة في الملائكة والروح والإنس والجن والحيوان، وكل قوة في السموات والأرض والنجوم والكواكب والجبال والبحار والحديد والنار، جميع قوة هذه المخلوقات لا تساوي ذرة بالنسبة لقوة الله ﷻ، بل قوة جميع تلك المخلوقات لو اجتمعت لواحد منهم، ثم كان جميعهم على قوة ذلك الواحد، فإن قوة أولئك كلهم لا تساوي شيئًا بالنسبة لقوة الملك القوي العزيز الجبار: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٧٤].

ثانيًا: قوة الله تعالى قوة أبدية لا تحول ولا تزول، ومهما رأيت من أقوياء

فإنهم بعد حين يردون إلى ضعف وعجز؛ قوة الشباب، وقوة المال، وقوة السلطان، كلها تزول، ولا تدوم إلا قوة الحي القيوم، بل؛ ألم يـر الخلق أنهم كانوا من قبل ضعفاء، وأنهم بعد حين سيعودون إلى ضعفهم؟

قال صاحب القوة والعظمة والكبرياء: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الروم:٥٤].

كم من أناس بين عشية وضحاها أصبحوا لا وزن لهم ولا قيمة، ولا خبر ولا أثر! فهذا قارون لما اختال بماله ومكانته، ونَصَحَهُ قومه ووعظوه: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص:٧٨].

فكانت النتيجة: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص:٨١].

وهكذا؛ كم ظالم عتا وبغى واهتزت الأرض تحت قدميه ثم هو اليوم صريع المرض والضعف والعجز! قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [البقرة:١٦٥].

دلالات ومجالات قوة الله ﷻ:

وبالنظر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والتدبر في سير الأمم السابقة، ورحلة البشر وحركة التاريخ من لدن آدم عليه السلام، يتبين لنا، وبجلاء، معاني

ودلالات قوة القوي العزيز ذي القوة المتين. ومن هذه الدلائل:

• أولاً: قوة المشيئة النافذة في بطشه القادر على إتمام فعله:

إن القوي له مطلق المشيئة والأمر في مملكته، قوي في ذاته غيُر عاجز، لا يعتريه ضعف أو قصور، قيّوم، لا يتأثر بوهن أو فتور، ينصر من نصره، ويخذل من خذله، قال ﷻ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠]، والقُوَّةُ نقيض الضعف، فالله لما أوحى لنبيه موسى حين كتب له الأَلْواح أمره أن يأخذها بقوة: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف:١٤٥]؛ أَي خذها بقُوَّة في دينك وحُجَّتك، وقال ليحيى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ﴾ [مريم:١٢]، أَي بِجِدّ وعَوْن من الله تعالى.

• ثانيًا: قوة إبداع الخلق، إحياء وإماتة:

إن قوة إبداع الخلق، إحياء وإماتة، من قوته واقتداره، فسبحانه خلق السماوات والأرض، وخلق العرش والكرسي، وخلق الملائكة العِظام، وخلق السموات السبع الشداد، وخلق الأرضين السبع، وخلق الجبال الراسيات، والنجوم الزاهرات، والكواكب النيرات، والحيوان والنبات، والإنس والجان، فالقوي كما خلق الخلق فهو الذي يميتهم ثم يحييهم ثم إليه يرجعون: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ﴾ [لقمان:٢٨]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم:٢٧]، وعزة القهر والغلبة لكل الكائنات كلها مقصورة لله، خاضعة لعظمته، منقادة

لإرادته.

أليس في رفع السماء بلا عمد مع ما تحمل من المخلوقات فوقها أكبر آية وأعظم دليل على قوة الله البالغة؟

قال صاحب العظمة والكبرياء: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِى لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد:٢].

وقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر:٤١].

* وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [الزمر:٦٧]، قَالَ: **يَقُولُ اللهُ ﷻ: أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمُتَعَالِي، يُمَجِّدُ نَفْسَهُ**». قَالَ: فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُرَدِّدُهَا حَتَّى رَجَفَ بِهِ الْمِنْبَرُ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيَخِرُّ بِهِ.(١)

- **ثالثًا: قوة إهلاك الكافرين والمجرمين:**

إن الحياةَ مليئةٌ بشواهد قوته، منها منعته لأنبيائه وتأييده لأوليائه، وقصص الأنبياء خير شاهد، قال صاحب القوة والعظمة: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ

---

(١) مسند أحمد: (٥٦٠٨).

لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة:٢١].

كما تتجلى قوته في إهلاكه للظالمين وانتقامه من المجرمين، بأنواع من العقوبات، وقد خلت المثلات، وأنه لم يغن عنهم كيدهم، ومكرهم، ولا أموالهم، ولا جنودهم، ولا حصونهم من عذاب الله من شيء لما جاءهم، وما زادوهم غير تتبيب، وخصوصًا في وقت حلوله، قال الله تعالى: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنفال:٥٢].

فهو سبحانه القوي القاهر الجبار، الذي قهر الجبابرة، وأذل كل متكبر جبار، القوي العزيز الذي: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النجم: ٥٠ – ٥٥].

فأهلك القوي قوم عاد الجبابرة حين كذبوا الرسل، وعتوا واستكبروا في الأرض، واغتروا بقوة أبدانهم، وضخامة أجسادهم، وعظيم بطشهم في البلاد والعباد، قال سبحانه: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [فصلت:١٥].

فأرسل الله عليهم الهواء الذي يألفونه، ولا يستغنون عنه لحظة، ريحًا عظيمة عقيمة، لها صوت مزعج كالرعد القاصف، ما تذر شيئًا أتت عليه إلا

جعلته كالرميم، ودمرهم ذو القوة والجبروت: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: ٢٤- ٢٥].

وهو سبحانه القوي العزيز الذي أهلك قوم ثمود لما كذبوا صالحًا، وكفروا بالله، فأهلكهم بصعقة واحدة كما قال -سبحانه-: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت: ١٧- ١٨]، وهو سبحانه القوي الذي أغرق قوم نوح لما كذبوا نوحًا، وكفروا بالله كما قال سبحانه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [الفرقان: ٣٧ - ٤٠].

وقد أهلك الله القوي الجبار الأمم التي كفرت بالله وكذبت الرسل، وأفسدوا في الأرض، واستكبروا فيها، وما كان لهم، وجحدوا نعم الله عليهم من الملك والجاه، والمال والولد، والصحة والأمن، واستعملوا تلك النعم في معصية الله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ [غافر:٢٢]، فأنزل عليهم من عقابه ما أظهر عليهم قدرته وقوته وبطشه. وكانت تلك العقوبات متفاوتة، فتارة بالماء

وتارة بالريح، وتارة بالصيحة، وتارة بالخسف، وتارة بالنار، وتارة بالحصب بالحجارة وذلك كما حصل لقوم لوط، وقال تعالى عن عاد وثمود وفرعون وقارون وهامان: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ [العنكبوت:٤٠].

الآثار الإيمانية لاسم الله القوي:

إن البشرية اليوم في أمس الحاجة لفقه أسماء الله وصفاته عامة، واسم القوي خاصة، ففقه وفهم هذا الاسم تحديدًا يعيد للبشرية سلامها وأمنها ويضبط توازنها، وتستعيد البشرية به مرة أخرى إنسانيتها المفقودة بسبب الاغترار بالقوة والجبروت، فإن الغرور بالقوة والتقدم العلمي والصناعي والعسكري غرَّ كثيرًا من الدول، فتسلطوا على خلق الله شرقا وغربا، وعقلية عاد قوم هود أصبحت تسيطر على بعض الدول؛ عقلية «من أشد منا قوة؟» وهذا نذير هلاك سريع للبشرية كلها.

ولو فقهوا معنى القوة الحقيقية، ومَن المتصف بها على الحقيقة، لتواضعوا لله ﷻ، وكفُّوا عن العدوان على الناس، ولارتدعوا عن غيهم واستطالتهم على خلق الله.

لذلك: فإن الآثار الإيمانية لاسم الله القوي آثار تحتاج البشرية جمعاء لمعرفتها؛ لاستقامة الحياة واستمرار مسيرة الركب البشري والعمران الحضاري.

ومن أهم الآثار الإيمانية لاسم الله «القوي» ما يلي:

• **أولاً: الاعتزاز بقوة الله عز وجل:**

وذلك بأن ينعكس هذا الاعتزاز بقوة الله على حياة المؤمن وسلوكه وأفعاله، فيصدع بالحق ولا يخاف في الله لومة لائم، وإن همّ بالظلم تذكّر قوة الله، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [فاطر: ٤٤].

* عَنْ جابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَاتَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُحارِبَ خَصَفَةَ بِنَخْلٍ، فَرَأَوْا مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِرَّةً، فَجاءَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالَ لَهُ: غَوْرَثُ بْنُ الْحَارِثِ، حَتَّى قَامَ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالسَّيْفِ، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «**اللهُ**»، فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟**» قَالَ: كُنْ كَخَيْرِ آخِذٍ، قَالَ: «**أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، قَالَ: لَا، وَلَكِنِّي أُعَاهِدُكَ أَنْ لَا أُقَاتِلَكَ، وَلَا أَكُونَ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَكَ، فَخَلَّى سَبِيلَهُ، قَالَ: فَذَهَبَ إِلَى أَصْحَابِهِ، قَالَ: قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ.(١)

ومع هذا الموقف الصعب يصمد القائد كالجبل الأشم ثابتًا لا يتزحزح، لم تهزه حماقة ذلك الأعرابي ولا أرعبه سيفه المسلول، لأنه يعلم أن قوة القوي مهيمنة ونافذة، وأن قوة الرجل مستمدة من القوي لذا فهو لا يملكها، عَنْ مُعَاوِيَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تُقَدَّسُ أُمَّةٌ لَا يُقْضَى فِيهَا بِالْحَقِّ وَيَأْخُذُ**

(١) مسند أحمد: (١٤٩٢٩).

الضَّعِيفُ حَقَّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ». (١)

- **ثانيًا: حسن التوكل على القوي والاستسلام لعظمته:**

والتبرؤ من الحول والقوة إلا به، ينبغي أن يكون أثرًا من الإيمان به، ولهذا كانت كلمة لا حول ولا قوة إلا بالله جليلة الشأن، كبيرة القدر، عظيمة الأثر... عَنْ حَازِمِ بْنِ حَرْمَلَةَ قَالَ: مَرَرْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لِي: «**يَا حَازِمُ أَكْثِرْ مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَإِنَّهَا مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ**». (٢)

فهي كلمة استسلام وتفويض والتجاء وتبرؤ من الحول والقوة إلا بالله، وأن العبد لا يملك شيئًا من أمره، ومن قالها محققًا ما دلت عليه من التوكل والتفويض كان أقوى الناس قلبًا، وأحسنهم حالًا ومآلًا.

- **ثالثًا: التواضع وترك الغرور:**

فمن خدعته قوته واغتر بنفسه أو جاهه أو سلطانه فليتذكر قوة القوي الجبار، عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيُّ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي، «**اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ**»، فَلَمْ أَفْهَمِ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ، قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: «**اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ**»، قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي، فَقَالَ: «**اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ، أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ**»،

---

(١) المعجم الكبير للطبراني: (٩٠٣)، صحيح الترغيب والترهيب: (٢١٩١).
(٢) سنن ابن ماجه: (٣٨٢٦)، صحيح الجامع: (٣٠٠١).

قَالَ: فَقُلْتُ: لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا». (١)

✍ **أيها القارئ الكريم:**

إذا دعتك قوتك إلى ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك، لقد استحضر الحَجاج رجلًا ليعاقبه، فقال الرجل للحجاج: «أسألك بالذي أنت بين يديه أذل مني بين يديك، وهو على عقابك أقدر منك على عقابي» فما كان من الحجاج إلا أن عفا عنه.

فلا يغترن عبد بما أمده الله من قوة، وإياك أن تعتد بقوة عضلاتك المادية أو قوة سلطانك وجاهك، وهذا الحال هو ما مقته -سبحانه- على قوم عاد فحاق بهم سوء العذاب، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [فصلت:١٥].

وعليك كلما رأيت لنفسك حجمًا، ومكانة، وعلمًا، وتميزًا، أن تقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴾ [الكهف:٣٩].

- **رابعًا: الاستخدام النافع للقوة الموهوبة:**

فيا من بسط الله تعالى في قوته من أي نوع منها، عليك أن تستغل قوتك في الحق، وأن تحفظ طاقتك في خدمة الواهب -سبحانه، وأن تحمل هذا

---

(١) صحيح مسلم: (١٦٥٩).

الجسد في التبتل إليه، وأن تذيب هذه القوة والفتوة في الدعوة إليه، فلك في السابقين قدوة، وَفِي سلفك أسوة، فعَنْ أَبِي نَوْفَلِ بْنِ أَبِي عَقْرَبٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الصَّوْمِ، فَقَالَ: «**صُمْ يَوْمًا مِنَ الشَّهْرِ**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، زِدْنِي زِدْنِي، قَالَ: «**تَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ زِدْنِي زِدْنِي، يَوْمَيْنِ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، زِدْنِي زِدْنِي إِنِّي أَجِدُنِي قَوِيًّا، فَقَالَ: زِدْنِي زِدْنِي، أَجِدُنِي قَوِيًّا، فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ لَيَرُدُّنِي، قَالَ: «**صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ**».(١)

* وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: جَمَعْتُ الْقُرْآنَ فَقَرَأْتُهُ كُلَّهُ فِي لَيْلَةٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي أَخْشَى أَنْ يَطُولَ عَلَيْكَ الزَّمَانُ، وَأَنْ تَمَلَّ، فَاقْرَأْهُ فِي شَهْرٍ**». فَقُلْتُ: دَعْنِي أَسْتَمْتِعْ مِنْ قُوَّتِي وَشَبَابِي، قَالَ: «**فَاقْرَأْهُ فِي عَشَرَةٍ**» قُلْتُ: دَعْنِي أَسْتَمْتِعْ مِنْ قُوَّتِي وَشَبَابِي، قَالَ: «**فَاقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ**» قُلْتُ: دَعْنِي أَسْتَمْتِعْ مِنْ قُوَّتِي وَشَبَابِي فَأَبَى.(٢)

فَسَخِّر قوتك ونشاطك في طاعة الله سبحانه وَفِي عمارة الأرض بالخير والعمل الصَّالح، ولا تبخل بها في دعم مسيرة الدعوة إلى الله ﷻ إن كنت ممن يحسن ذلك، ولتكن رهن الاستجابة في الإشارة القرآنية في قوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص:٣٥]، أي: سنقويك به، وَفِي: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾﴾ [طه:٣١]. والأزر: القوَّة.

---

(١) سنن النسائي: (٢٤٣٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي: (٦/ ٧٧).
(٢) سنن ابن ماجه: (١٣٤٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة: (٣/ ٣٤٦).

إن من يرغب في طاعة المولى -سبحانه- فالقوَّة عنده مرغوبة ومطلوبة، حيث لا يألو جهدًا في فعل الخيرات والمنافسة في الطاعات؛ رغبة في رضا الله، وطمعا في حبه وجنته، فالمؤمن القويّ محبوبٌ عند الله -سبحانه-، فمن حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احرص على مَا يَنفَعُكَ، وَاستَعِن بِالله وَلا تَعجِزْ**».(١)

مصادر القوة كما بينها كتاب الله:

إن من أراد القوة فعليه أن يبحث عن ينابيعها في كتاب الله لينهل منها ويتقوى بالله القوي الذي له القوة جميعًا ومصادر القوة في كتاب الله كالتالي:

- **الاستغفار والتوبة:**

قال رب العالمين حكاية عن نبيه هود: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢﴾ [هود:٥٢]، وليست هذه الآية الوحيدة التي تبين لنا أن الاستغفار يعطي القوة للروح والعزيمة والانطلاق في الطريق المستقيم، تأمل معي مصدر قوة هؤلاء الرِبِّيين: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ

---

(١) صحيح مسلم: (٢٦٦٤).

ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٦- ١٤٧].

لذلك فإن ربنا جل وعلا يرشد كل من يقنط من رحمته بالرجوع والإنابة إليه فهو الغفور لمن استغفره سبحانه وتعالى. قال أعزُّ من قال: ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الزمر: ٥٣- ٥٤].

- **اليقين بأن القوة كلها من الله:**

من مصادر القوة اليقين بأن القوة من الله الذي له القوة جميعًا، لذلك نتوجه إلى الله بالدعاء ليعطينا من قوته، وينصرنا على الشيطان الرجيم وحزبه. ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٠] فلا قوة إلا بالله.

إن مجرد اليقين **بأن القوة كلها من الله** يجعلنا ضعفاء بين يدي الله أقوياء به على أعدائنا فلنتوكل عليه سبحانه ونكون على ثقة بقوته ووعده، فهو القوي الذي نصر داوود عليه السلام برغم قلة العدد على جالوت، ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾ [البقرة:٢٥١].

وهو القوي الذي نصر المؤمنين ببدر وهم قلة أذلة، ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٢٣].

وهو القوي الذي نصر المؤمنين على الأحزاب وكفاهم شر القتال، ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب:٢٥].

وهو القوي الذي نصر المؤمنين في فتح مكة دون قتال، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ [الفتح: ١ – ٣].

الموعظة الخامسة

وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ

وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ

يقول أعزُّ من قال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥].

إن الحب عاطفة كريمة، وشعور راق نبيل، وأعلى أنواعه محبة الله، وإنما تنشأ هذه المحبة، بإثارة القوى العقلية والروحية، وعمق النظر في ملكوت السموات والأرض، وحسن التدبر لآيات القرآن، وكثرة ذكر الله، واستحضار أسمائه الحسنى، وصفاته العليا.

ومتى رسخت هذه المحبة وعمقت جذورها، كان الله هو الغاية، وآثره المرء على كل شيء، وضحى من أجله بكل شيء لأنه يجد من حلاوة الإيمان، ولذه اليقين، وحسن الصلة بالله ما تصغر، بل تحقر جميع اللذائذ في جانبها.

* عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**».(١)

(١) صحيح البخاري: (١٦)، صحيح مسلم: (٤٣).

وهذا من علامة صحة النفس، وسلامة القلب، فإنه لا كمال للإنسان إلا بمعرفة جمال الله وجلاله، واستشعار بره وإحسانه، ورؤية آلائه ونعمائه، وشهود رحمته وحكمته.

ومتى كان ثمة شيء أحب إلى النفس، وآثر لديها من الزلفى إلى الله، وطلب القرب منه، فهي ما زالت مريضة وما زال الإيمان ناقصًا.

يقول أعزُّ من قال: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة:٢٤].

والله سبحانه وتعالى أثبت هذه المحبة للمؤمنين فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥]، فالله سبحانه وتعالى، يمدح عباده المؤمنين فيقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾ [البقرة:١٦٥] أي: والذين آمنوا وأخلصوا لله العبادة أشد حبا له- سبحانه- من كل ما سواه، ومن حب المشركين للأنداد، ذلك لأن حب المؤمنين لله متولد عن أدلة يقينية، وعن علم تام، ببديع حكمته- سبحانه- وبالغ حجته، وسعة رحمته، وعدالة أحكامه، وعزة سلطانه، وتفرده بالكمال المطلق، والحب المتولد عن هذا الطريق يكون أشد من حب المشركين لمعبوداتهم لأن حب المشركين لمعبوداتهم متولد عن طريق الظنون والأوهام والتقاليد الباطلة.

والتصريح بالأشدية في قوله: ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥] أبلغ من أن يقال أحب لله؟

إذ ليس المراد الزيادة في أصل الفعل- كما يقول الآلوسي- بل المراد الرسوخ والثبات. وقيل: عدل عن أحب إلى أشد حبا، لأن «أحب» شاع في الأشد محبوبية فعدل عنه احترازًا عن اللبس.

ولقد ضرب المؤمنون الصادقون أروع الأمثال في حبهم لله- تعالى- لأنهم ضحوا في سبيله بأرواحهم وأموالهم وأبنائهم وأغلى شيء لديهم، ولأنهم لم يعرفوا عملا يرضيه إلا فعلوه، ولم يعرفوا عملا يغضبه إلا اجتنبوه.(١)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤].

رسول الله يحببنا في هذا الحب:

* وحبب رسولُ الله ﷺ في هذا الحب فقالَ ﷺ: «**أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ اللهِ وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي لِحُبِّي**».(٢)

* وكان رسول الله ﷺ يضرع إلى الله ويسأله أن يهبه حبه، ومما حفظ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «**اللهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ، اللهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ، اللهُمَّ وَمَا**

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي (١/ ٣٣٧).

(٢) سنن الترمذي: (٣٧٨٩)، المستدرك على الصحيحين: (٤٧١٦)، ضعيف الجامع: (١٧٦).

زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ».(١)

الصحابة يحبون الله أكثر من أنفسهم:

لقد أيقظ رسول الله ﷺ، هذه الجذوة وأشعلها في قلوب أصحابه فأحبوا الله أكثر من أنفسهم، وآبائهم، وأمهاتهم، ومن الماء البارد على الظمأ، ورضوا أن يبذلوا نفوسهم ومهجهم وهم فرحون، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة:١١١].

- **أنس بن النضر وحبه لله:**

* عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ المُشْرِكِينَ، لَئِنِ اللهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ المُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَعُ»، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، وَانْكَشَفَ المُسْلِمُونَ، قَالَ: «اللهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي أَصْحَابَهُ - وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ، - يَعْنِي المُشْرِكِينَ - ثُمَّ تَقَدَّمَ»، فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: «يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ، الجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ»، قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا صَنَعَ، قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ، أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ

(١) سنن الترمذي: (٣٤٩١)، ضعيف الجامع: (٤١٥٣).

مَثَّلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ قَالَ أَنَسٌ: «كُنَّا نُرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ [الأحزاب:٢٣] إِلَى آخِرِ الآيَةِ».(١)

• **الخنساء ومحبتها لله:**

لما اجتمع الناس بالقادسية دعت خنساء بنت عمرو النخعية بنيها الأربعة، فقالت: يا بني، إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم، والله ما نبت بكم الدار ولا أقحمتكم السنة، ولا أرداكم الطمع، والله الذي لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم، ولا عموت نسبكم، ولا أوطأت حريمكم، ولا أبحت حماكم، فإذا كان غدًا إن شاء الله، فاغدوا لقتال عدوكم مستنصرين الله مستبصرين، فإذا رأيتم الحرب قد أبدت ساقها، وقد ضربت رواقها فتيمموا وطيسها، وجالدوا خميسها، تظفروا بالمغنم والسلامة والفوز والكرامة في دار الخلد والمقامة.

فانصرف الفتية من عندها وهم لأمرها طائعون، وبنصحها عارفون.(٢)

فلما أصبحوا باشروا القتال واحدًا بعد واحد حتى قتلوا، وكل منهم أنشد قبل أن يستشهد رجزا، فبلغها الخبر، فقالت: الحمد للَّه الّذي شرفني بقتلهم،

---

(١) صحيح البخاري: (٢٨٠٥).

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: (٤/ ١٧٤).

وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقرّ رحمته.(١)

- **مصعب بن عمير ومحبته لله:**

ومحبة الله هي التي حملت مصعب بن عمير على ترك ما كان ينعم به من طيب العيش إلى الشظف والحرمان. عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ مُقْبِلًا، وَعَلَيْهِ إِهَابُ كَبْشٍ قَدْ تَنطَّقَ بِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**انْظُرُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي قَدْ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ، لَقَدْ رَأَيْتُهُ بَيْنَ أَبَوَيْنِ يُغَذِّوَانِهُ بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَدَعَاهُ حُبُّ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى مَا تَرَوْنَ**».(٢)

- **أبو بصير ومحبته لله:**

خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُرِيدُ زِيَارَةَ الْبَيْتِ، فَلَمَّا صَدُّوهُ وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ، أَتَاهُ أَبُو بَصِيرٍ، وَكَانَ مِمَّنْ حُبِسَ بِمَكَّةَ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ كَتَبَ فِيهِ أَزْهَرُ بْنُ عَبْدِ عَوْفٍ الزُّهْرِيُّ، وَالْأَخْنَسُ بْنُ شُرَيْقٍ الثَّقَفِيُّ حَلِيفُ بَنِي زُهْرَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وبَعَثَا مَعَهُ رَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، فَقَدِمَا بِكِتَابِهِمَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبَا بَصِيرٍ، إِنَّا قَدْ أَعْطَيْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مَا قَدْ عَلِمْتَ وَلَا يَصْلُحُ لَنَا فِي دِينِنَا الْغَدْرُ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا، انْطَلِقْ إِلَى قَوْمِكَ**»

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، تَرُدُّنِي إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتِنُونِي فِي دِينِي؟

قَالَ: «**يَا أَبَا بَصِيرٍ، انْطَلِقْ فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجْعَلُ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ**

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة: (٨/ ١١١).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: (١/ ١٠٨).

الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا»

فَانْطَلِقْ مَعَهُمَا حَتَّى إِذَا كَانَ بِذِي الْحُلَيْفَةِ جَلَسَ إِلَى جِدَارٍ وَجَلَسَ مَعَهُ صَاحِبَاهُ، قَالَ أَبُو بَصِيرٍ: أَصَارِمٌ سَيْفُكَ هَذَا يَا أَخَا بَنِي عَامِرٍ؟

قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَنْظُرُ إِلَيْهِ؟

قَالَ: إِنْ شِئْتَ، فَاسْتَلَّهُ أَبُو بَصِيرٍ، ثُمَّ عَلَاهُ بِهِ حَتَّى قَتَلَهُ، وَخَرَجَ الْآخَرُ سَرِيعًا حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ رَأَى فَزَعًا**»

فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**وَيْلَكَ، مَا لَكَ؟**»

قَالَ: قَتَلَ صَاحِبُكُمْ صَاحِبِي، فَوَاللهِ، مَا بَرِحَ حَتَّى طَلَعَ أَبُو بَصِيرٍ مُتَوَشِّحًا بِالسَّيْفِ حَتَّى وَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَفَتْ ذِمَّتُكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ**».

وَفِي رِوَايَةٍ: وَفَتْ ذِمَّتُكَ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ ثُمَّ أَنْجَانِي اللهُ مِنْهُمْ وَفِي رِوَايَةٍ: «**وَيْلُ أُمِّهِ مَحَشُّ حَرْبٍ لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ**».

فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى نَزَلَ بِالْعِيصِ مِنْ نَاحِيَةِ سَاحِلِ الْبَحْرِ بِطَرِيقِ قُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ، وَبَلَغَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا احْتُبِسُوا بِمَكَّةَ قَوْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ**».

فَخَرَجُوا إِلَى أَبِي بَصِيرٍ، وَانْفَلَتَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ قَرِيبٌ مِنْ سَبْعِينَ رَجُلًا، فَضَيَّقُوا عَلَى قُرَيْشٍ مَمَرَّهُمْ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهُمْ فَقَتَلُوهُمْ، وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ،

فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يُنَاشِدُونَهُ بِاللهِ وَالرَّحِمِ لَمَّا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ، فَرَدَّهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَدِمُوا عَلَيْهِ الْمَدِينَةَ.(١)

✍ **يقول الشيخ الغزالي:** وقصة أبي بصير وأبي جندل وإخوانهما لها دلالة مثيرة، فهي قصة العقيدة المكافحة ـ في لؤم من الأعداء ووحشية من الأصحاب.

وهي توضح أن الإيمان بالله أخذ طريقه إلى قلوب أولئك النفر مجردا من كل شيء إلا سلامة جوهره.

إنهم قد فقدوا الأمداد الروحية التي تجيئهم من مخالطة الرسول ﷺ والإصغاء إليه وهو يتلو وينصح، بيد أنهم عوضوا عنها من الاتصال بكتابه والاقتباس من آدابه.

فكانوا في اهتدائهم للحق وإِبَائِهم للضيم وإيثارهم للمغامرة ـ مثلًا حسنًا للإسلام المكافح العزيز.

ولم يعد أبو بصير إلى رسول الله ﷺ، ذلك أن الإذن بالمقام معه جاء وهو يُحْتَضَر.(٢)

---

(١) صحيح البخاري: (٣/ ١٩٧)، وسير السلف الصالحين للأصبهاني: (ص: ٦٢١)، واللفظ له.

(٢) فقه السيرة: (ص: ٢٩٤).

الطريق إلى محبة الله:

إن للظفر بمحبة الله منهجًا مرسومًا، وطريقًا معلومًا، وَفِي طليعة هذا المنهج متابعة الرسول ﷺ، وحسن الاقتداء به، والتأسي به في أقواله وأفعاله، والتخلق بأخلاقه وآدابه، فذلك أهدى السبل، وأقرب الطرق، وآية كمال الإيمان وصدق اليقين.

يقول صاحب العظمة والكبرياء: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

والقيام بشرائع الإسلام وشعائره، والاضطلاع بفرائضه ونوافله، واحتمال أعبائه وتبعاته هي الركائز الأساسية لمن يحاول القرب من الله، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»**.(١)

وأحباء الله هم خلفاؤه الذين يتخلقون بأخلاقه، فيعرفون لكل شيء حقه، ويضعون كل أمر موضعه.

---

(١) صحيح البخاري: (٦٥٠٢).

فهم سلم ورحمة للمؤمنين، وهم قسوة وغلظة على الكافرين، وهم دائمًا متأهبون لإعلاء كلمة الله، يناصرون الحق لا يبالون أوقعوا على الموت، أو وقع الموت عليهم قال أعزُّ من قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة:٥٤].

ونظافة البدن والثوب والقلب والعقل، والسلوك والخلق، توصل إلى الله مباشرة قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢٢].

والنجاسة: نجاسة البدن، والثوب، والقلب، والعقل، تحجب عن الله وتقطع الصلة دونه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨].

- وقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام:١٢٥].

- وقال سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس:١٠٠].

- وقال سبحانه: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [الحج:٣٠].

مظاهر محبة الله سبحانه وتعالى:

● ١ - من مظاهر محبة الله محبة القرآن:

ومحبة الله تقتضي محبة القرآن الكريم، ومحبة الشريعة السمحة، ومناصرة دين الله الذي لا صلاح للناس إلا به.

* يقول الرسول ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ**».(١)

✍ ويقول عثمان رضي الله عنه: «لَوْ طَهُرَتْ قُلُوبُكُمْ مَا شَبِعَتْ مِنْ كَلَامِ اللهِ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيَّ يَوْمٌ وَلَا لَيْلَةٌ إِلَّا أَنْظُرُ فِي كَلَامِ اللهِ يَعْنِي فِي الْمُصْحَفِ»(٢)، وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهو غاية مطلوبه!!.

● ٢ - من مظاهر محبة الله محبة الرسول:

ومن مظاهر حب الله محبة الرسول ﷺ، إذ أنه حامل الوحي ومبلغ الرسالة، وقائد الخلق إلى الحق، والهادي إلى الصراط المستقيم ﴿وَإِنَّكَ

---

(١) عزاه الهندي في كنز العمال ١/ ٢١٧، الكتاب الأول في الإيمان والإسلام، باب الاعتصام بالكتاب والسنة، للحكيم الترمذي وأبي نصر السجزي في الإبانة، وقال -السجزي-: (حسن غريب). وأخرجه بسنده الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٤/ ٤٦٩، في ترجمة أحمد بن محمد الاسفراييني، رقم (٢٢٣٩). والبغوي في شرح السنة ١/ ٢١٢ - ٢١٣، كتاب الإيمان، باب رد البدع والأهواء، الحديث (١٠٤). وأورده النووي في «الأربعين النووية» الحديث (٤١)، وقال: (حديث صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: (٧/ ٣٠٠).

﴿لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ [الشورى:٥٢، ٥٣].

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ**».(١)

* وعن عَبْد اللهِ بْن هِشَامٍ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «**لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**» فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ، وَاللهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «**الآنَ يَا عُمَرُ**».(٢) أي: الآن كمل إيمانك.

* وعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِامْرَأَةٍ مِنْ بَنِي دِينَارٍ، وَقَدْ أُصِيبَ زَوْجُهَا وَأَخُوهَا وَأَبُوهَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِأُحُدٍ، فَلَمَّا نُعُوا لَهَا، قَالَتْ: فَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم؟ قَالُوا: خَيْرًا يَا أُمَّ فُلَانٍ، هُوَ بِحَمْدِ اللهِ كَمَا تُحِبِّينَ، قَالَتْ: أَرُونِيهِ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: فَأُشِيرَ لَهَا إِلَيْهِ، حَتَّى إِذَا رَأَتْهُ قَالَتْ: كُلُّ مُصِيبَةٍ بَعْدَكَ جَلَلٌ! تُرِيدُ صَغِيرَةً قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: الْجَلَلُ: يَكُونُ مِنَ الْقَلِيلِ، وَمِنْ الْكَثِيرِ، وَهُوَ هَا هُنَا مِنَ الْقَلِيلِ.(٣)

(١) صحيح البخاري: (١٤).

(٢) صحيح البخاري: (٦٦٣٢).

(٣) سيرة ابن هشام: (٢/ ٩٩).

• **مقتل ابن الدَّثِنَّة ومَثَلٌ من وفائه ومحبته للرَّسول:**

✍ **قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ:** وَأَمَّا زَيْدُ بْنُ الدَّثِنَّةِ فَابْتَاعَهُ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ لِيَقْتُلَهُ بِأَبِيهِ، أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَبَعَثَ بِهِ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ مَعَ مَوْلًى لَهُ، يُقَالُ لَهُ نِسْطَاسُ، إلَى التَّنْعِيمِ، وَأَخْرَجُوهُ مِنْ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ. وَاجْتَمَعَ رَهْطٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فِيهِمْ أَبُو سُفْيَانَ ابْن حَرْبٍ، فَقَالَ لَهُ أَبُو سُفْيَانَ حِينَ قَدِمَ لِيُقْتَلَ: أَنْشُدُكَ اللَّهَ يَا زَيْدُ، أَتُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا عِنْدَنَا الْآنَ فِي مَكَانِكَ نَضْرِبُ عُنُقَهُ، وَأَنَّكَ فِي أَهْلِكَ؟ قَالَ: وَاَللهِ مَا أُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا الْآنَ فِي مَكَانِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ تُصِيبُهُ شَوْكَة تؤذيه، وأنّى جَالِسٌ فِي أَهْلِي. قَالَ: يَقُولُ أَبُو سُفْيَانَ: مَا رَأَيْتُ مِنْ النَّاسِ أَحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا، ثُمَّ قَتَلَهُ نِسْطَاسُ، يَرْحَمُهُ اللهُ.(١)

• ٣ - **من مظاهر محبة الله محبة الصالحين:**

ومن مظاهر محبة الله محبة الصالحين، والتودد إليهم، إذ أنهم أنصاره وجنوده، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَبِي ذَرٍّ: «**أَيُّ عُرَى الْإِيمَانِ** - أَظُنُّهُ قَالَ: - **أَوْثَقُ؟**» قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**الْمُوَالَاةُ فِي اللهِ، وَالْمُعَادَاةُ فِي اللهِ، وَالْحُبُّ فِي اللهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللهِ**».(٢)

* وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عَبْدَ اللهِ أَتَدْرِي أَيُّ عُرَى الْإِسْلَامِ أَوْثَقُ؟**»، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**الْوَلَايَةُ فِي اللهِ وَالْحُبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ، يَا عَبْدَ اللهِ أَتَدْرِي أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟**»، قُلْتُ:

---

(١) سيرة ابن هشام: (٢/ ١٧٢).

(٢) المعجم الكبير للطبراني: (١١٥٣٧)، صحيح الجامع: (٢٥٣٩).

اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّ أَعْلَمَ النَّاسِ أَعْلَمُهُمْ بِالْحَقِّ إِذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ وَإِنْ كَانَ مُقَصِّرًا فِي الْعِلْمِ وَإِنْ كَانَ يَزْحَفُ عَلَى اسْتِهِ زَحْفًا**».(١)

* وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ**».(٢)

* وحب الأبرار الأتقياء يبلغ بالمرء أكرم المنازل، فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «**وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا**». قَالَ: لَا شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ، فَقَالَ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**». قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ، فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**» قَالَ أَنَسٌ: «**فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ**».(٣)

(١) مسند أبي داود الطيالسي: (١/ ٢٩٥)، شعب الإيمان (٩٠٦٤).

(٢) سنن أبي داود: (٤٦٨١)، صحيح الجامع: (٥٩٦٥).

(٣) صحيح البخاري: (٣٦٨٨)، صحيح مسلم: (٢٦٣٩).

الموعظة السادسة

هل تحب ربك؟

هل تحب ربك؟

يقـول أعـزُّ مـن قـال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥].

في الصفحات الماضية عشنا مع هذه الآية من عدة جوانب، والآن لنا معها وقفة جديدة، ولكن من زاوية أخرى، ونبدأ بطرح هذا السؤال: **هل تحب ربك؟**

وهذا السؤال له أهميته التي لا تخفى على أحد، والمحبة ليست كلامًا يقال، ولا كلمات تحكى وتروى إنما المحبة لله تكون بالعمل.

✍ **ومن هنا أقول: هل تحب ربك؟!!**

قبل أن تجيب. أطلب منك أن تقرأ هذه الصفحات. وبعدها أجب عن هذا السؤال.

إن العبد إذا كان محبًّا لله، فحتمًا ستكون للمحبة ثمار، وهذه الثمار هي محل الاختبار، **فما هي ثمرات محبة الله التي يُحكمُ مِن خِلالها أنَّ العبد محبٌّ لله؟**.

أولاً: الرضا بالقضاء

عندما يتعرف الواحد منا على مدى حب ربه له وحرصه عليه فإن هذا من شأنه أن يدفعه دومًا للرضى بقضائه، وكيف لا، وقد أيقن أن ربَّه لا يريد له إلاّ الخير، وأنه ما خلقه ليعذبه، بل خلقه بيده، وكرَّمه على سائر خلقه ليدخله الجنة، دار النعيم الأبدي، ومن ثمَّ فإن كلَّ قضاءٍ يقضيه له ما هو إلا خطوة يمهد له من خلالها طريقه إلى تلك الدار، فالأقدار المؤلمة والبلايا ما هي إلا أدوات تذكير يُذكِّر الله بها عباده بحقيقة وجودهم في الدنيا وأنها ليست دار مقام بل دار امتحان، وأن عليهم الرجوع إليه قبل فوات الأوان ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزخرف:٤٨]، ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة:٢١].

وهي كذلك أدوات تطهير من أثر الذنوب والغفلات التي يقع فيها العبد «**مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**».(١)

فجميع الأقدار التي يُقدِّرها الله ﷻ لعباده تحمل في طياتها الخير الحقيقي لهم وإن بدت غير ذلك.

فعلى سبيل المثال: الرزق، فالله ﷻ يبسط الرزق للبعض ويضيقه على البعض لعلمه سبحانه بما يصلح عباده، ألم يقل سبحانه: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ

---

(١) صحيح البخاري: (٥٦٤١).

ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشورى:٢٧].

فمنعه الرزق الوفير عن بعض الناس ما هو إلا صورة من صور رحمته، وشفقته بهم. قال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ تَخَافُونَ عَلَيْهِ**».(١)

هذه المعاني العظيمة لا يمكن تذكرها واستحضارها بصورة دائمة، وممارسة مقتضاها في الحياة العملية إلا إذا تمكن حب الله من القلب وهيمن عليه، فمفتاح: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾ [المائدة:١١٩] هو: ﴿ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة:٥٤] [المائدة: ٥٤].

وكان عامر بن عبد قيس يقول: أحببت الله حبًّا سهل عليَّ كل مصيبة، ورضاني بكل قضية، فما أبالي مع حبي إياه ما أصبحت عليه وما أمسيت.(٢)، نعم: فإننا إن أحببنا الله حبًا صادقًا أحببنا كل ما يرد علينا منه سبحانه.

- لما قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة، وقد كان كُفَّ بصره، جاءه الناس يهرعون إليه، كل واحد يسأله أن يدعو له، فيدعو لهذا ولهذا، وكان مجاب الدعوة، فأتاه عبدالله بن أبي السائب فقال له: يا عم، أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك، فرد الله عليك بصرك؟ فتبسم وقال: يا بنيَّ، قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري.

(١) الحاكم: (٧٤٦٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (١٨١٤).
(٢) استنشاق نسيم الأنس لابن رجب/ ٣٦.

- وكان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه، فبقي ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد، قد نقب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته، فدخل عليه مطّرف وأخوه العلاء، فجعل يبكي لما يراه من حاله، فقال: لم تبكي؟ قال: لأني أراك على هذه الحالة العظيمة قال: لا تبك، فإن أحَبَّه إلى الله أحبه إليّ.(١)

ثانيًا: التلذذ بالعبادة وسرعة المبادرة إليها:

كلما ازداد حب العبد لربه ازدادت مبادرته لطاعته واستمتاعه بذكره، وكان هذا الحب سببًا في استخراج معاني الأنس والشوق إلى محبوبه الأعظم، والتعبير عنها من خلال ذكره ومناجاته.

هذه المعاني ما كانت لتخرج إلا إذا فُتح لها باب الحب، فالمحب يقبل على محبوبه بسعادة، ويطيع أوامره برضى، لا تحركه لتلك الطاعة سياط الخوف من عقوبة عدم أدائه للعمل، بل يحركه ما حرك موسى عليه السلام عندما قال لربه: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه:٨٤]، وكذلك ما جعل رسولنا ﷺ يقول لبلال: «**أَقِمِ الصَّلَاةَ يَا بِلَالُ أَرِحْنَا بِهَا**».(٢)

إن هناك بالفعل سعادةً حقيقيةً ومتعةً وشعورًا باللذة والنعيم يجدها المحب في مناجاته وذكره وخلوته بربه، وهذا ما يُطلق عليه: «جنة الدنيا»، هذه الجنة من الصعب علينا أن ندخلها من غير باب المحبة.

(١) صلاح الأمة في علو الهمة ٤/ ٥١٦.
(٢) المعجم الكبير للطبراني: (٦٢١٥)، وصححه في مشكاة المصابيح: (١٢٥٣).

✍ **قال أحد الصالحين**: مساكين أهـل الـدنيا، خرجـوا منهـا ومـا ذاقـوا أطيب ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى ومعرفته وذكره.

✍ **وقال آخر**: إنه لتمر بي أوقات أقول: إن كان أهل الجنـة في مثـل هـذا إنهم لفي عيش طيب.(١)

ثالثًا: الشوق إلى الله:

عندما يتمكن حب الله من قلب العبد، فإن هذا من شـانه أن يجعلـه دومًـا حريصًا على اغتنام أية فرصة تتاح له فيها الخلوة به سبحانه وبذكره ومناجاتـه، وجمع قلبه معه، وشـيئًا فشـيئًا تسـتثار كـوامن الشـوق إليـه سـبحانه، وتسـتبد بالقلب، وتلح عليه في طلب رؤيته، ليأتي العِلم فيخبره بأنه لا رؤية ولا لقاء لله في الحياة الدنيا، بل بعد الموت، فيزداد الشوق إلى هذا اللقاء، وأي لقاء:

- لقاء المحبوب الأعظم الذي ناجاه لسنوات طويلة، وسـكب الـدمع في محرابه.
- لقاء من دعاه في أوقات عصيبة فوجده منه قريبًا، ولدعائه مجيبًا.
- لقاء من كفاه وحماه وأعانه على نفسه وعدوه.
- لقاء من أعطاه وأكرمه وحفظه ورعاه وبكل بلاء حسن أبلاه.

✍ **يقول الحسن البصري**: إن أحباء الله هم الـذين ورثـوا الحيـاة الطيبـة وذاقوا نعيمها بما وصلوا إليه من مناجاة حبيبهم، وبما وجدوا مـن حـلاوة في

(١) الوابل الصيب ص٩٧.

قلوبهم، لاسيما إذا خطر على بالهم ذكر مشافهته وكشف ستور الحجب عنه في المقام الأمين والسرور، وأراهم جلاله وأسمعهم لذة كلامه ورد عليهم جواب ما ناجوه به أيام حياتهم.(١)

فالشوق إلى الله ثمرة من ثمار تمكن حبه في قلب العبد، ويؤكد ابن رجب على ذلك بقوله: الشوق إلى الله درجة عالية رفيعة تنشأ من قوة محبة الله ﷻ، وقد كان ﷺ يسأل الله هذه الدرجة.(٢)

* ففي دعائه ﷺ: «**أَسْأَلُكَ اللهُمَّ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَبَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَمَاتِ، وَلَذَّةَ نَظَرٍ إِلَى وَجْهِكَ، وَشَوْقًا إِلَى لِقَائِكَ، مِنْ غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ**».(٣)

فهو ﷺ يسأل ربه الشوق إلى لقائه دون وجود أسباب ضاغطة عليه تدعوه لذلك مثل: ضراء الدنيا وأقدارها المؤلمة، أو الفتن في الدين المضلة، أو بمعنى آخر أن يكون الشوق إلى الله ناشئًا عن محض المحبة.

✍ **عن أحمد بن مخلد الخراساني قال**: قال الله ﷻ: «ألا قد طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا إليهم أشد شوقًا، وما شوق المشتاقين إليَّ إلاَّ بفضل شوقي إليهم، ألَا مَن طلبني وجدني ومن طلب غيري لم يجدني، ومن ذا الذي دعاني فلم أجبه ومن ذا الذي سألني فلم أعطه».

---

(١) شرح حديث لبيك اللهم لبيك: (٨٩).
(٢) استنشاق نسيم الأنس / ٩٣.
(٣) مسند أحمد: (٣٥/ ٥٢٠).

✍ **وقال أحمد بن أبي الحواري**: حدثني عمر بن سلمة السراج عن أبي جعفر السراج عن أبي جعفر المصري قال: قال الله ﷻ: «يا معشر المتوجهين إليّ بحبي ما ضركم ما فاتكم من الدنيا إذا كنت لكم حظا وما ضركم من عاداكم إذا كنت لكم سلما».(١)

رابعًا: التضحية من أجله والجهاد في سبيله:

المحبة الصادقة لله ﷻ تدفع صاحبها لبذل كل ما يملكه من أجل نيل رضا محبوبه، وليس ذلك فحسب بل إنه يفعل ذلك بسعادة، وكل ما يتمناه أن تحوز هذه التضحية على رضاه.

تأمل معي ما حدث من عبد الله بن جحش ليلة غزوة أحد عندما قال لسعد بن أبي وقاص: أَلَا تَأْتِي نَدْعُو اللهَ، فَخَلَوْا فِي نَاحِيَةٍ، فَدَعَا سَعْدٌ فَقَالَ: يَا رَبِّ إِذَا لَقِينَا الْقَوْمَ غَدًا، فَلَقِّنِي رَجُلًا شَدِيدًا بَأْسُهُ شَدِيدًا حَرْدُهُ، فَأُقَاتِلُهُ فِيكَ وَيُقَاتِلُنِي، ثُمَّ ارْزُقْنِي عَلَيْهِ الظَّفَرَ حَتَّى أَقْتُلَهُ، وَآخُذَ سَلَبَهُ.

فَقَامَ عَبْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ ثُمَّ، قَالَ: اللهُمَّ ارْزُقْنِي غَدًا رَجُلًا شَدِيدًا حَرْدُهُ، شَدِيدًا بَأْسُهُ، أُقَاتِلُهُ فِيكَ وَيُقَاتِلُنِي، ثُمَّ يَأْخُذُنِي فَيَجْدَعُ أَنْفِي وَأُذُنِي، فَإِذَا لَقِيتُكَ غَدًا قُلْتَ: يَا عَبْدَ اللهِ فِيمَ جُدِعَ أَنْفُكَ وَأُذُنُكَ؟

فَأَقُولُ: فِيكَ وَفِي رَسُولِكَ، فَيَقُولُ: صَدَقْتَ.

قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ: يَا بُنَيَّ كَانَتْ «دَعْوَةُ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَحْشٍ خَيْرًا مِنْ

---

(١) البحور الزاخرة في علوم الآخرة: (٣/ ١٦٠٣).

دَعْوَتِي، لَقَدْ رَأَيْتُهُ آخِرَ النَّهَارِ، وَإِنَّ أُذُنَهُ وَأَنْفَهُ لَمُعَلَّقَانِ فِي خَيْطٍ». (١)

* وَفِي يوم من الأيام رأى رسول الله ﷺ مصعب بن عمير يمشي وعليه إهاب كبش قد تمنطق به، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**انْظُرُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي قَدْ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ، لَقَدْ رَأَيْتُهُ بَيْنَ أَبَوَيْنِ يُغَذِّوَانِهِ بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَدَعَاهُ حُبُّ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى مَا تَرَوْنَ**». (٢) فالتضحية والجهاد من أعظم دلائل المحبة.

خامسًا: الرجاء والطمع فيما عند الله:

فكلما اشتد الحب اشتد الرجاء في الله وحسن الظن فيه ألا يلقي حبيبه في النار، فالمحب لا يعذب حبيبه كما جاء الرد الإلهي على اليهود عندما قالوا: ﴿**نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم**﴾ [المائدة:١٨]، وَفِي الحديث أنه ﷺ قال: «**لَا وَاللهِ لَا يُلْقِي اللهُ حَبِيبَهُ فِي النَّارِ**». (٣)

✍ **وعَنْ إِدْرِيسَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْمَرْوَزِيِّ، قَالَ**: «مَرِضَ أَعْرَابِيٌّ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّكَ تَمُوتُ، قَالَ: أَيْنَ يُذْهَبُ بِي؟، قَالَ: إِلَى اللهِ، قَالَ: فَمَا كَرَاهَتِي أَنْ أَذْهَبَ إِلَى مَنْ لَا أَرَى الْخَيْرَ إِلَّا مِنْهُ». (٤)

✍ **وقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ**: «مَا أُحِبُّ أَنَّ حِسَابِي جُعِلَ إِلَى وَالِدِيّ رَبِّي خَيْرٌ

---

(١) المستدرك: (٢٤٠٩)، وقال الذهبي على شرط مسلم.

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: (١/ ١٠٨).

(٣) المستدرك على الصحيحين: (٧٣٤٧)، صحيح الجامع (٧٠٩٥).

(٤) شعب الإيمان: (٩/ ٣٢٦).

لِي مِنْ وَالِدِيّ». (١)

سادسًا: الحياء من الله:

فالمحب الصادق في حبه لله ﷻ يستحي أن يراه حبيبه في وضع مشين، أو مكان لا يحب أن يراه فيه، فإذا ما وقع في معصية أو تقصير سارع بالاعتذار إليه واسترضائه بشتى الطرق.

بل إن أي بلاء يتعرض إليه يجعله قلقًا بأن يكون هذا البلاء مظهرًا من مظاهر لوم الله له وغضبه عليه، لذلك تجده حينئذٍ يهرع إلى مولاه يسترضيه ويتذلل إليه ويستغفره، ويطلب منه العفو والصفح.

ويتجلى هذا الأمر جيدًا في دعاء رسولنا ﷺ بعد أحداث الطائف وما تعرض فيها من استهزاء وتضييق وإيذاء، فكان مما قاله لربه: «... **إِن لم يكن بك غضب عليَّ فَلَا أُبَالِي، لَكِن عافيتك هِيَ أَوْسَعُ لِي.. أَعُوذُ بِنورِ وَجهِكَ الَّذِي أشرقت لَهُ الظُّلُمَات وَصلح عَلَيْهِ أَمر الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.. أَن يحل عليَّ غَضَبكَ أَوْ يَنزِلَ بِي سَخَطك.. لَك الْعُتْبِي** (٢) **حَتَّى ترْضى.. وَلَا حول وَلَا قُوَّة إِلَّا بك**». (٣)

✍ **وَفِي هذا المعنى يقول ابن رجب**: إن محبة الله إذا صدقت أوجبت محبة طاعته وامتثالها، وبغض معصيته واجتنابها، وقد يقع المحب أحيانًا في

---

(١) شعب الإيمان: (١/ ٤٢٠).

(٢) لك أن تعاتبني حتى ترضى.

(٣) الدعاء للطبراني: (١٠٣٦)، والسلسلة الضعيفة: (٦/ ٤٨٦).

تفريط في بعض المأمورات، وارتكاب بعض المحظورات، ثم يرجع إلى نفسه بالملامة، وينزع عن ذلك، ويتداركه بالتوبة.(١)

سابعًا: الشفقة على الخلق:

من الثمار العظيمة للحب الصادق تلك الشفقة التي يجدها المحب في قلبه تجاه الناس جميعًا بخاصة العصاة منهم، وكيف لا وقد علم أنه ما من أحد من البشر إلا وفيه نفخة علوية كرَّمه الله بها على سائر خلقه، وأن الذي يرضيه سبحانه هو عودة الجميع إليه ودخولهم الجنة، لذلك تجد هذا المحب شفيقًا على الخلق، حريصًا على دعوتهم لسان حاله يقول: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩﴾ [الأعراف:٥٩].

يستخدم في ذلك كل الطرق والوسائل الممكنة، ولا يرتاح له بال حتى يُعيد الشاردين إلى حظيرة العبودية لربهم.

ومن الأمثلة العظيمة التي تبين تلك الشفقة على العصاة ما فعله مؤمن آل فرعون مع قومه، تأمل أقواله الذي جاء ذكرها في سورة غافر: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر:٢٩].

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١﴾ [غافر: ٣٠، ٣١].

---

(١) استنشاق نسيم الأنس: (٣٧).

- ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [غافر:٣٨]

- ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [غافر:٣٩].

- ﴿ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [غافر:٤١، ٤٢].

هذه الثمرة العظيمة من ثمار المحبة من شأنها أن تجعلنا نقوم بتعديل خطابنا الدعوي، فنستوعب الجميع ونبشرهم ونطمئنهم تجاه ربهم قبل تخويفهم وترهيبهم.

ثامنًا: الغيرة لله:

عندما يستبد حب الله في قلب العبد فإنَّ هذا من شأنه أن يجعله يغار لمولاه، وعلى محارمه أن تنتهك، وحدوده أن تُتجاوز، وأوامره أن تخالف.

فمع شفقته على العصاة، إلاّ أن هذا لا يمنعه من بغضه لتصرفاتهم التي تغضب ربه، ولو كانت من أقرب الناس إليه قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة:٤].

لقد علم المحب الصادق أن محبوبه الأعظم يحب عباده، ويحب من

يحببهم فيه، ويعيدهم إليه، وَفِي نفس الوقت فإنه سبحانه لا يحب تصرفاتهم المخالفة لأوامره، المنافية لصفة العبودية التي ينبغي أن يتصفوا بها ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧] فهو لا يحب الكفر، ولا يحب الظلم، ولا الطغيان، ولا الكبر، ولا الفسق.

لذلك ترى المحب لله يجمع بين الأمرين: الشفقة على الخلق، وحب الخير لهم من جانب، وبغضه لتصرفاتهم التي لا ترضي مولاه، ونهيهم عنها، بل ومحاربتهم عليها إن تطلب الأمر من جانب آخر.

ومن لوازم هذه الغيرة: الغيرة على رسوله، وكيف لا وهو أحب الخلق إلى الله، فلو كانت المحبة لله صادقة لتبعتها ولازمتها محبة رسوله والغيرة عليه، ولقد تمثل هذا الأمر في الصحابة جيدًا، ولعل ما حدث لخبيب بن عدي يؤكد ذلك، فقد تم أسره في يوم الرجيع، وصُلب لكي يُقتل، وقبل قتله قال المشركون له: أَتُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا مَكَانَكَ فَقَالَ وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنِّي فِي أَهْلِي وَوَلَدِي وَأَنَّ مُحَمَّدًا شِيكَ بِشَوْكَةٍ.(١)

تاسعًا: الغنى بالله:

ومع كل الثمار السابقة تأتي أهم ثمرة للمحبة ألا وهي الاستغناء بالله سبحانه وتعالى، والاكتفاء به قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾

(١) الثبات عند الممات: (ص: ١٢٤).

[الزمر:٣٦]، وَفِي قراءة ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عِبَادَهُۥ ﴾[1] والجواب بكل قلب راسخ بلى يا ربنا سبحانك أنت الكافي، وقال سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ [طه:٧٣]، وإذا اكتفى العبد بربه فسينعكس ذلك على تعاملاته مع الأحداث التي تمر به، فإن ادلهمت الخطوب استشعر معية الله له ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة:٤٠]، وإن تشابكت أمامه الأمور تذكر فردد في نفسه ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء:٦٢]، ويكون شعاره الدائم ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء:٨١].

✍ **يتغنى بمثل قول الشاعر:**

فليتكَ تحلُو والحياةُ مَرِيرةٌ ... وليتكَ ترضَى والأنامُ غِضَابُ
وليتَ الذي بيني وبينكَ عامرٌ ... وبيني وبينَ العالمينَ خَرَابُ
إذا صَحَّ منكَ الودُّ فالكلُّ هَيِّنٌ ... وكُلُّ الذي فوقَ الترابِ ترابُ

✍ **قال الجنيد**: قد أوجب الله لأهل محبته الصنع والتوفيق في جميع أحوالهم، فأورثهم الغنى، وسدّ عنهم طلب الحاجات إلى الخلق، تأتيهم ألطاف من الله من حيث لا يحتسبون، وقام لهم بما يكتفون، ونزّه أنفسهم

---

(١) **قال الشاطبي:**

أمن خفّ حرميّ فشا مدّ سالما ... مع الكسر حقّ عبده اجمع شمردلا

والمعنى: قرأ حمزة والكسائي: أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ بكسر العين وفتح الباء وألف بعدها على الجمع، وقرأ الباقون بفتح العين وسكون الباء وحذف الألف على الإفراد.

عما سوى ذلك، إكرامًا لهم عن فضول الدنيا، وطهارة لقلوبهم من كل دنـس، وأمشاهم في طرقات الدنيا طيبين، وقد رفع أبصار قلوبهم إليه، فهـم ينظـرون إليه بتلك القلوب غير محجوبة عنه.[1]

✍ **والسؤال**: هل نحن حققنا هذه الثمرات حتى نستطيع أن نقـول: إننـا نحب ربنا سبحانه وتعالى؟.

أسأل الله أن يمنَّ علينا بمحبته المحبة الكاملة اللهم آمين يا رب العالمين.

(١) المحبة لله سبحانه: (٨٤).

الموعظة السابعة

استنكار كفر الكفار بالله

استنكار كفر الكفار بالله

قال أعزُّ من قـال: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٨].

إن الإنسان أحيانًا يتكلّم كلمة لا يدري لها بالًا فيقال له: أتـدري مـع مـن تتكلَّم؟ لقد أتلفت نفسك، أتدري مَنْ تُخَاطِب؟ أتدري من تنتقد؟

✍ ومن هنا أقول: إن الإنسان حينما يكفر بشـيء، أو بإنسـان، أو بفكـرة فهذه قضيَّة سهلة، أما حينما يكفر بالله الذي أوجده، وخلقـه، وجعلـه إنسـانًا سويًا، ورزقه، وحياته وموته بيده، وإليه المصير، فهذه مصـيبة كبيـرة، ولهـذا جـاء اسـتنكار كفـر الكفـار بـالله فقـال سـبحانه: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٨].

✍ الاستفهام للسؤال عن الأحوال، وليس المراد به استعلام المخاطبين:

- ﴿ كَيْفَ ﴾: اسم استفهام للسؤال عن الأحوال، ولـيس المـراد بـه هنـا استعلام المخاطبين عن حال كفرهم، وإنما المراد منه معنـى تكثـر تأديتـه في صورة الاستفهام وهو الإنكار والتوبيخ، كما تقول لشخص: كيف تؤذي أباك وقد ربَّاك؟ لا تقصد إلا أن تنكر عليه أذيته لأبيه وتوبيخه عليها.

وَفِي الآية الكريمة التفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة تقريعهم والتعجب من أحوالهم الغريبة، لأنهم معهم ما يدعو إلى الإيمان ومع ذلك فهم منصرفون إلى الكفر.(١)

التنبيه على أن الكفر ينشأ عن جهل:

وقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة:٢٨] جار مجرى التنبيه على أن كفرهم ناشئ عن جهل وعدم تأمل في أدلة الإيمان القائمة أمام أعينهم، لأن الكفر بالله في مواجهة هذه الدلائل والآلاء كفر قبيح بشع، مجرد من كل حجة أو سند، والقرآن يواجه البشر بما لا بد لهم من مواجهته، والاعتراف به، والتسليم بمقتضياته.

يواجههم بموكب حياتهم وأطوار وجودهم، لقد كانوا أمواتًا فأحياهم، كانوا في حالة موت فنقلهم منها إلى حالة حياة ولا مفر من مواجهة هذه الحقيقة التي لا تفسير لها إلا بالقدرة الخالقة.

من الذي أنشأ هذه الحياة؟

إنهم أحياء، فيهم حياة، فمن الذي أنشأ لهم هذه الحياة؟ من الذي أوجد هذه الظاهرة الجديدة الزائدة على ما في الأرض من جماد ميت؟ إن طبيعة الحياة شيء آخر غير طبيعة الموت المحيط بها في الجمادات، فمن أين جاءت؟

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: (١/ ٨٨).

إنه لا جدوى من الهروب من مواجهة هذا السؤال الذي يلح على العقل والنفس ولا سبيل كذلك لتعليل مجيئها بغير قدرة خالقة ذات طبيعة أخرى غير طبيعة المخلوقات، من أين جاءت هذه الحياة التي تسلك في الأرض سلوكا آخر متميزا عن كل ما عداها من الموات؟

الأدلة على أن الحياة من عند الله:

لقد جاءت الحياة من عند الله كما قال أعزُّ من قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم:٣٢].

- وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الملك:٢٣، ٢٤].

- وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام:١٣٣].

- وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام:٩٨].

- وقال صاحب العظمة والكبرياء: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة: ٥٨ - ٦٢].

وهذه الحقيقة التي لا ينكرها أحد استخدمها نبيُّ الله صالح عليه السلام، فدعا قومه إلى التوحيد: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [هود:٦١]، وبعد دعوته قومه إلى التوحيد قال مباشرة: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود:٦١] فتكلم عن دليل الإنشاء ليقيم الحجة على قومه بما لا ينكره عاقل.

إن هذا هو أقرب جواب.. وإلا فليقل من لا يريد التسليم: أين هو الجواب!

وهذه الحقيقة هي التي يواجه بها السياق الناس في هذا المقام: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ؟ ﴾ [البقرة:٢٨].. كنتم أمواتًا من هذا الموات الشائع من حولكم في الأرض فأنشأ فيكم الحياة «فَأَحْياكُمْ».. فكيف يكفر بالله من تَلقَّى منه الحياة؟

والمعنى: كيف تكفرون بالله وحالكم أنكم كنتم معدومين فخلقكم، وأخرجكم إلى الوجود كما قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾ [الإنسان:١]، وقال عزَّ من قائل: ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ ﴾ [مريم:٩].

- ويصح أن يفسر الأموات بمعنى فاقدي الحياة، والإحياء بنفخ الروح فيهم فيكون المعنى: وكنتم أمواتا يوم استقراركم نطفًا في الأرحام إلى تمام الأطوار بعدها، فنفخ فيكم الأرواح وأصبحتم في طور إحساس وحركة

وتفكير وبيان.

وبعد أن وبَّخهم على كفرهم بمن أخرجهم من الموت إلى الحياة، أورد جملًا لاستيفاء الأطوار التي ينتقل فيها الإنسان من مبدإِ الحياة إلى مقره الخالد في دار نعيم أو عذاب فقال: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بقبض أرواحكم عند انقضاء آجالكم ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عمران:١٨٥]، ولعل هذه لا تلقى مراء ولا جدلا، فهم يشاهدونها بأعينهم بين الحين والحين ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ [النساء:٧٨].

فهي الحقيقة التي تواجه الأحياء في كل لحظة، وتفرض نفسها عليهم فرضًا، ولا تقبل المراء فيها ولا الجدال قال الحي الذي لا يموت: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩﴾ [ق:١٩]، ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ﴾ [الجمعة:٨].

الأدلة على إمكانية البعث:

﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ يبعثكم بعد الموت، وهذه كانوا يمارون فيها ويجادلون كما يماري فيها اليوم ويجادل بعض المطموسين، مع أنهم حين يتدبرون النشأة الأولى، فإن القضية لا تدعو إلى العجب، ولا تدعو إلى التكذيب، لأن الله قد أخبر عن البعث بما يدل على صحته وينفي استبعاده، أو استحالته، بأدلة عقلية ونقلية كثيرة.

أما الأدلة العقلية، فمنها: أن الذي قدر على إحيائهم من العدم، قادر على

إحيائهم وإعادتهم بعد موتهم فإن الإعادة أهون من البدء دائما.

وأما الأدلة النقلية، فمنها: قول صاحب العظمة والكبرياء: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [المؤمنون:١٥، ١٦].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٠ - ٢٢]ز

﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ أي تصيرون إليه دون سواه، ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأعراف:٢٩]، وكما ذرأكم في الأرض تحشرون، ﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [المؤمنون:٧٩].

وكما انطلقتم بإرادته من عالم الموت إلى عالم الحياة، ترجعون إليه ليمضي فيكم حكمه، ويقضي فيكم قضاءه، فيجمعكم في المحشر ويتولى حسابكم، والحكم في أمركم بمقتضى عدله ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة:٧، ٨].

ترهيب من ينزع إلى الشر بأنه إلى الله راجع:

وَفِي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ترهيب لمن ينزع إلى الشر، ويرتكب المعاصي من غير مبالاة، وترغيب لمن يقبل على فعل الخير، ويقدم على الطاعات.

- وهكذا في آية واحدة قصيرة يُفتحُ سِجل الحياة كلها ويُطوى، وتُعرض في ومضة صورة البشرية في قبضة البارئ، ينشرها من همود الموت أول مرة، ثم يقبضها بيد الموت في الأولى، ثم يحييها كرة أخرى، وإليه مرجعها في الآخرة، كما كانت منه نشأتها في الأولى.. وَفِي هذا الاستعراض السريع يرتسم ظل القدرة القادرة، ويلقي في الحس إيحاءاته المؤثرة العميقة.

إنكار السَّمَاوَات والْأَرْض وَالْجِبَال الكفر بالله:

إن الإنسان العاقل عندما يقرأ هذه الآية: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة:٢٨]. يجب أن يستنكر بقلبه وقوله ما يكون من كفر الكافرين برب العالمين.

وكيف لا يستنكر الإنسان العاقل، والكون قد استنكر كفر الكافرين، الذين نسبوا الله ما لا يليق به، قال صاحب العظمة والكبرياء: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم: ٨٨ – ٩٢].

ونلحظ أن السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْجِبَالَ أنكرن، نسبة الولد لله، كما نلحظ أنهن أبين أن يحملن الأمانة كما قال أعزُّ من قال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب:٧٢]، والأمانة التي ائتمن الله عليها المكلفين

هي امتثال الأوامر، واجتناب المحارم، في حال السر والخفية، كحال العلانية.

﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب:٧٢] أي: خوفًا أن لا يقمن بما حُمِّلْنَ، لا عصيانًا لربهن، ولا زهدًا في ثوابه، وعرضها الله على الإنسان، على ذلك الشرط المذكور، فقبلها، وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل.

* **فانقسم الناس - بحسب قيامهم بها وعدمه- إلى ثلاثة أقسام:**

١- **منافقون:** أظهروا أنهم قاموا بها ظاهرًا لا باطنًا.

٢- **ومشركون:** تركوها ظاهرًا وباطنًا.

٣- **ومؤمنون:** قائمون بها ظاهرًا وباطنًا.

إن خلق السموات والأرض أعظم وأكبر من خلق الناس كما قال صاحب العظمة: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر:٥٧].

ورغم ذلك أتين طائعين لله سبحانه، قال صاحب العظمة والكبرياء: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [فصلت: ٩ - ١١].

✍ **يقول الآلوسي**: وإن واللام في قولـه ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ [فصلت:٩] لتأكيد الإنكار.. وعلق- سبحانه- كفرهم بالاسم الموصول لتفخيم شأنه تعالى واستعظام كفرهم به.

ولنتأمل قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت:١١]... لأنه بيان لما وجهه سبحانه إليهما من أوامر.

والمراد بإتيانهما: انقيادهما التام لأمره تعالى، أي: فقال سبحانه للسماء وللأرض أخرجا ما خلقت فيكما من المنافع لمصالح العباد، فأنت يا سماء، أبرزي ما خلقت فيك من شمس وقمر ونجوم.. وأنت يا أرض أخرجي ما خلقت فيك من نبات وأشجار وكنوز.

✍ **قال الفخر الرازي**: والمقصود من هذا القول: إظهار كمال القدرة، أي: ائتيا شِئْتُمَا ذَلِكَ أَوْ أَبَيْتُمَا، كَمَا يَقُولُ الْجَبَّارُ لِمَنْ تَحْتَ يَدِهِ لَتَفْعَلَنَّ هَذَا شِئْتَ أَوْ لَمْ تَشَأْ، وَلَتَفْعَلَنَّهُ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا، وَانْتِصَابُهُمَا عَلَى الْحَالِ بِمَعْنَى طَائِعِينَ أَوْ مُكْرَهِينَ قالَتا أَتَيْنا عَلَى الطَّوْعِ لَا عَلَى الْكَرْهِ.(١)

وقوله: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ⑪﴾ [فصلت:١١] بيان لامتثالهما التام لأمره تعالى، أي: قالتا: فعلنا ما أمرتنا به منقادين خاضعين مستجيبين لأمرك، فأنت خالقنا وأنت مالك أمرنا.

✍ **وقال أكثر أهل العلم**: بل خلق الله تعالى فيهما الكلام فتكلمتا كما

(١) مفاتيح الغيب: (٢٧/ ٥٤٧).

أراد- سبحانه.[1] وجمعهما- سبحانه- جمع من يعقل، لخطابهما بما يخاطب به العقلاء.

- وَفِي هذا الرد منهما ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فصلت:١١] إيماءة عجيبة إلى انقياد هذا الكون للناموس، وإلى اتصال حقيقة هذا الكون بخالقه اتصال الطاعة والاستسلام لكلمته ومشيئته، فليس هنالك إذن إلا هذا الإنسان الذي يخضع للناموس كرها في أغلب الأحيان.

إنه خاضع حتمًا لهذا الناموس، لا يملك أن يخرج عنه، وهو ترس صغير جدًا في عجلة الكون الهائلة والقوانين الكونية الكلية تسري عليه رضي أم كره، ولكنه هو وحده الذي لا ينقاد طائعًا طاعة الأرض والسماء، إنما يحاول أن يتفلت، وينحرف عن المجرى الهين اللين فيصطدم بالنواميس التي لا بد أن تغلبه، وقد تحطمه وتسحقه، فيستسلم خاضعا غير طائع.

إلا عباد الله الذين تصطلح قلوبهم وكيانهم وحركاتهم وتصوراتهم وإراداتهم ورغباتهم واتجاهاتهم..

تصطلح كلها مع النواميس الكلية، فتأتي طائعة، وتسير هينة لينة، مع عجلة الكون الهائلة، متجهة إلى ربها مع الموكب، متصلة بكل ما فيه من قوى.

وحينئذ تصنع الأعاجيب، وتأتي بالخوارق، لأنها مصطلحة مع الناموس،

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: (١٢/ ٣٣٣).

مستمدة من قوته الهائلة، وهي منه وهو مشتمل عليها في الطريق إلى الله ﴿طَآئِعِينَ﴾.

إننا نخضع كرهًا، فليتنا نخضع طوعًا، ليتنا نلبي تلبية الأرض والسماء، في رضى وَفِي فرح باللقاء مع روح الوجود الخاضعة المطيعة الملبية المستسلمة للّه رب العالمين، ويا للرضى، ويا للسعادة، ويا للراحة، ويا للطمأنينة التي تغمر قلوبنا يومئذ في رحلتنا القصيرة، على هذا الكوكب الطائع الملبي، السائر معنا في رحلته الكبرى إلى ربه في نهاية المطاف.

ويا للسلام الذي يفيض في أرواحنا ونحن نعيش في كون صديق، كله مستسلم لربه، ونحن معه مستسلمون، لا تشذ خطانا عن خطاه، ولا يعادينا ولا نعاديه، لأننا منه، ولأننا معه في الاتجاه: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾.

الموعظة الثامنة

احذر من تسوية اللّه بغيره

احذر من تسوية الله بغيره

كثيرًا ما أوقفتني واستوقفتني هذه الآية الكريمة: ﴿ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٨ ﴾ [الشعراء:٩٨]، وما أخذ بقلبي هو سياق الآيات ولنتأمل، يقول رب العالمين: ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ٩١ وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ٩٣ فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ٩٤ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ٩٥ قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٨ ﴾ [الشعراء: ٩١ – ٩٨].

إن هذه الآيات جاءت في سورة الشعراء، وسورة الشعراء عالجت أمرًا هامًا نحن بأمسّ الحاجة إلى فهمه في عصرنا هذا، فالآيات في السورة تتحدث عن أساليب توصيل الرسالة بأحسن الوسائل الممكنة والاجتهاد في إيجاد الوسيلة المناسبة في كل زمان ومكان.

– بمعنى آخر: السورة بمثابة رسالة إلى الإعلاميين خاصة في كل زمن وعصر وللمسلمين بشكل عام.

– والسورة ركّزت على حوار الأنبياء مع أقوامهم فكلّ نبي كان يتميّز بأسلوب خاص به في حواره مع قومه مختلف عن غيره من الأنبياء وهذا دليل أن لكل عصر أسلوبًا دعويًا خاصًا فيه يعتمد على الناس أنفسهم وعلى وسائل

الدعوة المتوفرة في أي عصر من العصور وعلى مؤهلات الداعية وإمكانياته.

- ولكن في يوم القيامة سيتفق أهل الكفر والضلال على هذه الكلمات: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٩٧ - ١٠٢].

ومن هنا أستعين بالله لأبيِّنَ أمرًا في هذه النقاط:

١ -إن سورة الشعراء تكرر فيها الحديث عن صاحب العظمة والكبرياء بهذه الصفة: (رب العالمين) وبيان هذا كالتالي:

- لما أرسل الله موسى وهارون قال لهما عزَّ من قائل: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الشعراء:١٦].

- ولما سأل فرعون المجرمُ عن رب العالمين تساءل قائلًا: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الشعراء:٢٣].

- ولمَّا آمن السحرة بالله أعلنوا إيمانهم قائلين: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الشعراء:٤٧].

- ولمَّا أعلن الخليل عداوته للأصنام وعرَّف بالله قال: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الشعراء:٧٧].

- ولمَّا بلَّغ كل نبيٍّ دعوته لقومه أعلن أنه لا يطلب جزاء من أحد من البشر لأنه ينتظر الأجر من الله رب العالمين.

- فقال نوح لقومه: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشعراء:١٠٩].

- وقال هود لقومه: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الشعراء:١٢٧].

- وقال صالح لقومه: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الشعراء:١٤٥].

- وقال لوط لقومه: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الشعراء:١٦٤].

- وقال شعيب لقومه: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الشعراء:١٨٠].

- ولمَّا تكلم ربنا عن كتابه قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الشعراء:١٩٢].

إذن السورة فيها إعلام للخلق جميعًا أن رب العالمين هو الله، ومن سوّى بالله غيره سيندم ويكون حاله كما حكى القرآن: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الشعراء: ٩٧ - ١٠٢].

٢ - إن سورة الشعراء بينها وبين سورة الأنعام تشابه في معالجة بعض القضايا:

فسورة الأنعام جاء فيها حديث عن الخليل إبراهيم وهو يعرِّف بالله في مناظرة مع قومه عن طريق الكون فقال صاحب العظمة: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنعام: ٧٥ - ٨٠].

- **والآيات فيها إقامة للحجة على الخلق في عدَّة أمور:**

- مركوز في الفطرة أن الله في السماء لأنه هو الأعلى فقال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:٧٦]، والكوكب لا يكون إلا في السماء فخاطب من خلاله فطرة الناس التي فيها أن الله هو الأعلى.

حتى فرعون الكافر أقرَّ بأن الله هو الأعلى فقال كما حكى القرآن: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [القصص:٣٨]، ولذلك قال لعنه الله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٤].

- ومركوز في الفطرة أن الله لا يغيب لذلك لما غاب الكوكب و أَفَلَ قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ٧٦﴾ [الأنعام:٧٦].

- ومركوز في الفطرة أن الذي يُعْبَد هو المستحق للمحبة، لذلك لما غاب الكوكب قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ٧٦﴾ [الأنعام:٧٦].

- ومركوز في الفطرة أن الهداية من الرب كما وعد فقال: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٨﴾ [البقرة:٣٨]، لذلك قال: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧﴾ [الأنعام:٧٧].

- ومركوز في الفطرة أن الله أكبر من كلِّ شيء لذلك قال: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ [الأنعام:٧٨].

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ذِكْرُهُ أَذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ دِيكٍ قَدْ مَرَقَتْ رِجْلَاهُ الْأَرْضَ، وعُنُقُهُ مُنْثَنِي تَحْتَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَقُولُ: سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَكَ رَبَّنَا فَرَدَّ عَلَيْهِ: مَا يَعْلَمُ ذَلِكَ مَنْ حَلَفَ بِي كَاذِبًا**».(١)

فإذا كان هذا مخلوقًا من مخلوقات الله فكيف بالله القائل: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ٩﴾ [الرعد:٩]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ٦٢﴾ [الحج:٦٢]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ٢٣﴾

(١) المعجم الأوسط (٧/ ٢٢٠)، وانظر: صحيح الجامع: (١٧١٤).

[سبأ:٢٣]، وقال سبحانه: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر:١٢].

وبعد ما أقام الخليل الحجة على قومه قال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٨، ٧٩].

- أما سورة الشعراء فقد جاء فيها حديث عن الخليل إبراهيم وهو يعرِّف بالله في مناظرة مع قومه عن طريق نعمه سبحانه على عباده فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٧٠ - ٨٢].

٣ - إن بيان استحالة التسوية مذكور بتفاصيله في سورة الأنعام، إذ مقصدها وهدفها هو: (استحالة التسوية بين الله وبين غيره)(١):

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام:١]، ففي هذه الآية وهي أول آية

---

(١) ذكرت في كتابي فتح المنان: أن مقصد سورة الأنعام (التوحيد الخالص لله في الاعتقاد والسلوك)، وهذا صحيح لأن السورة تتحدث عن التوحيد، ولكن المعنى المعبر بصورة أوضح عن مقصد السورة هو: (**استحالة التسوية بين الله وبين غيره**)، وهذا ما سأثبته بأمر الله تعالى عند إعادة طبع الكتاب بعد مشيئة الله وفضله.

يوضح لنا ربنا الموقف الجحودي الذي وقفه المشركون من قضية الألوهية فقال: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١﴾ [الأنعام:١].

العدل: المراد به هنا التسوية، فقال: عدل الشيء بالشيء إذا سواه به والمعنى: أن الله- تعالى- هو الذي خلق السموات والأرض، وهو الذي جعل الظلمات والنور، فهو لذلك من حقه على خلقه أن يعبدوه وحده وأن يخصوه بالحمد والثناء، ولكن المشركين مع كل هذه الدلائل الدالة على وحدانية الله وقدرته يساوون به غيره في العبادة، ويشركون معه آلهة أخرى لا تنفع ولا تضر.(١)

وسورة الأنعام مليئة بالآيات التي تؤكد استحالة التسوية ومنها:

- قال صاحب العظمة والكبرياء: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢﴾ [الأنعام:١٢].

- وقال أعزُّ من قال: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١٣].

- وقال أعزُّ من قال: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧﴾ [الأنعام:١٧].

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: (٥/ ٣١).

- وقال أعز من قال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨].

- وقال أعزُّ من قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام:٤٠، ٤١].

- وقال أعزُّ من قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنعام:٤٦، ٤٧].

- وقال أعزُّ من قال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام:٥٩]. وغير ذلك من الآيات.

٤ - سورة الأنعام ذكرت أمورًا ثلاثة لا تُصرف إلا لله وهذا تأكيد على استحالة التسوية بين الله وبين غيره:

- **الأول في قوله تعالى:** ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤].

أي: قل لهم- يا محمد- موبخًا وزاجرًا، بأي عقل أبحتم لأنفسكم الإشراك بالله، واتخذتم من دونه معبودا سواه، مع أنه- سبحانه- باعترافكم

هو الخالق لكم وللسموات والأرض ولكل شيء؟

وقد سلطت الهمزة على المفعول الأول لا على الفعل، للإيذان بأن المستنكر إنما هو اتخاذ غير الله وليا لا اتخاذ الولي مطلقا، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الزمر:٦٤].

ثم دلل سبحانه على أنه هو وحده المستحق للعبادة بأمرين.

- **أولهما**: قوله تعالى: ﴿ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأنعام:١٤].

أي خالقهما ومنشئهما على غير مثال سبق، فالفطر - كما قال اللغويون- الإبداع والإيجاد من غير سبق مثال يحتذي.

- **وثانيهما**: قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام:١٤].

أي: أنه سبحانه هو الذي لا يحتاج إلى أحد وكل ما سواه محتاج إليه وهو الرزاق لغيره، والمنافع كلها من عنده.

وقرأ أبو عمرو (وهو يطعم ولا يَطعم) بفتح الياء في الثاني. أي: وهو يرزق غيره ويطعمه أما هو- سبحانه- فلا يتناول طعاما ولا شرابا.

وهذه الجملة حالية مؤيدة لإنكار اتخاذ ولي سوى الله، وفيها تعريض بمن اتخذوا أولياء من دونه من البشر بأنهم محتاجون إلى الطعام، وأنه- سبحانه- هو الذي خلق لهم هذا الطعام فهم عاجزون عن البقاء بدونه.(١)

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: (٥/ ٤٨).

- وَفِي الآية حَضٌّ على محبة الحق، وولايته على الدوام، ورفض كل ما سواه ممن عمَّه الفقر من الأنام.

- وفيها أيضًا: حثّ على المسابقة إلى الخيرات، والمبادرة إلى الطاعات، اقتداء بسيد أهل الأرض والسموات، فكان- عليه الصلاة السلام- أول من عبد الله، وأول من توجه إلى مولاه، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الزخرف:٨١]، فلو جاز أن يتخذ ولدًا، لكنت أنا أولى به، لأني أنا أول مَن عبده.(١)

- **الثاني في قوله عزَّ من قائل: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ ﴾** [الأنعام:١١٤].

هَذَا اسْتِفْهَامٌ مَعْنَاهُ النَّفْيُ أَيْ لَا أَبْتَغِي حَكَمًا غَيْرَ اللهِ. قَالَ الْكِرْمَانِيُّ: وَالْحَكَمُ أَبْلَغُ مِنَ الْحَاكِمِ لِأَنَّهُ مَنْ عُرِفَ مِنْهُ الْحُكْمُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَالْحَاكِمُ اسْمُ فَاعِلٍ يَصْدُقُ عَلَى الْمَرَّةِ الْوَاحِدَةِ.

✍ **وَقَالَ إِسْمَاعِيلُ الضَّرِيرُ**: الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْحَكَمَ لَا يَحْكُمُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَالْحَاكِمُ يَحْكُمُ بِالْحَقِّ وَبِغَيْرِ الْحَقِّ.

✍ **وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ نَحْوَهُ. قَالَ الْحَكَمُ**: أَبْلَغُ مِنَ الْحَاكِمِ إِذْ هِيَ صِيغَةٌ لِلْعَدْلِ مِنَ الْحُكَّامِ، وَالْحَاكِمُ جَارٍ عَلَى الْفِعْلِ وَقَدْ يُقَالُ لِلْجَائِرِ انْتَهَى.(٢)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: (٢/ ١٠٤).

(٢) البحر المحيط في التفسير: (٤/ ٦٢٧).

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين، أأميل إلى زخارف الشياطين، فأطلب معبودًا سوى الله- تعالى- ليحكم بيني وبينكم، ويفصل المحق منها من المبطل.

وأسند ﷺ الابتغاء لنفسه لا إلى المشركين، لإظهار كمال النصفة أو لمراعاة قولهم: اجعل بيننا وبينك حكمًا.(١)

- **الثالث في قوله سبحانه**: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ١٦٤﴾ [الأنعام:١٦٤].

الِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ وَالتَّعَجُّبِ، وَالْمَعْنَى: أَغَيْرَ اللهِ خَالِقِ الْخَلْقِ، وَسَيِّدِهِمْ وَمُرَبِّيهِمْ بِالْحَقِّ، أَطْلُبُ رَبًّا آخرَ أُشْرِكُهُ فِي عِبَادَتِي لَهُ بِدُعَائِهِ وَالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِ، أَوْ ذَبْحِ النَّسَائِكِ أَوْ نَذْرِهَا لَهُ، لِيَنْفَعنِي أَوْ يَمْنَعَ الضُّرَّ عَنِّي، أَوْ لِيُقَرِّبَنِي إِلَيْهِ زُلْفَى وَيَشْفَعَ لِي عِنْدَهُ كَمَا تَفْعَلُونَ بِآلِهَتِكُمْ!

وَالْحَالُ أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا عُبِدَ وَمِمَّا لَمْ يُعْبَدْ، فَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ وَخَوَاصَّ الْبَشَرِ كَالْمَسِيحِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ وَالْأَصْنَامِ الْمُذَكِّرَةِ بِبَعْضِ الصَّالِحِينَ وَصَانِعِيهَا ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [الصافات:٩٦]، فَإِذَا كَانَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقَ الْمُقَدِّرَ، وَهُوَ السَّيِّدَ الْمَالِكَ الْمُدَبِّرَ، وَهُوَ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى، وَفَضَّلَ بَعْضَ الْمَخْلُوقَاتِ

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: (٥/ ١٦١).

عَلَى بَعْضٍ وَلَكِنَّهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ، فَكَيْفَ أُسَفِّهُ نَفْسِي وَأَكْفُرُ رَبِّي بِجَعْلِ الْمَخْلُوقِ الْمَرْبُوبِ مِثْلِي رَبًّا لِي؟.(1)

- إن هذه الآيات الثلاث الماضية أثبتت أمورًا لا تُصرَفُ إلا لله ومن هنا نقول: مَنْ صرف شيئًا من هذه الأمور لغير الله فقد سوَّى بين الله وبين غيره، ومن فعل ذلك سيكون حاله ومقاله كما قال القرآن: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٩٧ - ١٠٢].

- فهؤلاء كانوا يساوون الذين يعبدونهم من دون الله برب العالمين، بمعنى أنهم يطيعونهم من دون الله، في معصية الله.

كما أطاع هؤلاء العصاةُ الغاوين وجنودَ إبليس من قرناء الجن في وسوستهم.

صور من مظاهر التسوية:

- إن الله يأمر النساء بالحجاب وعدم التبرج، ويأتي زوج من الأزواج فيأمر زوجته بمعصية الله ومعصية الرسول، ويطلب منها أن تتبرج!!!

فتطيعه وتقول: زوجي إذا لم أطعه ذهبت إلى النار فتطيعه وتتبرج، وبهذا تكون قد سوَّت بين زوجها وبين رب العالمين.

---

(1) تفسير المنار: (٨/ ٢١٦).

- أيضًا والدان يأمران ولدًا لهما بأخذ قرض ربوي ليعطيهم إياه، والله يحرم الربا ويعتبره إيذانا بالحرب معه، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٧٨، ٢٧٩]، فإذا أطاع والديه ونسي قوله تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ ﴾ [لقمان:١٥]، فقد سوَّى بين والديه وبين رب السموات والأرض.

- وكذلك لو جاء مدير مدرسة ومنع الطلاب من صلاة الظهر في المدرسة والله يقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء:١٠٣]، فهنا جعل نفسه مساويًا لله، ومن أطاعه فقد سوَّى بينه وبين رب العالمين.

- وإن ذهبت امرأةٌ إلى عمل وجاء مدير هذا العمل يأمرها بلباس خاص للعمل يتنافى مع ما أمر به الله وأطاعت ولبست ما لم يأمر به الله، فإنها بهذا تكون قد سوَّت بينه وبين رب العالمين.

✍ ختامًا أقول: أيها القارئ الكريم:

تخيل معي كيف يسوِّي بعضُ الخلق بين ربِّ العالمين وبين عبد من عباده خلقه من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة!!

- حقًّا إنها مأساة أن يسوّى من لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا، ومن خُلِق من طِينٍ لَازِبٍ، ومن كان ترابًا برب العالمين.

إن الله هو الذي يعطي ويمنع، وهو مالك النفع والضر، وهو من يدبر

الأمر، لذا لا يتخيل من عبد يعرفه سبحانه أن يسوي به غيره.

ومن سوّى به غيرَه فإنه سيأتي يوم القيامة ليقال له ولمن على شاكلته: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الشعراء: ٩٢ – ٩٥].

ويكون الجواب منهم: ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الشعراء: ٩٦ – ١٠٢].

الموعظة التاسعة

الأنس باللّه

الأنس بالله

إن من علامات صحة القلب أن يتعلق القلب بالله ﷻ تعلق المحب المضطر؛ فيأنس بالله ويسعد به، ويستغني بحبه عن حب ما سواه، ويستغني بذكره عن ذكر ما سواه، ويستغني بخدمته عن خدمة ما سواه.

جهاد النفس مرتبة عظيمة:

ليس في الوجود لذة أعظم من لذة الأنس بالله، ولا لوعة أحرّ من لوعة الشوق إليه، وكل لذة حُدِّثتَ بها، أو تلذذت بها، فلتعلم أنها لا تعدل لذة الأنس بالله جل جلاله، فلذة الأنس به فوق ما جربت، وأكبر مما تظن.

ومتى شَرِب قلب المؤمن من معين الأنس بالله شربة وافية لم يظمأ بعدها أبدًا، لأن الأنس بالله هو السراج الذي إذا استنار به قلبُ المؤمن لم يجد بعدها ظلمة.

وقسوة القلب لا تأتي من فراغ، ولا بمحض القضاء والقدر الذي لا بد للإنسان فيه؛ ولكنه مرضٌ يَرِدُ على كل قلب ضَعُفتْ مناعتُه، وصار مناخًا للعلل والأدواء.

وما عالج المرءُ شيئًا كنفسه التي بين جنبيه، ولذا كان استصلاحها جهادًا؛ لما فيه من الجهد والمشقة، وجهاد النفس مرتبة عظيمة من مراتب

الجهاد في سبيل الله، بل لا يتحقق جهاد الكفار والمنافقين إلا بعد جهاد النفس والانتصار على شهواتها وأهوائها، وكل جهادٍ مطلق في كتاب الله فهو شامل لجهاد النفس، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت:٦٩].

وما رَكَنَ إلى الدنيا أحدٌ إلا لزمه عيب القلوب، ولا مكّن الدنيا من نفسه أحد إلا وقع في بحر الذنوب.

الأنس بالله أعظم اللذات:

إن قلب المستأنس بالله يسيح في حياة أخرى، فهو لله وبالله ومع الله وإلى الله، فبِرِبّك من كان الله معه فممن يخاف؟

قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: إِنَّمَا يَسْتَوْحِشُ الْإِنْسَانُ بِالْوَحْدَةِ لِخَلَاءِ ذَاتِهِ وَعَدَمِ الْفَضِيلَةِ مِنْ نَفْسِهِ فَيَتَكَثَّرُ حِينَئِذٍ بِمُلَاقَاةِ النَّاسِ وَيَطْرُدُ الْوَحْشَةَ عَنْ نَفْسِهِ، بِالْكَوْنِ مَعَهُمْ فَإِذَا كَانَتْ ذَاتُهُ فَاضِلَةً طَلَبَ الْوَحْدَةَ لِيَسْتَعِينَ بِهَا عَلَى الْفِكْرَةِ وَيَتَفَرَّغَ لِاسْتِخْرَاجِ الْحِكْمَةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الِاسْتِئْنَاسُ بِالنَّاسِ مِنْ عَلَامَاتِ الْإِفْلَاسِ.(١)

ولقد كنا نسمع تلك المقولة المشهورة عن علماء السلف فنعظهما ونصنفها في دائرة المبالغات وهي قولهم: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا

(١) العزلة للخطابي: (ص: ١٧).

نَحْنُ فِيهِ لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ».(١)

وإنما نستكثر ذلك ونستعظمُه لأننا لم نـذُق تلـك اللـذة الإيمانيـة التـي لم ينلها إلا أفذاذ الصالحين... ولكنهـا حتمًـا ليسـت بلـذة متصـلةٍ بالمـال ولا بالجاه ولا بالملك في شيء... إن الذي عنـدهم ولـيس عنـد أولئـك الكبـراء والسادة هو الأنس بالله، فهم في حياة سعيدة.

أنس الصالحين في قيام الليل:

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء:٧٩]، وقـال تعَـالَى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة:١٦]، وقـال تعَـالَى: ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الذاريات:١٧].

تتجافى جنوبهم عن لذيذ المضاجع، كلهم بين خـائف مسـتجير وطـامع، تركوا لذة الكرى في العيون الهواجع، ورعوا أنجم الدجى طالعًـا بعـد طـالع، واستهلت دموعهم بانفضاض المدامع.

التعبد فيه أسرار عجيبة في فـؤاد المتعبـد، وفيـه طعـم أذواق غريبـة، وإذا طال التهجد هبت الريح الرطيبة وأذان لبلال ادخلوها آمنينا فاز من قام الليالي بصلاة الخاشعينا وكلام الملوك ملوك الكلام!

(١) الداء والدواء: (ص: ٢٣٣).

ولا أطيب من كلام الله ﷻ، قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر:٩].

- وقال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٦- ١٧].

- وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الفرقان:٦٤].

- وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ ﴾ [المزمل: ١ - ٨] أي: انقطع إليه انقطاعًا.

إن الذي يعيش لنفسه يعيش صغيرًا، ويموت صغيرًا، أما الذي يعيش لدين الله ﷻ فما له وللنوم! وما له وللرقود! وما له ولدفء الفراش! قام رسول الله ﷺ وقام معه الصحابة اثنا عشر شهرًا، وأمسك الله خاتمة المزمل في السماء.

✍ **قالت السيدة عائشة**: فلما علم الله صدقهم نزل التخفيف في نهاية السورة.

وقــال الله تبــارك وتعــالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ [الفتح:٢٩].

✍ **قال محمد بن كعب القرظي**: كنا نعرف قارئ القرآن بصفرة لونه من آثار القيام.

✍ **قيل للحسن البصري**: ما بال القائمين بالليل من أحسن الناس وجوهًا؟ قال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره.

بكى الباكون للرحمن ليلًا ... وباتوا دمعهم لا يسأمونا

بقاع الأرض من شوق إليهم ... تحنُّ متى عليها يسجدونا

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾ ﴾[الشرح:٧ - ٨].

✍ **قال ابن مسعود**: إذا فرغت من الفريضة فانصب لصلاة الليل.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الإنسان:٢٦].

وقال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [عبس:٣٨ - ٣٩]، قال ابن عباس: نيرة من آثار القيام في دار الدنيا.

إن سر المسألة في شعور خفي لا نراه نحن كما يرونه، ولا نستشعره كما يستشعرونه... إنه أُنسهم بالله الذي أنساهم ألم أقدامهم، بل جعل للألم لذة! فهم في سعادة لو يعلم بها الأثرياء لاسترخصوا في سبيلها كل ثمن.

أهل الأنس بالله وحياتهم الطيبة:

قال تعالى: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل:٩٧]، وهذه الحياةُ الطيبةُ هي استقرارُ نفوسِهم لَحُسْنِ موعودِ ربِّهم، وثباتُ قلوبِهم بحبِّ باريهم، وطهارةُ ضمائرِهم من أوضارِ الانحرافِ، وبرودُ أعصابِهِم أمام الحوادثِ، وسكينةُ قلوبِهم عندْ وقْعِ القضاءِ، ورضاهم في مواطن القدر، لأنهم رضُوا باللهِ ربًّا وبالإسلام دينًا، وبمحمَّدٍ ﷺ نبيًّا ورسولًا.

أما الأشقياءُ بكلِّ معاني الشقاءِ همُ المفلسون من كنوزِ الإيمانِ، ومن رصيدِ اليقينِ، فهمْ أبدًا في تعاسةٍ وغضبٍ ومهانةٍ وذلَّةٍ ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ ﴾ [طه: ١٢٤- ١٢٥].

لا يُسعدُ النفس ويزكّيها ويطهرُها ويفرحُها ويذهبُ غمَّها وهمّها وقلقها إلاَّ الإيمانُ بالله ربِّ العالمين، لا طعم للحياةِ أصلًا إلاَّ بالإيمانِ.

كيف يصل العبد إلى الأنس بالله؟

«المحبة هي الطريق الموصلة للأنس، وليس العجب من عبد يتودد إلى سيده؛ لكن العجب كل العجب من مَلِك يتودد إلى عبيده».

يقول بعض السلف: مَسَاكِين أهل الدُّنْيَا خَرجُوا مِنْهَا وَمَا ذاقوا أطيب مَا فِيهَا قيل لَهُ وَمَا أطيب مَا فِيهَا؟ قَالَ معرفَة الله ومحبته والأنس بِقُرْبِهِ

والشوق إِلَى لِقَائِه.(١)

ولذلك كان العباد والمحبون يعيشون في أعلى درجات السعادة، قَالَ بَعْضُ الشُّيُوخِ: لَقَدْ كُنْت فِي حَالٍ أَقُولُ فِيهَا إنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا الْحَالِ إنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ. وَقَالَ آخَرُ: إنَّهُ لَيَمُرُّ عَلَى الْقَلْبِ أَوْقَاتٌ يَرْقُصُ مِنْهَا طَرَبًا. وَقَالَ الْآخَرُ: لَأَهْلُ اللَّيْلِ فِي لَيْلِهِمْ أَلَذُّ مِنْ أَهْلِ اللَّهْوِ فِي لَهْوِهِمْ.(٢)

ابتهاجًا بالقرب من الله تبارك وتعالى والأنس بذكره، والتلذذ بمناجاته، وبضد ذلك، فإن من أسباب الشقاوة أن يتعلق قلبك بغير الله ﷻ.

✍ **ولذلك يقول الإمام ابن القيم** ؒ: كُلُّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا غَيْرَ اللهِ عُذِّبَ بِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَهُوَ يُعَذَّبُ بِهِ قَبْلَ حُصُولِهِ حَتَّى يَحْصُلَ، فَإِذَا حَصَلَ عُذِّبَ بِهِ حَالَ حُصُولِهِ بِالْخَوْفِ مِنْ سَلْبِهِ وَفَوَاتِهِ، وَالتَّنْغِيصِ وَالتَّنْكِيدِ عَلَيْهِ، وَأَنْوَاع مِنَ الْعَذَابِ فِي هَذِهِ الْمُعَارَضَاتِ، فَإِذَا سُلِبَهُ اشْتَدَّ عَلَيْهِ عَذَابُهُ، فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ فِي هَذِهِ الدَّارِ.

وَأَمَّا فِي الْبَرْزَخِ: فَعَذَابٌ يُقَارِنُهُ أَلَمُ الْفِرَاقِ الَّذِي لَا يَرْجُو عَوْدَةً وَأَلَمُ فَوَاتِ مَا فَاتَهُ مِنَ النَّعِيمِ الْعَظِيمِ بِاشْتِغَالِهِ بِضِدِّهِ، وَأَلَمُ الْحِجَابِ عَنِ اللهِ، وَأَلَمُ الْحَسْرَةِ الَّتِي تَقْطَعُ الْأَكْبَادَ، فَالْهَمُّ وَالْغَمُّ وَالْحُزْنُ تَعْمَلُ فِي نُفُوسِهِمْ نَظِيرَ مَا يَعْمَلُ الْهَوَامُّ وَالدِّيدَانُ فِي أَبْدَانِهِمْ، بَلْ عَمَلُهَا فِي النُّفُوسِ دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ، حَتَّى

(١) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه: (ص: ٣١).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٦٤٧).

يَرُدَّهَا اللهُ إِلَى أَجْسَادِهَا، فَحِينَئِذٍ يَنْتَقِلُ الْعَذَابُ إِلَى نَوْعٍ هُوَ أَدْهَى وَأَمَرُّ، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ نَعِيمِ مَنْ يَرْقُصُ قَلْبُهُ طَرَبًا وَفَرَحًا وَأُنْسًا بِرَبِّهِ، وَاشْتِيَاقًا إِلَيْهِ، وَارْتِيَاحًا بِحُبِّهِ، وَطُمَأْنِينَةً بِذِكْرِهِ؟ حَتَّى يَقُولَ بَعْضُهُمْ فِي حَالِ نَزْعِهِ: وَاطَرَبَاهُ.(١)

إن المرء ليفتقد الأنس أحيانًا وهو في حشود الناس، ثم يجد تمام الأنس في وحدته يناجي ربه ويستغفره ويدعوه، ويتلو كتابه، ويتفكر في ملكوته.

وقد يُعَزَّرُ المرء بالحبس الانفرادي، فيجد في ذلك أعظم الألم وأشد التعزير، ولكن المؤمن يجد في خلوته حلاوةَ الأنس بالله التي لا يجدها في مجتمع الناس.

✍ **يقول ابن القيم**: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة.

وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القاعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة.

أو قال ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير، ونحو هذا.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس اللهم أعني على ذكرك وشكرك

(١) الجواب الكافي: (ص: ٧٧).

وحسن عبادتك ما شاء الله وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه.

ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد:١٣]، وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة.

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.(١)

إن الأنس حقًّا هو الأنس بالله، ومن يستأنس بالله فإن الله يؤنسه، ومن أحب الله حقًا أحبه الله فضلًا منه وكرمًا، وأفاض عليه من فيوض عطائه ما يشغله، ويؤنس وحدته، حتى ولو عاش وحيدًا في هذا الوجود.

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب: (ص: ٤٨).

والأمر كما قيل: من وجد الله فماذا فقد، ومن فقد الله فماذا وجد؟

✍ **يقول ابن القيم:** فَفِي الْقَلْبِ شَعَثٌ، لَا يَلُمُّهُ إِلَّا الْإِقْبَالُ عَلَى اللهِ. وَفِيهِ وَحْشَةٌ، لَا يُزِيلُهَا إِلَّا الْأُنْسُ بِهِ فِي خَلْوَتِهِ.

وَفِيهِ حُزْنٌ لَا يُذْهِبُهُ إِلَّا السُّرُورُ بِمَعْرِفَتِهِ وَصِدْقِ مُعَامَلَتِهِ.

وَفِيهِ قَلَقٌ لَا يُسَكِّنُهُ إِلَّا الِاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ، وَالْفِرَارُ مِنْهُ إِلَيْهِ.

وَفِيهِ نِيرَانُ حَسَرَاتٍ: لَا يُطْفِئُهَا إِلَّا الرِّضَا بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَقَضَائِهِ، وَمُعَانَقَةُ الصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ إِلَى وَقْتِ لِقَائِهِ.

وَفِيهِ طَلَبٌ شَدِيدٌ: لَا يَقِفُ دُونَ أَنْ يَكُونَ هُوَ وَحْدَهُ مَطْلُوبَهُ.

وَفِيهِ فَاقَةٌ: لَا يَسُدُّهَا إِلَّا مَحَبَّتُهُ، وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ، وَدَوَامُ ذِكْرِهِ، وَصِدْقُ الْإِخْلَاصِ لَهُ. وَلَوْ أُعْطِيَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَمْ تَسُدَّ تِلْكَ الْفَاقَةَ مِنْهُ أَبَدًا.

فَالتَّفَرُّقُ يُوقِعُ وَحْشَةَ الْحِجَابِ. وَأَلَمُهُ أَشَدُّ مِنْ أَلَمِ الْعَذَابِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ﴾ [المطففين:١٥، ١٦] . فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ عَذَابُ الْحِجَابِ وَعَذَابُ الْجَحِيمِ.(١)

أهل الأنس يستعذبون العذاب في سبيل الله:

أهل الأنس بالله هم أرضى الناس بقضاء الله وقدره، يمضي فيهم كما يمضي في غيرهم؛ ولكن الفرق في التلقي والأثر... يتلقون مصائب الدهر

(١) مدارج السالكين: (٣/ ١٥٦).

وكروبه بتسليم وصبر والتجاء إلى الله، فإذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وإذا اشتدت بهم الكروب تذكروا قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف:٨٧]...فقلوبهم موصولة بالله، يشعرون بنفحاته المحيية، فهم لا ييأسون من روْح الله ولو أحاط بهم الكرب، واشتد بهم الضيق.

وهم في طمأنينة من ثقتهم بمولاهم، ولو في مخانق الكروب ومضايقها.

الخليل إبراهيم وأنسه بالله:

إبراهيم عليه السلام جاهد في الله حق الجهاد وهذا لأنه من أولي العزم من الرسل، وقد حصل له من الابتلاء والامتحان ما ظهر به صدقه وإيمانه بالله رب العالمين.

- **إبراهيم عليه السلام ينكر على قومه عبادة الأصنام:**

في أول أمره عليه الصلاة والسلام عرف الله حق المعرفة، وعرف أن قومه على غير حق، وأنهم ضالون بعبادتهم الأوثان من دون الله، فعزم وشمَّر عن ساعديه مستعينًا بالله الحي القيوم على تدمير الأصنام التي يعبدونها من دون الله.

إبراهيم عليه السلام فرد واحد قام بأمر عظيم بإنكار المنكر وهو: تكسير الأصنام التي يعبدها قومه من دون الله، فوثب عليه قومه وصارت المخاصمة والمناظرة بينه وبين القوم، ولكن الله عز وجل أخبر أنه ينصر رسله والذين آمنوا في

الحياة الدنيا قال سبحانه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]، فكل من قام بأمر من أمور الله، يريد بذلك إعلاء كلمة الله، ونصرة دين الله؛ فإن الله ينصره لا محالة؛ لأن الله جلَّ وعلا لا يخلف الميعاد.

- **إبراهيم عليه السلام يقذف في النار:**

لقد نصر الله إبراهيم عليه السلام بحجته الظاهرة، وأعلى كلمته ودينه وبرهانه، وأراد القوم نصرة ما هم عليه من السفه والطغيان فكادهم رب العالمين جلَّ جلَّاله،، كما قال تعالى: ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٦٨ - ٧٠].

وذلك أنهم انشغلوا بجمع الحطب من جميع ما يمكن من الأماكن لمدة شهر؛ حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت نذرت لئن عوفيت لتحملن حطبًا لحرق إبراهيم، ثم عمدوا إلى جوبة عظيمة، فوضعوا فيها ذلك الحطب، وأضرموا فيها النيران، فاضطرمت وتأججت والتهبت وعلا لها شرر لم ير مثله قط، ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام في كفة منجنيق صنعه لهم رجلٌ من الأكراد يقال له: هيزل، وكان أول من صنع المنجنيق، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، ثم أخذوا يقيدون إبراهيم عليه السلام ويثبتونه بالحبال وهو في كفة المنجنيق يناجي إله الأولين والآخرين،

ويستنصر برب العالمين، فلما ألقوه في النار اتصل بالحي القيوم الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، قال: «**حسبي الله ونعم الوكيل**»، الكلمة التي قالها رسول الهدى محمد بن عبد الله إيمانًا بالله، واقتداءً بالخليل عليه السلام لما قال له الناس: ﴿**إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤**﴾ [آل عمران:١٧٣ - ١٧٤].

✍ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ**، حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، «قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ» حِينَ قَالُوا: ﴿**إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣**﴾ [آل عمران:١٧٣](١).

✍ **قَالَ مُقَاتِلٌ وَسَعِيدٌ**: «لَمَّا جِيءَ بِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام فَخَلَعُوا ثِيَابَهُ، وَشَدُّوا قِمَاطَهُ، وَوُضِعَ فِي الْمَنْجَنِيقِ، بَكَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ وَالسَّحَابُ وَالرِّيحُ وَالْمَلَائِكَةُ، كُلٌّ يَقُولُونَ: يَا رَبُّ إِبْرَاهِيمُ عَبْدُكَ يُحْرَقُ بِالنَّارِ، فَائْذَنْ لَنَا فِي نُصْرَتِهِ، فَقَالَتِ النَّارُ وَبَكَتْ: يَا رَبُّ سَخَّرْتَنِي لِبَنِي آدَمَ، وَعَبْدُكَ يُحْرَقُ بِي، فَأَوْحَى اللهُ عز وجل إِلَيْهِمْ: «إِنَّ عَبْدِي إِيَّايَ عَبَدَ، وَفِي جَنْبِي أُوذِيَ، إِنْ دَعَانِي أَجَبْتُهُ، وَإِنِ اسْتَنْصَرَكُمْ فَانْصُرُوهُ». فَلَمَّا رُمِيَ اسْتَقْبَلَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام بَيْنَ الْمَنْجَنِيقِ وَالنَّارِ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا إِبْرَاهِيمُ أَنَا جِبْرِيلُ، أَلَكَ حَاجَةٌ؟ قَالَ: أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا حَاجَتِي إِلَى اللهِ رَبِّي. فَلَمَّا قُذِفَ فِي

(١) صحيح البخاري: (٤٥٦٣).

النَّارِ كَانَ سَبَقَهُ إِسْرَافِيلُ فَسَلَّطَ النَّارَ عَلَى قِمَاطِهِ، وَقَالَ اللهُ ﷻ: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبياء:٦٩]، فَلَوْ لَمْ يَخْلِطْهُ بِالسَّلَامِ لَكُزَّ فِيهَا بَرْدًا». (١)

بعد هذا المرسوم الكريم: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبياء:٦٩] صار إبراهيم في مثل: الجوبة، حوله الناس وهو في روضة خضراء، والناس ينظرون إليه لا يستطيعون الوصول إليه وهو لا يخرج إليهم.

هذا إبراهيم عليه السلام نصره الله، إبراهيم فرد، قام بأمر الله فنصره الله، لأن الله لا يخلف وعده، فمن صدق مع الله وأخلص النية لله، فإن الله قد أصدر مرسومًا ملكيًا يقرأ منذ أربعة عشر قرنًا: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [غافر:٥١].

سحرة فرعون وأنسهم بالله:

جاء موسى عليه السلام بعصا ومعه أخوه هارون إلى ذلك القصر العظيم؛ قصر فرعون، الذي كان يقول للناس: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النازعات:٢٤] ليس أيّ رب! بل الأعلى، واستأذن موسى من البوابين، وقال: أريد أن أدخل على فرعون.

قالوا: أنت تدخل على فرعون!! أنت صاحب العصا، والملابس الرثة

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: (١/ ٢٠).

وتدخل على فرعون! قال: استأذنوه، فأذن له فرعون متعجبًا من أمره، فدخل موسى الذي ربي في قصر فرعون، فقال له: ما الذي جاء بك يا موسى؟ قال: جئت أدعوك إلى الله جل وعلا وإلى أن تزكى!

فإذا بفرعون يتجبر ويطغى ويرعد ويزبد، فقال له موسى: إن جئتك بآية أتؤمن بها؟ قال: ائت بها، فإذا بموسى عليه السلام يخرج يده فإذا هي بيضاء، ويلقي عصاه فإذا هي ثعبان فخاف فرعون، وقال للملأ يستشيرهم: ماذا أفعل؟ قالوا: أَرْجِهْ وَأَخَاهُ. أي: أخره وأخاه، لا تقتله، افضحه عند الناس، اكشف لعبته وسحره أمام الملأ. قال بعضهم: أخره أربعين يومًا. فقال: يا موسى! نؤخرك إلى يوم بيننا وبينك ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ [طه:٥٩]- وهو يوم العيد- أريد أن يكون الموعد في يوم العيد؛ اليوم الذي يجتمع فيه الناس كلهم ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾ [طه:٥٩] ليس في الليل ولا في الفجر، بل في الضحى وكل الناس فيه منتبهون، ليس هناك رجل نائم ولا غائب، بل كلهم مجتمعون - انظر إلىٰ موسىٰ الواثق بدينه وبربه المستقين به- قال فرعون: لك ذلك يا موسىٰ. وبدأ فرعون في جمع السحرة.

- **حشد فرعون للسحرة:**

ذهب موسى مع هارون، وذهب فرعون يحشر السحرة من قومه، وكان قوم فرعون مشتهرين بالسحر، فأتى فرعون بكل ساحر عليم، وهم أعظم السحرة قال ابن عباس: بلغوا سبعين ساحرًا. وقال بعض المفسرين: بلغوا

اثني عشر ألف ساحر.(١)

وقال بعضهم: بلغوا ثلاثين ألفًا، وقال بعضهم: بلغوا تسعين ألف ساحر، اجتمعوا عند فرعون يوم الزينة، وكان في الصف المقابل لهم موسى - الضعيف في نظرهم - الذي لا يملك إلا عصا، ولا يكاد يبين بقوله؛ ولذلك طلب أخاه هارون، وقال: ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا ﴾ [القصص:٣٤] إن الموقف رهيب، والحشد عظيم؛ والجمهور كبير!

كل القوم قد تجمعوا وتجمهروا لذلك الموعد، وجاء فرعون واجتمع مع حاشيته ينظرون إلى هذه المباراة، وذلك المشهد العظيم.

وعندما أتى السحرة قالوا لفرعون: ﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الشعراء:٤١] أي: يا فرعون! إذا غلبنا موسى وهارون هل لنا جزاء من أموال ومناصب؟ ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الأعراف:١١٤] الأمر عجيب! فرعون يجابه موسى ما الذي منع فرعون عن قتل موسى؟

لِمَ لمْ يقتله كحال غيره من البشر؟ لِمَ لمْ يقتله كما قتل الماشطة؟(٢)

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤/ ٩٠).

(٢) عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِيَ بِي فِيهَا، أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادِهَا». قَالَ: «قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهَا؟ قَالَ: بَيْنَا هِيَ تُمَشِّطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ سَقَطَتِ الْمِدْرَى مِنْ يَدَيْهَا، فَقَالَتْ: بِسْمِ اللهِ. فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ اللهُ. قَالَتْ: أُخْبِرُهُ ⇦

إنها الهيبة من موسى قذفها الله ﷻ في قلب فرعون، فإذا به يصاب بالرعب، وإذا به يجمع السحرة كلهم -بل أعظمهم- ويعدهم بالأموال والمناصب، ويقول لهم: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأعراف:١١٤].

إنهم الطواغيت؛ طواغيت البشر، الذين يدعون الربوبية، فقد كان فرعون يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٤].

• المواجهة بين موسى وفرعون:

قذف الله ﷻ الرعب والهيبة في قلب فرعون! فإذا بموسى الضعيف يقف في صف مع هارون، وألوف السحرة في الصف الآخر، فإذا بموسى يكلمهم وينصحهم إعذارًا إلى الله جل وعلا: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ [طه:٦١] يستأصلكم ويقتلكم ويعذبكم، ويلكم! أتفترون على الله؟! قد خاب من افترى فإذا بصف

⇦

بِذَلِكَ قَالَتْ: نَعَمْ. فَأَخْبَرَتْهُ فَدَعَاهَا، فَقَالَ: يَا فُلانَةُ، وَإِنَّ لَكِ رَبًّا غَيْرِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ. فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ وَأَوْلادُهَا فِيهَا، قَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. قَالَ: وَمَا حَاجَتُكِ؟ قَالَتْ: أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَتَدْفِنَنَا. قَالَ: ذَلِكَ لَكِ عَلَيْنَا مِنَ الْحَقِّ». قَالَ: «فَأَمَرَ بِأَوْلادِهَا فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَاحِدًا وَاحِدًا، إِلَى أَنِ انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى صَبِيٍّ لَهَا مُرْضَعٍ، كَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ، قَالَ: يَا أُمَّهْ، اقْتَحِمِي، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، فَاقْتَحَمَتْ» قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ صِغَارٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ، وَابْنُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ» مسند أحمد: (٢٨٢١).

السحرة يموج، وإذا بالضوضاء تنتشر، وإذا كثير من السحرة يتزعزع صفه وموقفه، خافوا من كلمتين ألقاهما موسى، وعلم بعض السحرة أن هذه الكلمات ليست بكلمات بشر، وأن فيها هيبة رب البشر؛ فإذا بالسحرة يتنازعون فيما بينهم، قال الله: ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ ﴾ [طه:٦٢] بدأ الهمس بين السحرة وموسى ينظر، وحشود الناس ينتظرون، وفرعون ينظر مع حاشيته إلى ذلك الموقف، ما الذي حصل؟

همس بين السحرة، فكانوا يقولون: ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾ [طه:٦٣ - ٦٤] فإذا بالصف يرجع مرة أخرى، ويقفون كلهم صفًّا واحدًا جبارون متكبرون طغاة أمام موسى وهارون وليس معهم إلا عصا.

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ ﴾ [طه:٦٥] انظر إلى التحدي! فهم لجرأتهم ووثوقهم بأنفسهم يقولون: يا موسى! أتريد أن نلقي نحن أولًا أم أنت الذي تلقي عصاك؟ اختر ما تشاء يا موسى - يثقون بأنفسهم وثوقًا عجيبًا- وإذا بموسى عليه السلام يرد عليهم بكلمة كالمستهزئ بهم: ﴿ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ ﴾ [طه:٦٦] ابدءوا بالإلقاء والناس ينظرون، فإذا بألوف السحرة كل واحد يرمي عصاه والوادي أمامهم، فإذا بالوادي يموج بالثعابين والحيات ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه:٦٥ - ٦٦].

انظر إلى المنظر العجيب!

الناس خافوا، وبعض الجمهور تراجع من شدة الخوف، فإن الوادي كله قد امتلأ بالأفاعي وامتلأ بالحيات، هذا المشهد الذي يخبر الله عَجَلّ عنه بقوله: ﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ [الأعراف: ١١٦] قذف الرعب والرهبة في قلوب الناس، بل حتى موسى عليه السلام، قال الله: ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ [طه:٦٧] ولم يخف من الحيات والثعابين، إنما خاف على الناس، خاف أن يزدادوا كفرًا وطغيانًا.

ولكن انظر إلى ذلك الموقف، فرح فرعون واستبشر، نظر إلى ذلك السحر فازداد طغيانًا وعتوًا، فإذا بالوحي ينزل من السماء: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ [الأعراف:١١٧] وماذا عساها تفعل مع هذه الثعابين؟ فقد ملأت الوادي ألوف الحيات والثعابين قال الله له: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ ﴾ [طه:٦٨ – ٦٩] ألق ما عندك، عندك العصا ابذل السبب، إن المعركة بينهم وبين الله جلَّ وعلا ليست بينهم وبينك يا موسى.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ ﴾ [طه:٦٩] فيلقي موسى ما في يمينه ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [الأعراف:١١٧] انقلبت عصاه عليه السلام ثعبانًا حقيقيًا، فابتلعت كل الثعابين التي في الوادي ﴿ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [الأعراف:١١٧].

انظر إلى المشهد الرباني: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ ﴾ [الأعراف:١١٨] يقول الله جلَّ

وعلا: فوقع، وكأن الحق أمر ثقيل مستقر في الأرض يحطم ما تحته: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الأعراف:١١٨] وإذا بالسحرة يندهشون من الأمر: ﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [الأعراف:١١٩] تعجب فرعون من هذا المنظر ما الذي حدث؟! ما الذي جرى؟! والجمهور ينظر، والناس تستغرب من الأمر.

- **سجود السحرة لله تعالى:**

وإذا بالسحرة كلهم عن بكرة أبيهم آمنوا بالله جلَّ وعلا، وخروا على الأرض سجدًا: وهنا دخل الأنس بالله في قلوبهم قال تعالى: ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٢٠] إنها اللمسة الربانية، إنه الإيمان الذي إذا وقر في القلوب بدَّد الظلام كله، إنه الحق إذا وقع ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٨ - ١٢٠] وماذا يفعل فرعون الآن؟ هل سجدوا فقط لله؟ لا.

بل ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٢١، ١٢٢] ما تحمل فرعون هذا المنظر، فماذا سيفعل؟

وماذا سيصنع أمام الناس وأمام السحرة، بل أعظم السحرة؟

سجد السحرة كلهم لله تبارك وتعالى إنه الحق إذا وقع، وإنه الحق إذا جاء: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١].

قال فرعون: ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ [طه:٧١] أراد أن ينقذ

نفسه من الموقف، ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ [الأعراف:١٢٣] أيها السحرة: لِمَ لم تأخذوا الإذن مني حتى تؤمنوا؟

إن الإيمان قد انفجر في قلوبهم ولم يتمالكوا أنفسهم إلا أن وقعوا لله سجدًا، وتلفظوا بقولهم: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف:١٢١ - ١٢٢] كانوا قبل قليل يحاربون الله ويكرهون الناس على الكفر، ويقولون لفرعون: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأعراف:١١٣] يريدون الدنيا، وبعد لحظات وإذا بالأجساد تخرُّ لله سجدًا.

• ثبات السحرة أمام تهديد فرعون وغضبه:

قال الله عن فرعون: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأعراف:١٢٣] بدأ الآن يهدد، ماذا تريد يا فرعون؟ قال: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف:١٢٤] لا ينفع فيكم إلا التعذيب، سوف أصلبكم في جذوع النخل، وأقطع يد أحدكم ورجله حتى تموتوا ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه:٧١] يظن أن عذابه أشد من عذاب الله، ويظن أن ألمه أشد من ألم حر جهنم!

فماذا قال السحرة؟

لقد كانوا قبل قليل يريدون أموالًا ومناصب، ويريدون التقرب والتزلف

للحاكم، أما الآن فأجابوا ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ ﴾ [طه:٧٢] لن نحكمك، ولن نختارك يا فرعون: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [طه:٧٢] لقد رأينا البينات، قال بعض المفسرين: إنهم لما سجدوا كل واحد رأى منزله في الجنة(١).

لأنهم سجدوا يقينًا بالله تبارك وتعالى، وأي إيمان هذا الإيمان!

قبل قليل كانوا سحرة كفارًا طواغيت، وبعد قليل يؤمنون ويسجدون لله؛ فقد أروا مساكنهم في الجنة، فلما رفعوا رءوسهم قال: لأصلبنكم لأعذبنكم سأقطع الأيادي والأرجل، قالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [طه:٧٢] وأقسموا على هذا: ﴿ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ﴾ [طه:٧٢] أي: نقسم بالذي فطرنا على هذا ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ [طه:٧٢] افعل يا فرعون ما تشاء عذب قطع الأيادي والأرجل اصلبنا على جذوع النخل، افعل ما تشاء: ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ ﴾ [طه:٧٢] مهما فعلت فإنها دنيا!

إن الإيمان إذا دخل في القلب استهان بالدنيا واحتقرها! كيف تكون الدنيا لا تساوي عنده جناح بعوضة، قبل قليل يريدون المناصب والأموال والقربى، أما الآن فيقولون: هذه دنيا فانية ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ﴾ [طه:٧٣] يقال: إنه جمعهم منذ الطفولة وهم أيتام،

---

(١) أورد ابن أبي حاتم في تفسيره: (٨/ ٢٧٦٦) عَنِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٢٠] قَالَ: رَأَوْا مَنَازِلَهُمْ تُبْنَى لَهُمْ وَهُمْ فِي سُجُودِهِمْ.

وجاء بهم وعلمهم السحر منذ الصغر، حتى كبروا وترعرعوا على السحر، إكراه من فرعون، والويل لمن يخالف.(١)

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ [طه:٧٣] ثم إذا بهم يتكلمون عن الجنة والنار. وهل تركهم فرعون؟! لا.

بل نفذ ما وعدهم به، صلبهم على جذوع النخل، وقطع الأيادي والأرجل، وبعد قليل كما قال ابن عباس: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء بررة(٢) وما وصلوا لهذا إلا لما بلغت مرحلة الأنس بالله قلوبهم فاسْتَعْذَبُوا العذاب في سبيل الله ﷻ.

قصة خبيب بن عدي:

خبيب بن عدي يأخذه الكفار أسيرًا، ويدخلونه بيتًا غير مسقوف، فَلَبِثَ خُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا حَتَّى أَجْمَعُوا قَتْلَهُ، فَاسْتَعَارَ مِنْ بَعْضِ بَنَاتِ الْحَارِثِ مُوسًا يَسْتَحِدُّ بِهَا فَأَعَارَتْهُ إِيَّاهَا، فَدَرَجَ بُنَيٌّ لَهَا حَتَّى أَتَاهُ، قَالَتْ: وَأَنَا غَافِلَةٌ، فَوَجَدْتُهُ مُجْلِسُهُ عَلَى فَخِذِهِ وَالْمُوسَ بِيَدِهِ، قَالَتْ: فَفَزِعْتُ فَزْعَةً عرفها خُبَيْبٌ، فَقَالَ: أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ ذَلِكَ.

قَالَتْ: وَاللهِ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ، لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ قَطْفًا مِنْ عِنَبٍ فِي يَدِهِ وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ فِي الْحَدِيدِ وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرَةٍ، وَكَانَتْ

---

(١) بحر العلوم: (٢/ ٤٠٦).

(٢) تفسير الطبري: (١٣/ ٣٦).

تَقُولُ: إِنَّهُ لَرِزْقٌ رَزَقَهُ اللهُ تَعَالَى خُبَيْبًا، فَلَمَّا خَرَجُوا بِهِ مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فِي الْحِلِّ، قَالَ: دَعُونِي أَرْكَعُ رَكْعَتَيْنِ أُتِمُّهُمَا وَأُحْسِنُهُمَا، ثُمَّ قَالَ: وَاللهِ لَوْلَا أَنْ تَظُنُّوا أَنِّي إِنَّمَا طَوَّلْتُ جَزَعًا مِنَ الْقَتْلِ لَاسْتَكْثَرْتُ وَزِدْتُ، ثُمَّ رَفَعُوهُ عَلَى خَشَبَةٍ، فَلَمَّا أَوْثَقُوهُ قَالَ: اللهُمَّ إِنَّا قَدْ بَلَّغْنَا رِسَالَةَ رَسُولِكَ فَبَلِّغْهُ الْغَدَاةَ مَا يُفْعَلُ بِنَا، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: ثُمَّ قَالَ: اللهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا وَاقْتُلْهُمْ بَدَدًا وَلَا تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا.

✍ **قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ:** ثُمَّ أَنْشَدَ يَقُولُ:

لَقَدْ جَمَّعَ الْأَحْزَابُ حَوْلِي وَأَلَّبُوا ... قَبَائِلَهُمْ وَاسْتَجْمَعُوا كُلَّ مَجْمَعِ
وَقَدْ جَمَعُوا أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ ... وَقُرِّبْتُ مِنْ جِذْعٍ طَوِيلٍ مُمَنَّعِ
إِلَى اللهِ أَشْكُو كُرْبَتِي بَعْدَ غُرْبَتِي ... وَمَا جَمَعَ الْأَحْزَابُ لِي حَوْلَ مَصْرَعِي
فَذَا الْعَرْشِ صَبِّرْنِي عَلَى مَا يُرَادُ بِي ... فَقَدْ بَضَّعُوا لَحْمِي وَقَدْ يَاسَ مَطْمَعِي
وَقَدْ خَيَّرُونِي الْكُفْرَ وَالْمَوْتُ دُونَهُ ... وَقَدْ ذَرَفَتْ عَيْنَايَ مِنْ غَيْرِ مَجْزَعِ
وَمَا بِي حِذَارُ الْمَوْتِ إِنِّي لَمَيِّتٌ ... وَلَكِنْ حِذَارِي جَحْمُ نَارٍ مُلَفَّعِ
وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللهِ مَضْجَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ(١)

وانظر إلى ثباته وهذا نتاج قلب ملئ بالسكينة والأنس بالله سبحانه وتعالى.

(١) سير السلف للأصبهاني (ص: ٣٩٨). وانظر سير أعلام النبلاء: (٣/ ١٥٤).

حبيب بن زيد بن عاصم:

قال ابن إِسْحَاق: شهدت نسيبة بنت كعب، أم عمارة، وزوجها زيد ابْن عاصم بْن كعب، وابناها: حبيب وعبد اللَّه، ابنا زيد العقبة، وشهدت هي وزوجها وابناها أُحدًا.

وحبيب هو الَّذِي أرسله رَسُول اللهِ ﷺ إلى مسيلمة الكذاب الحنفي، صاحب اليمامة، فكان مسيلمة إذا قال له: أتشهد أن محمدا رَسُول اللهِ؟ قال: نعم، وَإِذا قال: أتشهد أني رَسُول اللهِ؟ قال: أنا أصم لا أسمع، ففعل ذلك مرارًا، فقطعه مسيلمة عضوًا عضوًا، فمات شهيدًا رضي الله عنه.[(١)]

وانظر إلى ثباته وهذا نتاج أُنْسِهِ بالله عز وجل يُقطع قطعًا قطعًا ولا يتزعزع لأن أهل الأنس بالله يستعذبون العذاب في سبيل الله.

فوائد الأنس بالله:

١- أنه يورث الرضا بقضاء الله.

٢- اطمئنان القلب لأقداره.

٣- المناعة من الفزع والجزع عند المصائب.

(١) أسد الغابة: (١/ ٤٤٣).بتصرف يسير.

الموعظة العاشرة

وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

يقـول صـاحب العظمـة والكبريـاء: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال:٤٥].

إنَّ الْمُحِبِّين يَفْتَخِرُونَ بِذِكْرِ مَنْ يُحِبُّونَهُ عند الحرب والقتال، كَمَا قَالَ عَنْتَرَةُ:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَالرِّمَاحُ كَأَنَّهَا ... أَشْطَانُ بِئْرٍ فِي لُبَانِ الْأَدْهَمِ

وَهُوَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ الْمَحَبَّةِ، فَإِنَّ ذِكْرَ الْمُحِبِّ مَحْبُوبَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ الَّتِي لَا يَهُمُّ الْمَرْءَ فِيهَا غَيْرُ نَفْسِهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ نَفْسِهِ أَوْ أَعَزُّ مِنْهَا، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِ الْمَحَبَّةِ.

وإذا كان أهل الجاهلية يذكرون أحبابهم من البشر عند القتال، بل ويتفاخرون بذلك، فكيف بمن قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]؟

إن الإنسان في حالة الخوف ينسى كلَّ شيء، ويكون همُّه أن يقيَ نفسه الهلاك، وألا يُقْتَل، ولا يُصْرَع، ومع هذه الحالة من الخوف والشدَّة إذا ذكر الإنسانُ ربَّه، فمعناه أن محبة الله متأسسة في نفسه ومغروسة، لدرجة أنه حتى في حالة الشدة يذكر الله.

لذلك أمرنا الله أن نذكره في حالة القتال والخوف فقال أنيس المحبين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنفال:٤٥].

- كما نلحظ أن الله تعالى أعطى رخصة الإفطار في رمضان، ورخصة القصر في الصلاة حال السفر، لكنه لم يُرَخِّصْ سبحانه وتعالى في ترك الذكر أبدًا.

ومن هنا نبدأ فنقول مستعينين بالله:

إن القلوب كما قيل: كالقدور وألسنتها مغارفها، فالقلب كالقِدر واللسان كالمغرفة، فإذا امتلأ القلب بحب الله ﷻ تحرك اللسان بالذكر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإصلاح بين الناس وغير ذلك.

الذكر لغة: الذّكر يأتي بمعنى الحفظ للشّيء، وهو أيضًا الشّيء يجري على اللّسان، ومنه قولهم ذكرت لفلان حديث كذا وكذا، أي قلته له. تقول: ذكره يذكره ذكرًا وذكرًا.

ومن المجاز: الذّكر: الصّيت يكون في الخير والشّرّ، والذّكر: الثّناء ويكون في الخير فقط...

ورجل مذكور أي يثنى عليه بخير، ومن المجاز؛ الذّكر: الشّرف، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف:٤٤] أي القرآن شرف لك ولهم، وقوله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشرح:٤] أي شرفك.

واصطلاحًا: التّخلّص من الغفلة والنّسيان[1] ويقول الرّاغب: «الذّكر تارة يقال ويراد به هيئة للنّفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وتارة يقال لحضور الشّيء القلب أو القول، ولذلك قيل الذّكر ذكران: ذكر بالقلب، وذكر باللّسان»[2].

منزلة الذكر:

يبيّن ابن القيّم منزلة الذّكر وأهميّته فيقول: وَهِيَ مَنْزِلَةُ الْقَوْمِ الْكُبْرَى الَّتِي مِنْهَا يَتَزَوَّدُونَ وَفِيهَا يَتَّجِرُونَ، وَإِلَيْهَا دَائِمًا يَتَرَدَّدُونَ.

وَالذِّكْرُ مَنْشُورُ الْوِلَايَةِ الَّذِي مِنْ أُعْطِيَهُ اتَّصَلَ وَمَنْ مُنِعَهُ عُزِلَ، وَهُوَ قُوتُ قُلُوبِ الْقَوْمِ الَّذِي مَتَى فَارَقَهَا صَارَتِ الْأَجْسَادُ لَهَا قُبُورًا، وَعِمَارَةُ دِيَارِهِمُ الَّتِي إِذَا تَعَطَّلَتْ عَنْهُ صَارَتْ بُورًا، وَهُوَ سِلَاحُهُمُ الَّذِي يُقَاتِلُونَ بِهِ قُطَّاعَ الطَّرِيقِ، وَمَاؤُهُمُ الَّذِي يُطْفِئُونَ بِهِ الْتِهَابَ الطَّرِيقِ وَدَوَاءُ أَسْقَامِهِمُ الَّذِي مَتَى فَارَقَهُمُ انْتَكَسَتْ مِنْهُمُ الْقُلُوبُ، وَالسَّبَبُ الْوَاصِلُ وَالْعَلَاقَةُ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَلَّامِ الْغُيُوبِ.

إِذَا مَرِضْنَا تَدَاوِينَا بِذِكْرِكُمُ ... فَنَتْرُكُ الذِّكْرَ أَحْيَانًا فَنَنْتَكِسُ

بِهِ يَسْتَدْفِعُونَ الْآفَاتِ وَيَسْتَكْشِفُونَ الْكُرُبَاتِ وَتَهُونُ عَلَيْهِمْ بِهِ الْمُصِيبَاتُ، إِذَا أَظَلَّهُمُ الْبَلَاءُ فَإِلَيْهِ مَلْجَؤُهُمْ، وَإِذَا نَزَلَتْ بِهِمُ النَّوَازِلُ فَإِلَيْهِ مَفْزَعُهُمْ. فَهُوَ رِيَاضُ جَنَّتِهِمُ الَّتِي فِيهَا يَتَقَلَّبُونَ وَرُءُوسُ أَمْوَالِ سَعَادَتِهِمُ الَّتِي بِهَا يَتَّجِرُونَ.

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٤٥١).
(٢) المفردات: (١٧٩).

يَدَعُ الْقَلْبَ الْحَزِينَ ضَاحِكًا مَسْرُورًا، وَيُوصِّلُ الذَّاكِرَ إِلَى الْمَذْكُورِ، بَلْ يَدَعُ الذَّاكِرَ مَذْكُورًا.

وَفِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنَ الْجَوَارِحِ عُبُودِيَّةٌ مُؤَقَّتَةٌ، وَالذِّكْرُ عُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَهِيَ غَيْرُ مُؤَقَّتَةٍ، بَلْ هُمْ مَأْمُورُونَ بِذِكْرِ مَعْبُودِهِمْ وَمَحْبُوبِهِمْ فِي كُلِّ حَالٍ: قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ. فَكَمَا أَنَّ الْجَنَّةَ قِيعَانٌ وَهُوَ غِرَاسُهَا، فَكَذَلِكَ الْقُلُوبُ بُورٌ وَخَرَابٌ وَهُوَ عِمَارَتُهَا وَأَسَاسُهَا.

وَهُوَ جَلَاءُ الْقُلُوبِ وَصِقَالُهَا وَدَوَاؤُهَا إِذَا غَشِيَهَا اعْتِلَالُهَا، وَكُلَّمَا ازْدَادَ الذَّاكِرُ فِي ذِكْرِهِ اسْتِغْرَاقًا: ازْدَادَ الْمَذْكُورُ مَحَبَّةً إِلَى لِقَائِهِ وَاشْتِيَاقًا، وَإِذَا وَاطَأَ فِي ذِكْرِهِ قَلْبُهُ لِلِسَانِهِ: نَسِيَ فِي جَنْبِ ذِكْرِهِ كُلَّ شَيْءٍ وَحَفِظَ اللهُ عَلَيْهِ كُلَّ شَيْءٍ وَكَانَ لَهُ عِوَضًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

بِهِ يَزُولُ الْوَقْرُ عَنِ الْأَسْمَاعِ وَالْبَكَمُ عَنِ الْأَلْسُنِ وَتَنْقَشِعُ الظُّلْمَةُ عَنِ الْأَبْصَارِ. زَيَّنَ اللهُ بِهِ أَلْسِنَةَ الذَّاكِرِينَ كَمَا زَيَّنَ بِالنُّورِ أَبْصَارَ النَّاظِرِينَ، فَاللِّسَانُ الْغَافِلُ: كَالْعَيْنِ الْعَمْيَاءِ وَالْأُذُنِ الصَّمَّاءِ وَالْيَدِ الشَّلَّاءِ.

وَهُوَ بَابُ اللهِ الْأَعْظَمُ الْمَفْتُوحُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَبْدِهِ مَا لَمْ يُغْلِقْهُ الْعَبْدُ بِغَفْلَتِهِ.(١)

درجات الذّكر:

قال ابن القيّم عن درجات الذّكر: وهو على ثلاث درجات:

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٣٩٦).

* **الدرجة الأولى**: الذكر الظاهر ثناءً أو دعاءً أو رعاية، والمراد بالظاهر ما تواطأ عليه القلب واللسان.

- **فذكر الثناء**: نحو سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

- **وذكر الدعاء**: نحو: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف:٢٣].

- **وذكر الرعاية**: ما يستعمل لتقوية الحضور مع الله، وفيه رعاية لمصلحة القلب، وأنسه بالله، وثقته به كما قال سبحانه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]، ومثل قول الذّاكر «الله معي، الله ناظر إليّ، الله شاهدي».

فيشعر قلب العبد أن الله معنا، وأنه يرانا، وأنه يسمعنا. فيتولد من ذلك الحياء من الله، والإقبال على طاعته، والبعد عن معصيته، ودوام ذكره وشكره.

* **الدّرجة الثّانية**: الذّكر الخفيّ وهو الخلاص من القيود، والبقاء مع الشّهود، ولزوم المسامرة. ومعنى هذا: أن الذكر الخفي، هو الذكر بمجرد القلب بما يعرض له من الواردات.

ويكون بالتخلص من الغفلة والنسيان، والحجب الحائلة بين القلب والرب سبحانه، وملازمة الحضور مع المذكور سبحانه، ومشاهدة القلب له حتى كأنه يراه، ولزوم القلب لذكر ربه.

تملقًا تارة. وتضرعًا تارة.. وثناءً تارة.. وتعظيمًا تارة.. ومحبة تارة.. وغير ذلك من أنواع المناجاة بالسر والقلب.. وهذا شأن كل محب وحبيبه.

* **الدرجة الثالثة**: الذّكر الحقيقيّ، وهو شهود ذكر الحقّ إيّاك، والتّخلّص من شهود ذكرك.

وقد سمّي هذا الذّكر حقيقيّا؛ لأنّه منسوب إلى الرّبّ تعالى فذكر الله لعبده هو الذّكر الحقيقيّ، وهو شهود ذكر الحقّ عبده.

فهو سبحانه الذي جعل الذاكر ذاكرًا، والموحد موحدًا، والكافر كافرًا، والأبيض أبيض، والقصير قصيرًا، فله المنَّة والفضل، والعطاء والمنع، وله كل شيء، وبيده كل شيء، وهو رب كل شيء.

وحقيقة ذكر الله هي تركيز اتجاه القلب إلى الله سبحانه وتعالى في كل وقت من الأوقات بالذكر والدعاء، وعند الأوامر والنواهي، وسائر الأحوال.

فالمسلم يبدأ ذكر الله بلسانه نطقًا ومقالًا.. ثم بقلبه يقينًا واعتقادًا.. ثم بعمله طاعة وامتثالًا لأوامر الله سبحانه.

وذكر الله سبحانه هو ثمرة المعرفة بالله والإيمان به سبحانه، وقد أمرنا الله بذكره دائمًا حتى نستحضر عظمته وجلاله، وجماله وكماله، لنطيعه ولا نعصيه، ونشكره ولا نكفره..(١)

✍ **وقال ابن القيّم**: وَذِكْرُ الله يتَضَمَّن ذكر أَسْمَائِهِ وَصِفَاته وَذكر أمره وَنَهْيه وَذكره بِكَلَامِهِ وَذَلِكَ يسْتَلْزم مَعْرفَته وَالْإِيمَان بِهِ وبصفات كَمَاله ونعوت جَلَاله وَالثنَاء عَلَيْهِ بأنواع الْمَدْح وَذَلِكَ لَا يتم إِلَّا بتوحيده فَذكره

(١) مدارج السالكين: (٢٤٥٢- ٤٥٣). وانظر: موسوعة فقه القلوب (٢/ ١٨٧٠) بتصرف.

الْحَقِيقِيّ يسْتَلْزِم ذَلِك كُله ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إِلَى خلقه.(١)

🖎 **وقال أبو الفرج ابن الجوزيّ**: الذّكر يقال على وجهين:

* **أحدهما**: الذّكر بالقلب.

* **والثّاني**: الذّكر باللّسان.

وهو في الموضعين حقيقيّ، ويستعار في مواضع تدلّ عليها القرينة.(٢)

معاني كلمة الذكر في القرآن الكريم:

🖎 **وقال ابن القيّم**: جاء الذّكر في القرآن على عشرة أوجه:

* **الأوّل**: الأمر به مطلقا ومقيّدا وذلك كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢﴾ [الأحزاب: ٤١- ٤٢].

* **الثّاني**: النّهي عن ضدّه من الغفلة والنّسيان كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [الأعراف:٢٠٥].

* **الثّالث**: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته كقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥﴾ [الأنفال:٤٥].

* **الرّابع**: الثَّنَاءُ عَلَى أَهْلِهِ والإخبار بما أعدّ الله لهم من الجنّة والمغفرة

---

(١) الفوائد لابن القيم: (ص: ١٢٨).

(٢) نزهة الأعين النواظر: (٣٠١).

وَحُسْنُ جَزَائِهِمْ: فَكَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب:٣٥].

* **الخامس**: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره. كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون:٩].

* **السّادس**: أنّه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له، كقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢].

* **السّابع**: الْإِخْبَارُ عَنْهُ بِأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]، وَفِيهَا أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ:

- **أَحدُهَا**: أَنَّ ذِكْرَ اللهِ أَكبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَهُوَ أَفْضَلُ الطَّاعَاتِ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِالطَّاعَاتِ كُلِّهَا: إِقَامَةُ ذِكْرِهِ فَهُوَ سِرُّ الطَّاعَاتِ وَرُوحُهَا.

- **الثَّانِي**: أَنَّ الْمَعْنَى: أَنَّكُمْ إِذَا ذَكَرْتُمُوهُ ذَكَرَكُمْ فَكَانَ ذِكْرُهُ لَكُمْ أَكْبَرَ مِنْ ذِكْرِكُمْ لَهُ. فَعَلَى هَذَا: الْمَصْدَرُ مُضَافٌ إِلَى الْفَاعِلِ، وَعَلَى الْأَوَّلِ: مُضَافٌ إِلَى الْمَذْكُورِ.

- **الثَّالِثُ**: أَنَّ الْمَعْنَى: وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يَبْقَى مَعَهُ فَاحِشَةٌ وَمُنْكَرٌ، بَلْ إِذَا تَمَّ الذِّكْرُ: مَحَقَ كُلَّ خَطِيئَةٍ وَمَعْصِيَةٍ. هَذَا مَا ذَكَرَهُ الْمُفَسِّرُونَ.

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ رحمه الله يَقُولُ: مَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ فِي الصَّلَاةِ فَائِدَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا: نَهْيُهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَالثَّانِيَةُ: اشْتِمَالُهَا عَلَى ذِكْرِ اللهِ وَتَضَمُّنِهَا لَهُ وَلَمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ نَهْيِهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ.

* **الثّامن**: أنّه جعله خاتمة الأعمال الصّالحة كما كان مفتاحها، وذلك كما ختم به الحجّ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة:٢٠٠]، وختم به الصّلاة كقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣]. وختم به الجمعة كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ١٠].

* **التّاسع**: الإخبار عن أهله بأنّهم هم أهل الانتفاع بآياته وأنّهم أولو الألباب دون غيرهم كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩١].

* **العاشر**: مُصَاحَبَتُهُ لِجَمِيعِ الْأَعْمَالِ وَاقْتِرَانُهُ بِهَا وَأَنَّهُ رُوحُهَا: فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ قَرَنَهُ بِالصَّلَاةِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ [طه:١٤] وَقَرَنَهُ بِالصِّيَامِ وَبِالْحَجِّ وَمَنَاسِكِهِ، بَلْ هُوَ رُوحُ الْحَجِّ وَلُبُّهُ وَمَقْصُودُهُ. كَمَا قَالَ النَّبِيُّ:

«إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ وَالسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَرَمْيُ الْجِمَارِ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللهِ».

وَقَرَنَهُ بِالْجِهَادِ وَأَمَرَ بِذِكْرِهِ عِنْدَ مُلَاقَاةِ الْأَقْرَانِ وَمُكَافَحَةِ الْأَعْدَاءِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥﴾ [الأنفال:٤٥] وَفِي أَثَرٍ إِلَهِيٍّ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِنَّ عَبْدِي - كُلَّ عَبْدِيَ - الَّذِي يَذْكُرُنِي وَهُوَ مُلَاقٍ قِرْنَهُ.

سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ - يَسْتَشْهِدُ بِهِ وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: الْمُحِبُّونَ يَفْتَخِرُونَ بِذِكْرِ مَنْ يُحِبُّونَهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ، **كَمَا قَالَ عَنْتَرَةُ:**

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَالرِّمَاحُ كَأَنَّهَا ... أَشْطَانُ بِئْرٍ فِي لُبَانِ الْأَدْهَمِ

✍ **وَقَالَ الْآخَرُ:**

ذَكَرْتُكِ وَالْخَطِّيُّ يَخْطُرُ بَيْنَنَا ... وَقَدْ نَهَلَتْ مِنَّا الْمُثَقَّفَةُ السُّمْرُ

✍ **قَالَ آخَرُ:**

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَالرِّمَاحُ شَوَاجِرٌ ... تَحْوِي وَبِيضُ الْهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي

وَهَذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ وَهُوَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ الْمَحَبَّةِ. فَإِنَّ ذِكْرَ الْمُحِبِّ مَحْبُوبَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ الَّتِي لَا يَهُمُّ الْمَرْءَ فِيهَا غَيْرُ نَفْسِهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ نَفْسِهِ أَوْ أَعَزُّ مِنْهَا، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِ الْمَحَبَّةِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.(١)

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٣٩٧-٤٠٠).

الهدف من ذكر الله:

هو إحياء جميع ما جاء به الرسول ﷺ من الإيمان بالله، وتوحيده، وعبادته، والتزام شرعه، وطاعته وطاعة رسوله ﷺ.(١)

الحث على الذكر:

ثبت في كثير من الآيات والأحاديث فضل الذكر ودعاء الله ﷻ.

قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب:٤١ - ٤٢].

ومنها أيضًا: قوله ﷻ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة:١٥٢]، فالشكر يتعدى باللام تقول: قد شكر الله لك، أو شكرت له، وهذا أبلغ من أن تقول: شكرته ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان:١٤].

وقال ﷻ: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف:٢٠٥].

وقال جل ذكره: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت:٤٥].

---

(١) موسوعة فقه القلوب: (٢/ ١٨٧٠).

وقال ﷻ مخاطبًا نبيه زكريا عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام لما سأل الله أن يجعل له آية قال: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران:٤١]، فقد عطل لسانه عليه السلام عن كل كلام إلا ما كان فيه ذكر، ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ [آل عمران:٤١]، فكان إذا أراد أن يتكلم عطل لسانه، وامتنع عن النطق إلا إذا كان هذا الكلام بذكر الله ﷻ.

وسأل موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ربه أن يجعل له وزيرًا: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ [طه:٢٩ - ٣٢].

لماذا كل هذا؟ ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه:٣٣ - ٣٥].

* وقال أوصى النبي ﷺ معاذًا بعد ما أخبره أنه يحبه، فقال له: «**يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**»، فَقَالَ: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**».(١)

فدلَّ هذا على أن الذكر ليس بالسهل، بل يحتاج إلى معونة من الله ﷻ؛

(١) أبو داود (١٥٢٢) واللفظ له، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (١/ ٢٨٤) رقم (١٣٤٧): صحيح، والنسائي (٣/٥٣). وقال محقق جامع الأصول (٤/ ٢٠٩): إسناده صحيح.

حتى يصرف عن الإنسان الصوارف الشاغلة التي تحوِّل همته من هذه الكنوز العظيمة التي يفوز بها إذا اشتغل بذكر الله ﷻ.

* وقال سبحانه وتعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب:٢١].

* وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٥].

* وقال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الرعد:٢٨ - ٢٩].

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩٣].

* وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنفال:٤٥].

* وقال تعالى: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النور: ٣٦- ٣٨].

* وقال تعالى: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ – ٢٢٧].

الإكثار من ذكر الله:

و نقف عند إحدى هذه الآيات، وهي آية سورة الأحزاب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٤١ – ٤٢].

إذا تأملنا القرآن الكريم والسنة الشريفة فإننا نجد أن كل عبادة من العبادات لها وصف محدد أو عدد محدد لا يجوز عنه، فالحج مثلًا يكون مرة واحدة في السنة، والصيام الواجب هو صيام شهر رمضان، والزكاة يشترط فيها مثلًا حولان الحول، وهناك شروط أخرى، فكل عبادة لها وقت،

ولها عدد، ولها هيئة مخصوصة وأوقات مخصوصة، فهناك أوقات ينهى عن الصلاة فيها، والعبادة الوحيدة التي أمرنا بالإكثار منها بلا حدود هي ذكر الله ﷻ، فكل أمر أتى فيه الترغيب في الذكر فغالبًا ما يقترن بالإكثار والاجتهاد في مضاعفة هذا الذكر كما في هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب:٤١]، وقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥].

✍ **قال علي بن أبي طلحة** عن ابن عباس ﭭ في قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب:٤١]: إن الله لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدًا معلومًا، ثم عذر أهلها في حال عذر غير الذكر، فإن الله لم يجعل له حدًا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه إلا مغلوبًا على عقله، فقال: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ﴾ [النساء:١٠٣]، بالليل والنهار، في البر والبحر، في السفر والحضر، والغنى والفقر، والصحة والسقم، والسر والعلانية، وعلى كل حال، وقال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب:٤٢] فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال:٤٥]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥] إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب:٣٥].

الحث من السنة على الذكر:

إن الأحاديث الواردة في الذكر كثيرة، ولكن نأخذ منها طرفًا على سبيل الإجمال ونفصِّل القول في بعضها في ما يأتي من نقاط إن شاء الله:

* وقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَعمَالِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟**» قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «**ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى**».

✍ **قَالَ زِيَادُ بْنُ أَبِي زِيَادٍ**، وَقَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: «مَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ مِنْ عَمَلٍ أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ، مِنْ ذِكْرِ اللهِ»(١).

* وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «**إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: أَنَا مَعَ عَبْدِي إِذَا هُوَ ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ**»(٢).

* وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُسْرٍ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ(٣) بِهِ، قَالَ: «**لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ**».(٤)

---

(١) الموطأ. تنوير الحوالك: (١/ ٢١١)، الترمذي: (٣٣٧٧) واللفظ له، قال الحاكم في المستدرك (١/ ٤٩٦) حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وكذا ذكره محقق جامع الأصول (٩/ ٥١٤).

(٢) الحاكم (١/ ٤٩٦) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٣) أتشبث: أتمسك.

(٤) الترمذي (٣٣٧٥) واللفظ له، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه، وأخرجه ⇦

* وعن أبي مَعْبَدٍ، مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، أَخْبَرَهُ: أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ ﭬ، أَخْبَرَهُ: «أَنَّ رَفْعَ الصَّوْتِ، بِالذِّكْرِ حِينَ يَنْصَرِفُ النَّاسُ مِنَ المَكْتُوبَةِ كَانَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ» وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «كُنْتُ أَعْلَمُ إِذَا انْصَرَفُوا بِذَلِكَ إِذَا سَمِعْتُهُ»(١).

* وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»**(٢).

* وعَنْ أَبِي مُوسَى ﭬ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ»**(٣).

* وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَقُولُ اللهُ ﻷ: **«أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي**(٤)**، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا**(٥)**،**

⇦

الحاكم في المستدرك (١/ ٤٩٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(١) البخاري: (٨٤١).

(٢) البخاري: (٦٦٠) واللفظ له، ومسلم: (١٠٣١).

(٣) البخاري: (٦٤٠٧) واللفظ له، ومسلم: (٧٧٩).

(٤) أنا عند ظن عبدي بي: قيل معناها المراد به الرجاء وتأميل العفو.

(٥) وإن تقرب مني شبرًا: ومعناه من تقرب إليّ بطاعتي تقربت إليه برحمتي والتوفيق والإعانة.

تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً». (١)

* وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﵄: أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ قَالَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَا أَجْعَلُ لَكَ شَيْئًا تَقْعُدُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ لِي غُلَامًا نَجَّارًا قَالَ: «إِنْ شِئْتِ»، قَالَ: فَعَمِلَتْ لَهُ المِنْبَرَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ قَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى المِنْبَرِ الَّذِي صُنِعَ، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ الَّتِي كَانَ يَخْطُبُ عِنْدَهَا، حَتَّى كَادَتْ تَنْشَقُّ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَخَذَهَا، فَضَمَّهَا إِلَيْهِ، فَجَعَلَتْ تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّتُ، حَتَّى اسْتَقَرَّتْ، قَالَ: «بَكَتْ عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ». (٢)

الحث على حضور مجالس الذكر:

لقد حث الشارع على حضور مجالس الذكر، وحينما نذكر كلمة الذكر فلا يتبادر إلى الذهن التسبيح والتكبير والتهليل فقط، بل إن كل عامل لله بطاعة فهو ذاكر له، وأشرف مجالس الذكر هي مجالس العلم، لأنها مجالس الحلال والحرام، وهي تغيظ الشيطان أكثر من غيرها؛ لأنها تبصر الناس بمعالم دينهم وطاعة ربهم سبحانه وتعالى، فمجالس الذكر أعم من أن تكون مجالس التسبيح والتهليل والتكبير، بل إن أشرف مجالس الذكر هي مجالس العلم، بل إن مجلس العلم أفضل من صلاة النافلة، فالإنسان الذي يترك

---

(١) البخاري: (٧٥٣٦)، ومسلم: (٢٦٧٥) واللفظ له.

(٢) البخاري: (٢٠٩٥).

مجلس العلم ويشتغل بالنافلة قليل الفقه، ولو علم لما أعرض عن مجلس العلم؛ لأن مجلس العلم أفضل عند الله ﷻ من الاشتغال بصلاة النافلة.

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ» قَالَ: «فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا» قَالَ: «فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ، مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ» قَالَ: «فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟» قَالَ: «فَيَقُولُونَ: لَا وَاللهِ مَا رَأَوْكَ؟» قَالَ: «فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا» قَالَ: «يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟» قَالَ: «يَسْأَلُونَكَ الجَنَّةَ» قَالَ: «يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا» قَالَ: «يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً، قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ» قَالَ: «يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا» قَالَ: «يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟» قَالَ: «يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً» قَالَ: «فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ» قَالَ: «يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ المَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ. قَالَ: هُمُ الجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»(١).

---

(١) البخاري: (٦٤٠٨) واللفظ له، ومسلم: (٢٦٨٩).

وهذا الحديث دليل قوي على أن بركة الصالحين تعم من يجلس في مجالسهم حتى ولو لم يكن منهم، ومن كثّر سواد قوم حشر معهم.

* وَفِي صحيح مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ، قَالَ آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟ قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «**مَا أَجْلَسَكُمْ؟**» قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا، قَالَ: «**آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟**» قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: «**أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي، أَنَّ اللهَ ﷻ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ**» أي: لأنهم جلسوا يذكرون الله ﷻ.(١)

* وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا جَلَسَ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ ﷻ إِلَّا نَادَاهُمْ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: قُومُوا مَغْفُورًا لَكُمْ، فَقَدْ بُدِّلَتْ سَيِّئَاتُكُمْ حَسَنَاتٍ**».(٢)

* وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ**

(١) صحيح مسلم: (٢٧٠١).

(٢) المعجم الأوسط: (١٥٥٦)، وانظر: صحيح الجامع: (٥٥٠٧).

عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ».(١)

* وعنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**».(٢)

التحذير من حضور مجالس الشر:

كما حث الشارع على حضور مجالس الذكر فقد نفّر عن مجالسة الكذابين، وحذر من مجالسة الخطائين، قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان:٧٢] أي: كأن الإنسان إذا جلس في مجالس اللغو فإن هذه إهانة له تنافي الكرامة التي كرمه الله ﷻ بها، سواء كانت تلك مجالس اللعب واللهو، أو مجالس للأغاني، أو مجالس للأفلام، فكل هذا اللهو الفارغ ملعون كما قال النبي ﷺ: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرَ اللهِ، وَمَا وَالَاهُ، أَوْ عَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا**»(٣)، فكل هذه الأشياء ملعونة ومطرودة ومبعدة من رحمة الله ﷻ، ومبعدة لمن اشتغل بها عن ذكر الله تبارك وتعالى، فلا ينبغي حضور مجالس الزور كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان:٧٢]، وسواء كان الزور أعياد

---

(١) صحيح مسلم: (٢٦٩٩).

(٢) صحيح البخاري: (٧٤٠٥).

(٣) سنن ابن ماجه: (٤١١٢). وانظر صحيح الجامع: (١٦٠٩).

المشركين، أو كان مجالس اللهو والكذب والمسرحيات والأفلام والفيديو وغير ذلك من مجالس الشياطين.

* وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [المؤمنون:٣]، والإعراض: هو تجافي القلب وكراهيته لهذه المجالس، ومجانبته لأهلها، فلا ينبغي حضور هذه المجالس ولا قربها؛ تنزهًا عن مخالطة الشر وأهله، ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود:١١٣]، وصيانة لدينه عما يشينه؛ لأن مشاهدة الباطل فيه شركة، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾ [الكهف:٢٨].

* وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ۝١٩﴾ [الحشر:١٩].

* وقال ﷻ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦﴾ [طه:١٢٤ - ١٢٦].

* وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦﴾ [طه:١٥ - ١٦].

* وقال ﷻ في المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢﴾ [النساء:١٤٢].

* وقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) ﴾ [المنافقون:٩].

فينبغي الاشتغال بمجالس الذكر، ومن لازم ذلك الإعراض عن مجالس اللهو، وهذا على نقيض ما يذهب إليه أتباع الشياطين ممن يقولون: ساعة لقلبك وساعة لربك، وَفِي الحقيقة هي ساعة لربك، ولا تكون خالصة لله، وساعة لشيطانك، وهذه شركة في تقسيم الوقت، بل إنّ المسلم يمتثل ما قاله النبي عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) ﴾ [الأنعام:١٦٢]، وهذه التقسيمات ما أنزل الله بها من سلطان، وبعض الناس يأتون بأشياء تخالف ما قد أحكمه الله ﷻ، فبدلًا من أن يستقيموا على منهج الله ﷻ فإنهم يقسمون أعمارهم إلى قسمين: حظ للشيطان، ويزعمون أن الحظ الآخر لله ﷻ، وما أمرهم إلا كما قال الله ﷻ: ﴿ فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) ﴾ [الأنعام:١٣٦].

فتقسيم مُلك السموات والأرض إنما هو لله تعالى قال الله ﷻ: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ ﴾ [آل عمران:١٨٩]، وهؤلاء عباد الله ﷻ يملكهم ويملك نواصيهم.

* **فالمقصود أن هذا التقسيم**: ساعة لربك، وساعة لقلبك، مما ينافي مقاصد الشريعة، ويمكن أن يضاف إليها: لقلبك المريض، فلا يقول مثل هذا

الكلام إلّا مريض القلب، وأما المسلم فإنه يطيع الله ﷻ في كل أحواله، ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣].

فهذه المجالس نحن مأمورون بالإعراض عنها كما قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [المؤمنون:٣]، وهذه صفة: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون:١١] أي: أنهم إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وقال ﷻ: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس:٤١].

الذكر كان سببًا في نجاة أحد المسلمين:

قال ابن كثير: وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: جَاءَ مَالِكٌ الْأَشْجَعِيُّ إِلَى رسول الله ﷺ فقال لَهُ أُسِرَ ابْنِي عَوْفٌ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَرْسِلْ إِلَيْهِ أن رسول الله ﷺ يأمر أَنْ تُكْثِرَ مِنْ قَوْلِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**» وَكَانُوا قَدْ شَدُّوهُ بِالْقِدِّ فَسَقَطَ الْقِدُّ عَنْهُ، فَخَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِنَاقَةٍ لَهُمْ فَرَكِبَهَا وَأَقْبَلَ، فَإِذَا بِسَرْحِ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ شَدُّوهُ فَصَاحَ بِهِمْ، فَاتَّبَعَ أَوَّلُهَا آخِرَهَا فَلَمْ يَفْجَأْ أَبَوَيْهِ إِلَّا وَهُوَ يُنَادِي بِالْبَابِ فَقَالَ أَبُوهُ: عَوْفٌ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، فَقَالَتْ: أمه: وا سوأتاه! وَعَوْفٌ كَيْفَ يَقْدَمُ لِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْقِدِّ، فَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَالْخَادِمَ فَإِذَا عَوْفٌ قَدْ مَلَأَ الْفِنَاءَ إِبِلًا، فَقَصَّ عَلَى أَبِيهِ أَمْرَهُ وَأَمْرَ الْإِبِلِ فَقَالَ أَبُوهُ: قِفَا حَتَّى آتِيَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَسْأَلُهُ عَنْهَا، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِخَبَرِ عَوْفٍ وَخَبَرِ الْإِبِلِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اصْنَعْ بِهَا مَا أَحْبَبْتَ وَمَا كُنْتَ صَانِعًا**

بِمَالِكَ» وَنَزَلَ: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ.(١)

التـرهيب من الغفلة عن ذكر الله:

قد أمر الله ﷻ بذكره، ونهى عن ضده من الغفلة والنسيان كما قال سبحانه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [الأعراف:٢٠٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩﴾ [الحشر:١٩].

فالذكر هو التخلص من الغفلة والنسيان، والفرق بين الغفلة والنسيان: أن الغفلة ترك باختيار الغافل، والنسيان ترك بغير اختياره، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [الأعراف:٢٠٥]. فلم يقل: ولا تكن من الناسين؛ لأن النسيان لا يدخل تحت التكليف فلا ينهى عنه.(٢)

* وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ تِرَةٌ**(٣)**، وَمَنْ اضْطَجَعَ مَضْجَعًا، لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهِ**

---

(١) بحر العلوم: (٣/ ٤٦١) و تفسير القرطبي: (١٨/ ١٦٠-١٦١) وتفسير ابن كثير: (٨/ ١٧٠).

(٢) موسوعة فقه القلوب: (٢/ ١٨٦٩).

(٣) الترة هي النقص، قال الله ﷻ في القرآن: ﴿وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٥﴾ [محمد:٣٥] ⇦

كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ تِرَةٌ».(١)

فمن السنة أن الإنسان إذا كان في مجلس؛ ألّا يخلو هذا المجلس من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، والصلاة والسلام على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد جاء في بعض الأحاديث الوعيد على ترك ذلك منها قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ إلا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً وَمَا مَشَى أَحَدٌ مَمْشًى لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ فِيهِ إلا كَانَ عَلَيْهِ تِرَةً وَمَا أَوَى أَحَدٌ إِلَى فِرَاشِهِ وَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ فِيهِ إلا كَانَ عَلَيْهِ ترة**».(٢) ومعنى ذلك أنه يستحب أن تذكر الله في الطريق وأنت تمشي.

* وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهِ، إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً**».(٣)

أي: كأنهم كانوا مجتمعين على جيفة حمار منتنة، ويكون عليهم ذلك المجلس حسرة يوم القيامة.

* وصحَّ عنه أيضًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**لَيْسَ يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الْجَنَّةِ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا سَاعَةً مَرَّتْ بِهِمْ لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهَا**»(٤)، فهذا هو الشيء الوحيد الذي

⇦

أي: لن ينقصكم، ومعنى الترة في هذا الحديث: التبعة، وترت الرجل ترة أي: أنقصته نقصًا.

(١) سنن أبي داود (٤٨٥٦)، صحيح الجامع: (٦٤٧٧).

(٢) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان: (٢٣٢١). وانظر السلسلة الصحيحة: (٧٨).

(٣) سنن أبي داود (٤/ ٢٦٤).

(٤) مسند الشاميين للطبراني: (٤٤٦) وانظر: صحيح الجامع: (٥٤٤٦).

يَتحسر عليه أهل الجنة؛ أنهم بعد أن يدخلوا الجنة يتحسرون على أي ساعة أو لحظة مرت بهم في الدنيا ولم يعمروها بذكر الله ﷻ.

من فضائل الذاكرين الله كثيرًا:

* عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَدَّادٍ، أَنَّ نَفَرًا مِنْ بَنِي عُذْرَةَ ثَلَاثَةً، أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ فَأَسْلَمُوا، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ يَكْفِينِيهِمْ؟**» قَالَ طَلْحَةُ: أَنَا. قَالَ: فَكَانُوا عِنْدَ طَلْحَةَ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْثًا فَخَرَجَ فيه أَحَدُهُمْ فَاسْتُشْهِدَ، قَالَ: ثُمَّ بَعَثَ بَعْثًا فَخَرَجَ فِيهِ آخَرُ فَاسْتُشْهِدَ، قَالَ: ثُمَّ مَاتَ الثَّالِثُ عَلَى فِرَاشِهِ، قَالَ طَلْحَةُ: فَرَأَيْتُ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ الَّذِينَ كَانُوا عِنْدِي فِي الْجَنَّةِ[1]، فَرَأَيْتُ الْمَيِّتَ عَلَى فِرَاشِهِ أَمَامَهُمْ، وَرَأَيْتُ الَّذِي اسْتُشْهِدَ أَخِيرًا يَلِيهِ، وَرَأَيْتُ الَّذِي اسْتُشْهِدَ أَوَّلَهُمْ آخِرَهُمْ، قَالَ: فَدَخَلَنِي مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَمَا أَنْكَرْتَ مِنْ ذَلِكَ لَيْسَ أَحَدٌ أَفْضَلَ عِنْدَ اللهِ مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَمَّرُ فِي الْإِسْلَامِ لِتَسْبِيحِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَتَهْلِيلِهِ**».[2]

فتعجب النبي ﷺ من فعل طلحة كيف يتعجب لهذا مع أنه أمر طبيعي، فالمؤمن إذا مد له في أجله بعد أخيه فعمر أوقاته بالتسبيح والذكر والتكبير والتهليل، فهذه ترفع درجاته حتى ربما ارتفع فوق مقام من سبقه بالشهادة.

* ومما ثبت أيضًا عن النبي ﷺ في فضل ذكر الله ﷻ في الخلوة ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا**

---

(١) أي: رآهم في منامه في الجنة.

(٢) مسند أحمد: (١٤٤٦) وانظر: صحيح الجامع: (٥٤٤٦).

ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»[1]، فهذا يدل على فضل ذكر الله ﷻ في الخلوة حيث لا يراه الناس، فإذا اجتمع له ذكر الله في الخلوة مع البكاء من خشية الله ﷻ حتى تفيض عيناه فإنه يكون يوم القيامة في ظل الله ﷻ يوم لا ظل إلا ظله.

---

(١) صحيح مسلم: (١٠٣١).

الموعظة الحادية عشرة

البداية من العبد
و التمام من اللّه

البداية من العبد والتمام من الله

يقول صاحب العظمة والكبرياء: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:٢٦]، وقال أعزُّ من قال: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصافات:٩٩].

إن المتأمل في هاتين الآيتين يلحظ أمرًا، وهو أن البداية كانت من العبد، والتمام جاء من الله بعد البداية التي بدأ بها العبد، وحتى يزداد الأمر وضوحًا نقول: إن الخليل إبراهيم يقول: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العنكبوت:٢٦]، ويقول: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي] [الصافات:٩٩]، وبعد هاتين المقولتين جاء العطاء والمدد من الله كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: ٢٦- ٢٧]، ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: ٩٩ - ١٠١]. فوهب الله له الذرية، وجعل النبوة والكتاب في ذريته، وآتاه أجره في الدنيا، وَفِي الآخرة هو من الصالحين، فكل هذه العطايا والمِنَنِ والمِنَحِ جاءت بعد البداية منه عليه السلام.

وبعد هذا التمهيد مستعينًا بالله أقول: إن الله يحكم هذا الكون بسنن ربانية غاية في الدقة والثبات:

* **الأولى:** قال تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣].

* **وأما الثانية:** فان الإنسان خُلِقَ مبتلىً في هذه الدنيا ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك:٢].

* **والثالثة:** أن الله العزيز الكريم خلق الخلق وهو أعلم بهم، قال سبحانه ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم:٣٢]، وقال سبحانه: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء:١٧].

البداية من العبد:

وقد أراد الله ابتلاء وإصلاحًا، أن يبتلى عباده بتكليف هو غاية في الخطورة وهو أنه - سبحانه - أناط بهم البداية، **فأحال عليهم بداية الشروع إليه والقصد نحوه**، قال - سبحانه - في الحديث القدسي: «**يَا ابْنَ آدَمَ، قُمْ إِلَيَّ أَمْشِ إِلَيْكَ**»(١)، وهذا رعاية لجلال العزة وحماية لجناب العظمة: أن يكلف العبد أن يأتي سيده ثم يكون من السيد القبول والإكرام. وهذا المعنى هو المراد: **عليك البداية وعليه التمام.**

---

(١) مسند أحمد: (٢٥/ ٢٧٣). صحيح الجامع: (٤٣٤٠).

* قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ ﴾ [غافر:٦٠]، وقال - سبحانه وتعالى - ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ ﴾ [البقرة:١٨٦].

* وقال تعالى في الحديث القدسي: «**يَا ابْنَ آدَمَ، قُمْ إِلَيَّ أَمْشِ إِلَيْكَ، وَامْشِ إِلَيَّ أُهَرْوِلْ إِلَيْكَ**».(١)

* وقال الله أيضًا: «**إِذَا تَقَرَّبَ العَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**».(٢)

إن البداية يجب أن تكون من العبد، والله يبارك ويتم، فهو سبحانه الكريم صاحب العطاء.

إن كثيرًا من الناس يشكو الفتور وقسوة القلب ثم هو ينام عن الطاعة وعن العمل، مع أنه من الواجب عليه أن يقوم بعمل على الفور يتحرك به ليرفع الله عنه البلاء، ويصلح الله قلبه.

الرسول يعرِّفنا بأهمية العمل:

إن القضية تحتاج إلى عمل والدليل ما ورد عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي بَقِيعِ الغَرْقَدِ فِي جَنَازَةٍ، فَقَالَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ**»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا نَتَّكِلُ؟ فَقَالَ:

---

(١) مسند أحمد: (٢٥/ ٢٧٣). صحيح الجامع: (٤٣٤٠).
(٢) صحيح البخاري (٧٥٣٦).

«اعْمَلُــوا فَكُــلٌّ مُيَسَّــرٌ» ثُــمَّ قَــرَأَ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [الليل:٥، ٦] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [الليل:١٠](1).. «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ» هذا هو المطلوب فلابد من العمل.

إن بعض الناس يعيش هذه الدنيا دون حرص على الرقيِّ بنفسه وعقله وقلبه، فيعيش الحياة كيفما اتفق، وحاله كحال الذي يدخل إلى الصلاة ولا يدري كم صلى، ولا كيف صلَّى، لأنه في الأصل لا يعبأ بالخشوع، لأن كل ما يشغله أنه أدَّى الصلاة فقط.. وكذلك المهم عنده أن يعيش وفقط!! والأمر في حقيقته ليس كذلك.

مواقف تؤكد أن البداية من العبد:

- **نبي الله أيوب:**

* قال أعزُّ من قال: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٣- ٨٤]، أيوب ابتلاه الله ولم يكشف الله عنه الضر إلا لما جاءت البداية منه فقال: ﴿ مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٣]، ولمَّا تحقَّق الشرط جاء الفرج والخير فقال: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٤].

---

(١) صحيح البخاري: (٤٩٤٥).

● **يونس** عليه السلام:

* قال أعزُّ من قال: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ ﴾ [الأنبياء: ٨٧- ٨٨]، خرج نبي الله يونس دون إذن من الله، فابتلاه الله ﴿ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢ ﴾ [الصافات:١٤٢]، وهنا جاءت الشدة وجاء الضيق، ولكن جاءت البداية منه عليه السلام: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ ﴾ [الأنبياء:٨٧]، ولمَّا تحقَّق الشرط جاء الفرج والخير فقال: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٨].

* وقال عن يونس: ﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤ ۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦ ﴾ [الصافات: ١٤٣ - ١٤٦]، مع أنه نبيٌّ كريم، لأنه لا أحد عزيز على الله، مهما بلغت منزلته إن لم يأوِ الله.. فأْوُوا إِلَى الله ولا تُعرِضُوا.

● **زكريا** عليه السلام:

* قال أعزُّ من قال: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا

خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٩- ٩٠]، وَفِي قصة زكريا تتكرر السنة الإلهية، جاءت البداية من العبد ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٩]، ولمَّا تحقَّق الشرط جاء الفرج والخير فقال: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء:٩٠].

- **قصة عُكَّاشَة بن محصن:**

وإذا تأملنا قصة عكاشة بن محصن في حديث السبعين ألفا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، قِيلَ: انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلأُ الأُفُقَ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ هَا هُنَا وَهَا هُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ، فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلأَ الأُفُقَ، قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَيَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ**» ثُمَّ دَخَلَ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ، فَأَفَاضَ القَوْمُ، وَقَالُوا: نَحْنُ الَّذِينَ آمَنَّا بِاللهِ وَاتَّبَعْنَا رَسُولَهُ، فَنَحْنُ هُمْ، أَوْ أَوْلَادُنَا الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ، فَإِنَّا وُلِدْنَا فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَخَرَجَ، فَقَالَ: «**هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**» فَقَالَ عُكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ: أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**» فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا؟ قَالَ: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**».(١)

---

(١) صحيح البخاري: (٥٧٠٥).

- إن الأمر يوحي ظاهره أن عُكَّاشَة ﵁ فاز بالجنة بغير حساب أو بمجرد كلمة، أو بمجرد طلبٍ منه لرسول الله ﷺ.

ولكن إذا سبرنا غور القضية ووقفنا على حقيقة الأمر، سنجد أن عُكَّاشَة سار إلى الله طويلًا وعمل كثيرًا حتى بلغ هذه المنزلة.

فلما بلغها أوحى الله إلى رسوله ﷺ بقبول عكاشة في ركب السبعين المفردين، وأجرى الملك الحكيم الذي يعلم السر وأخفى على لسان رسوله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى هذا الكلام، ثم في الوقت المحدد أنطق الله عكاشةَ وهذا دليل ترقيه لها فأعطيها.. هذه هي الحقيقة.. لأن عكاشة لم يتحصل على الجنة دون تعب، فالله عليم، وهو سبحانه يعلم أن عكاشة تعب في السير إليه، فكان أحق بها وأهلها.

لذلك لمَّا فُتِحَ البابُ وطلب آخرون ما طلبه عُكَّاشَة مُنِعُوا، ولا يظلم ربك أحدًا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤ ﴾ [يونس:٤٤].

إذن لابد أن تكون البداية من العبد، ولْنعلمْ أن الله إذا أراد عبده لأمر هيَّأَه له وأجراه على لسانه فهو سبحانه الذي ينطق لسان عبده، قال صاحب العظمة والكبرياء: ﴿ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾ [فصلت:٢١].

ولذلك قال أعزُّ من قال: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧ ﴾ [البقرة:٣٧].

فالله تعالى هو الذي أجرى على لسان آدم كلماتِ التوبة وامتنَّ بقبولها،

فكان الفضل منه أولًا وآخرًا، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [آل عمران:٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحديد:٢٩].

• قصة السحرة:

إن الذي ينظر في قصة السحرة، سحرة فرعون مع موسى، هؤلاء الذين آمنوا في لحظة وتعرضوا لأقصى أنواع التهديد: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه:٧١]، فثبتوا وقالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾ [طه:٧٢]!!

إن الناظر إلى هؤلاء يظن أنهم حصلوا على الإيمان في لحظة، ولم ينظر لقدر الله كيف عمل في هؤلاء السحرة سنين ليعدهم لتلك اللحظة.

لم وقع الاختيار على هؤلاء السحرة دون غيرهم؟

ولم وجدوا في هذا المكان في هذه اللحظات؟!

والجواب: لأنهم سعوا.. وكانت البداية منهم ولما ظهر الحق لهم بعد أن كانوا يبحثون عنه تركوا كل شيء وارتضوا بالموت قائلين: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه:٧٣].

• قصة الثلاثة أصحاب الغار:

* عَنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «**انْطَلَقَ**

ثَلَاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوْا المَبِيتَ إِلَى غَارٍ، فَدَخَلُوهُ فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ، فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا، وَلَا مَالًا فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا، فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا، فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا، فَلَبِثْتُ وَالقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ، أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا، فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ»، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَقَالَ الآخَرُ: اللهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ، كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِي، فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا، قَالَتْ: لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ مِنْهَا»، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَقَالَ الثَّالِثُ: اللهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ، فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالبَقَرِ وَالغَنَمِ وَالرَّقِيقِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ لَا تَسْتَهْزِئُ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ، فَاسْتَاقَهُ، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ

الصَّخْرَةُ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ».(١)

وَفِي قصة الثلاثة أصحاب الغار، لما نزلت الصخرة التي أغلقت عليهم باب الغار، توسل الأول بعمل صالح فانفرجت الصخرة شيئًا يسيرًا حتى رأوا النور، فلما توسل الثاني انفرجت أكثر حتى رأوا السماء، فلما توسل الثالث انفرجت الصخرة حتى خرجوا يمشون، فعلى قدر عطائك تُعطى، وعلى قدر سعيك تُمنَح.

* عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ، قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي المَسْجِدِ فَأَقْبَلَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَذَهَبَ وَاحِدٌ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا، فَرَأَى فُرْجَةً فِي الحَلْقَةِ، فَجَلَسَ وَأَمَّا الآخَرُ فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: **«أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ: فَأَوَى إِلَى اللهِ، فَآوَاهُ اللهُ، وَأَمَّا الآخَرُ: فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الآخَرُ: فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ»**(٢) فان أويت إلى الله آواك، وان أعرضت عنه أعرض عنك وطردك وألقاك.

- إن قضية البداية تحتاج إلى وقفة كبيرة، لأن الإيمان لا يأتي طفرة وإنما له مقدمات وتمهيدات ومعلوم أن نقطة البداية هي الأشق، وانطلاقة البداية هي الأصعب، وهذا هو عين الابتلاء من الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد:٢١] فسعادته في صدق العزيمة، فمن صدقت عزيمته فعليه أن يصدق في الفعل، وأن يستفرغ الوسع وأن يبذل

(١) صحيح البخاري (٢٢٧٢).
(٢) صحيح البخاري (٤٧٤).

الجهد.

البداية من العبد:

إذن فالبداية منك أيها الإنسان.. لا تلم أحدًا على تقصيرك.. على مستواك.. على عدم نجاحك.. فالإمداد على قدر الاستعداد، فمن يرد شيئًا ويصمم على بلوغه يصل إليه.. لا، لا، بل يوصله الله إليه ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء:١٨].

ويؤكد على هذا المعني قوله ﷺ: «..**وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ**».. والمتأمل للحديث من أوله يجده يدور في نفس المعنى: «**إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، مَنْ يَتَحَرَّى الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ..**».(١)

فالتاء هنا للطلب أي أن الذي يريد العلم عليه أن يطلب ذلك، ويعزم عليه فُيعلِّمه الله، والذي يريد الحلم عليه أن يعزم عزيمة صادقة على بلوغه، فيرزقه الله الحلم، وهكذا في كل الأمور مثل العفة والصبر.. ففي الحديث: «**وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ..**».(٢)

فلو أراد (متخاصمان) الصلح بصدق وعزما على ذلك، وفَّقَ الله بينهما

(١) المعجم الأوسط: (٢٦٦٣)، صحيح الجامع: (٢٣٢٨)، والسلسلة الصحيحة: (٣٤٢).

(٢) البخاري: (٦٤٧٠)، مسلم: (١٠٥٣).

كما قال أعزُّ من قال: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ [النساء:٣٥].

ومَن يُرد الهداية بصدق يهده الله قال تعالى: ﴿فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ١٤﴾ [الجن:١٤].

والذي لا يريد الهداية لا يهديه الله كما قال سبحانه: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُ﴾ [التغابن:٦]، وقال عزَّ من قائل: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾ [آل عمران:٨٦].

والذي يريد أن يدعو الناس إلى الله ويحببهم فيه، عليه أن يعزم عزيمة صادقة ويشتد حرصه على ذلك.. جاء في الأثر: حَبِّبْنِي إِلَى خَلْقِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أُحَبِّبُكَ إِلَى عِبَادِكَ؟ قَالَ: تُذَكِّرُهُمْ آلَائِي وَنَعْمَائِي فَإِنَّهُمْ لَا يَذْكُرُونَ مِنِّي إِلَّا كُلَّ حَسَنَةٍ.(١)

والذي استدان مبلغًا من المال، وهو في قرارة نفسه ينوي بصدق ويعزم على أدائه، رزقه الله ما يسد به دَيْنَه، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ كَانَ عَلَيْهِ دَيْنٌ يَنْوِي أَدَاءَهُ كَانَ مَعَهُ مِنَ اللهِ عَوْنٌ، وسَبَّبَ اللهُ لَهُ رِزْقًا**».(٢)

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: (٦/ ٣٢).

(٢) المعجم الأوسط: (٧٦٠٨)، السلسلة الصحيحة: (٢٨٢٢).

الموعظة الثانية عشرة

النَّوايَا الحَسَنة

والنَّوايَا السَّيِّئَة

النوايا الحسنة والنوايا السيئة

قال أعز من قال: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الروم:٣٩].

- إن الحدَّ الفارق بين الشر والخير، والرياء والإخلاص هو النية، لأن النية هي الإرادة التي توضح مسار القلب في العمل.

ولفظة النية لم تأت في القرآن صراحة ولكن يعبر عنها بلفظة الإرادة، كما يقول الإمام ابن رجب: وقد جاء ذكرُها كثيرًا في كتابِ الله ﷻ بغيرِ لفظِ النِّيَّةِ.

وإنَّما فرَّقَ مَنْ فَرَّقَ بين النيةِ وبينَ الإرادة والقصدِ ونحوهما؛ لظنِّهم اختصاصَ النية بالمعنى الأوَّلِ الذي يذكُرُهُ الفقهاءُ، فمنهم من قال: النيةُ تختصُّ بفعلِ النَّاوي، والإرادةُ لا تختصُّ بذلك، كما يريدُ الإنسانُ مِنَ اللهِ أن يغفرَ له، ولا ينوي ذلك.

وقد ذكرنا أنَّ النية في كلام النَّبيِّ ﷺ وسلفِ الأمَّةِ إنَّما يُرادُ بها هذا المعنى...، فهي حينئذٍ بمعنى الإرادة، ولذلك يُعبَّرُ عنها بلفظِ الإرادة في القرآن كثيرًا، كما في قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ﴾ [آل عمران:١٥٢]، وقوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ

ٱلْأَخِرَةَ﴾ [الأنفال:٦٧].

* وقولـــه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى:٢٠].

* وقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٨- ١٩].

* وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥- ١٦].

* وقولـــه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ﴾ [الأنعام:٥٢].

* وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨].

* وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الروم: ٣٨- ٣٩].

* وقد يُعَبَّرُ عنها في القرآن بلفظ: (الابتغاء)، كما في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الليل:٢٠].

* وقوله: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٦٥].

* وقوله: ﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٧٢].

* وقوله: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [النساء:١١٤].(١)

ومن هنا ننطلق لنتحدث عن الإرادة: (النية).

أولاً: النوايا الحسنة:

إن الإرادة أو النية هي المؤشر الذي يوضح منبع الخطوات، قال أعزُّ من قال: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج:٣٧].
أي: لن يصل إلى الله- تعالى- لحم هذه الأنعام ودماؤها، من حيث هي لحوم ودماء، ولكن الذي يصل إليه- سبحانه- ويثيبكم عليه، هو تقواكم ومراقبتكم له- سبحانه- وخوفكم منه، واستقامتكم على أمره وإخلاصكم العبادة له.

(١) جامع العلوم والحكم: (١/ ٦٤/ ٦٥).

✍ **قالوا**: وَفِي هذا إشارة إلى قبح ما كان يفعله المشركون، من تقطيعهم للحوم الأنعام، ونشرها حول الكعبة، وتلطيخها بالدماء، وتحذير للمسلمين من أن يفعلوا فعل هؤلاء الجهلاء، إذ رضا الله- تعالى- لا ينال بذلك، وإنما ينال بتقوى القلوب.(١)

- إن المسلم عندما يذبح ذبيحة أو أضحية لن تحمل الملائكة منها دمًا أو لحمًا، لأن الله لا يناله شيء من ذلك، ومن هنا كان الفيصل في القلب وإخلاصه في نيته، لأن محل نظر الله إلى ذلك القلب الذي ضحى. فبأي نية كانت نبضاته؟! هل كانت بالرياء أم بالإخلاص الذي وصفته الآية بالتقوى؟ ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ ﴾ [الحج:٣٧].

- **هل ثناء الناس ومدحهم يجعل العمل مقبولًا:**

لو قام شخص بعمل خيري وبعد انتهاء العمل جاء الناس ووضعوا لوحة شكر على ذلك العمل باسم من قام به، فهل لهذه اللوحة أثر في الإخلاص وقبول العمل؟

إن تلك اللوحة لن تقدم ولن تؤخر في العمل شيئًا، لأن إطار قبول العمل في النية قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الروم:٣٩].

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: (٩/ ٣١٤).

● **الزكاة نوعان:**

١ - **زكاة النفس:**

وزكاة النفس تكون بترك المعاصي، وحملها على الأعمال الصالحة كما قال رب العزة: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأعلى: ١٤-١٥]، وقال سبحانه: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

٢ - **زكاة المال:**

وزكاة المال تكون بتطهيره من الشبهات، وبإخراج النصاب المفروض كما قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة:٤٣]، وقال تعالى: ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأنعام:١٤١].

والأهم عند الإخراج للزكاة وغيرها: هذه الجزئية التي قال الله فيها: ﴿ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ﴾ [الروم:٣٩].

● **العمل المقبول ما أريد به وجه الله:**

ماذا كانت النية في الزكاة؟ هل كانت استجابةً لأمر الله وابتغاء مرضاته؟، أم ليقال: إن فلانًا يزكي، وهو جواد ومنفق؟

إن الله لا يتقبل العمل إلا من المخلصين المتقين، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المائدة:٢٧].

✍ **وقيل**: أوصى الله تعالى إلى داود ﷺ: «ليس كل من صلى قبلت صلاته، ولا من عبد الله قبلت عبادته، يا داود، كم من ركعة لا تساوي عندي شيئًا، لأني نظرت إلى قلب صاحبها فوجدته إن برزت له امرأة متعرضة أجابها، وإن عامله إنسان في تجارة خانه. يا داود، طهر ثيابك الباطنة، لأن الظاهر لا ينفعك عندي، وأني بكل شيء محيط».(١)

ومصداق ذلك قوله عزَّ مِنْ قَائِل: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان: ٩- ١٠].

- ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٩] بيان لشدة إخلاصهم، ولطهارة نفوسهم. وهو مقول لقول محذوف أي: يقدمون الطعام لهؤلاء المحتاجين مع حبهم لهذا الطعام، ومع حاجتهم إليه.. ثم يقولون لهم بلسان الحال أو المقال: إنما نطعمكم ابتغاء وجه الله- تعالى- وطلبا لمثوبته ورحمته.

- ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان:٩] أي: لا نريد منكم جزاء على ما قدمناه لكم، ولا نريد منكم شكرًا على ما فعلناه، فإننا لا نلتمس ذلك إلا من الله- تعالى- خالقنا وخالقكم.(٢)

- **إن المخلص لا يتأثر بأي ردة فعل:**

إن العبد إذا أخلص نيته في العمل، وكان مبتغيًا رضا الله فإنه لن يتأثر بأي

---

(١) الزهر الفائح: (ص: ٢٤).

(٢) التفسير الوسيط لطنطاوي: (١٥/ ٢٢٠).

ردة فعل من الناس، لأنه لا يرى الناس أمامه، إنما يرى ربه بقلبه وإخلاصه في ذلك العمل. وخير مثال على ذلك سيف الله خالد بن الوليد.

- **خالد بن الوليد وموقفه من عزل عمر له:**

برزت عظمة خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه، هذا الرجل الذي كان في أعظم درجات الملك، وَفِي أعلى درجات التفوق والانتصار، فقد كان جيش المسلمين في الشام قبل أن يأتي خالد بن الوليد في أزمة خطيرة، ولم يستطع أن يحقق إلا نصرًا يسيرًا جدًا، وظل شهورًا لا يستطيع أن ينتصر، بينما سيدنا خالد كان في العراق له انتصاراته الأولى والثانية والثالثة، ففكر سيدنا أبو بكر بنقل خالد من العراق لينقذ جيوش الشام.

وعندما أتى خالد من العراق إلى الشام، وهو في طريقه إلى جيش الشام حقق خمسة انتصارات في الشام، وهذا قبل أن يقابل جيش الشام، وبعد أن قابل جيش الشام كانت موقعة اليرموك الخالدة، أي: أن سيدنا خالدًا كان يعمل عملًا لا يستطيع أحد تصوره حتى الناس الذين يعيشون معه، سواء من الصحابة أو غيرهم.

وهنا سيدنا أبو بكر يقول: أعجزت النساء أن يلدن مثل خالد؟

فانظروا إلى خالد وهو في قمة هذا الانتصار يعزل، فماذا كان ردة فعله؟

إن خالدًا في كل هذا الطريق وَفِي كل هذه الانتصارات لم يقل كلمة (أنا) مرة واحدة، بل كان دائمًا ينسب الأمر إلى الله عز وجل.

وتأمل هذا الموقف في موقعة اليرموك لأحد الجنود المسلمين، إذ يقول

بعد أن نظر إلى أعداد الروم الهائلة: ما أكثر الروم وأقل المسلمين، فسمعه خالد بن الوليد فقال له في ثقة شديدة، ثقة الرجل الواثق من ربه سبحانه وتعالى: اصمت أيها الرجل، بل ما أقل الروم وما أكثر المسلمين، إنما تكثر الجنود بنصر الله ﷻ، وتقل الجنود بالخذلان لا بعدد الرجال، ووالله لوددت أن الأشقر أي: فرسه براء من توجعه وأنهم أُضعفوا في العدد.

أي: وددت أن يكون فرسي سليمًا والرومان أربعمائة ألف.

فخالد بن الوليد عندما أتاه قرار العزل سلّم الراية بدون تردد إلى أبي عبيدة بن الجراح، وقال: ما عليّ أن أقاتل في سبيل الله قائدًا أم جنديًا.

أي: ما دام أن ذلك كله في سبيل الله فلا فرق بين أن أكون قائدًا أم جنديًا؛ لأنه في النهاية كله في سبيل الله، والغاية هي إرضاء الله ﷻ.

ثم قام خالد وخطب في الجيش وقال: بعث عليكم أمين هذه الأمة، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح**» ولم يقل: بماذا فُضِّل عليّ؟ ولم يقل: ما الذي فعله أبو عبيدة قبل أن آتي من العراق؟ ولم يخبر أنه قد ظُلم بهذا القرار، مع أن كل الجيش كان يحبه حبًا لا يوصف، لكن لو كان قال هذا الكلام لأحدث فتنة، لكنه لا يريد ذلك، ولماذا الفتنة؟ هل من أجل الدنيا، هو يعرف قيمة الدنيا، لذا فهي لا تساوي عنده شيئًا.

لقد خاض رضي الله عنه معارك كثيرة جدًا، حتى قيل: إنها قد تجاوزت المائة، وانتصر فيها جميعًا دون هزيمة واحدة، وغنم غنائم شتى، وربح أموالًا عظيمة، ولم يترك بعد موته إلا فرسًا وسلاحًا وغلامًا فقط من كل هذه الدنيا، بل وأمر بإرسالها إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه، وقال: اجعلوها عُدة

في سبيل الله، لكن من يستطيع أن يحمل سيفه بعد موته؟ من يستطيع أن يركب خيله؟ أين ذهبت أمواله وغنائمه؟ لقد أنفقها جميعها في سبيل الله، فقد كان جوادًا عظيم الجود، كريمًا واسع الكرم، يُعطي عطاء من لا يخشى الفقر، ولا عجب فهو تلميذ نجيب لرسول الله ﷺ.

ما هو أكثر ما تمتع به خالد بن الوليد رضي الله عنه في حياته؟ قال خالد بن الوليد: مَا لَيْلَةٌ تُهْدَى إِلَيَّ فِيهَا عَرُوسٌ، أَوْ أُبَشَّرُ فِيهَا بِغُلَامٍ، بِأَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ لَيْلَةٍ شَدِيدَةِ الْجَلِيدِ فِي سَرِيَّةٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أُصَبِّحُ بِهِمُ الْعَدُوَّ..

فهذه هي متعته في الدنيا، وليست السلطة ولا الإمارة ولا الأموال ولا النساء، بل الجهاد في سبيل الله، وليس أي جهاد، بل الجهاد الصعب الخطير في البرد والليل والجيش القليل والعدو الكثير، فهذا هو خالد بن الوليد وهذه متعته.

ولما حَضَرَتْ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ الْوَفَاةُ قَالَ: لَقَدْ طَلَبْتُ الْقَتْلَ فِي مَظَانِّهِ فَلَمْ يُقدَّر لِي إِلَّا أَنْ أَمُوتَ عَلَى فِرَاشِي.

وَمَا مِنْ عملي شيء أَرْجَى عِنْدِي بَعْدَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مِنْ لَيْلَةٍ بِتُّهَا وَأَنَا مُتَتَرِّسٌ وَالسَّمَاءُ تَهُلُّنِي تمطر إلى الصُّبْحِ، حَتَّى نُغِيرَ عَلَى الْكُفَّارِ.

ثم قال كلمته المشهورة وهو يبكي: لَقَدْ حَضَرْتُ كَذَا وَكَذَا زحفًا، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة سيف، أَوْ طَعْنَةٌ بِرُمْحٍ، أَوْ رَمْيَةٌ بِسَهْمٍ، وَهَا أَنَا أَمُوتُ عَلَى فِرَاشِي حَتْفَ أَنْفِي كَمَا يَمُوتُ الْبَعِيرُ، فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبَنَاءِ.(١)

---

(١) البداية والنهاية: (٧/ ١١٤).

- **خلَّد الله ذكر امرأت عمران بنيتها الصالحة:**

إن الله جعل للنساء أرحامًا حتى ينجبن الذرية بأمر الله، ومن النساء من تلد لا لشيء إلا لفطرة الأمومة، ولتكون لها مكانة لدى زوجها، ومن النساء من تبحث عن الذرية لأنها تحمل هم رضا الله، وهم الدعوة إلى دينه، ومن هؤلاء هذه المرأة الكريمة التي خَلَّد الله ذكرها فقال سبحانه: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٥ - ٣٧].

فانظر أيها القارئ الكريم: كيف يصبح العمل عظيمًا بعظم النوايا، إن امرأة عمران مثلها مثل النساء تحمل وتلد، ولكنها نذرت مَا فِي بَطْنِها مُحَرَّرًا لله، وبهذه النية رفع الله قدرها وأعطاها السيدة مريم عليها السلام، وتوالت عطايا الله بهذه النية فأنجبت السيدة مريم عليها السلام سيدنا عيسى عليه السلام بمعجزة ربانية.

- كم أرجو أن تعقد كلُّ امرأةٍ نية، أن تنجب للأمة عالمًا يجدد فيها أمر دينها.

- **الثواب الكبير يحصَّل بالنية الصالحة:**

* عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فَدَنَا

مِنَ المَدِينَةِ، فَقَالَ: «**إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: «**وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ العُذْرُ**».(١)

✍ **قال النووي**: في هذا الحديث فضيلة النية في الخير، وأن من نوى الغزو، وغيره من الطاعات فعرض له عذر منعه، حصل له ثواب نيته، وأنه كلما أكثر من التأسف على فوات ذلك وتمني كونه مع الغزاة ونحوهم كثر ثوابه. اهـ.

- وقد جاء عن الرسول فيمن كان يعمل شيئًا من الطاعة ثم حبسه عنه مرض أو غيره أنه يكتب له ما كان يعمل وهو صحيح، وكذلك من نام عن حزبه نومًا غالبًا كتب له أجر حزبه، وكان نومه صدقة عليه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٦﴾ ﴾ [التين:٦]، أي: غير مقطوع بزمانة أو كبر أو ضعف، ففي هذا أن الإنسان يبلغ بنيته أجر العامل إذا كان لا يستطيع العمل الذى ينويه.(٢)

ثانيًا: النوايا السيئة:

قال أعزُّ من قال: ﴿ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحج:٢٥]، في الآية تهديد لكل من يحاول ارتكاب شيء نهى الله عنه

(١) صحيح البخاري: (٤٤٢٣).
(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (٥/ ٤٥).

في هذا المسجد الحرام.

والإلحاد الميل. يقال: ألحد فلان في دين الله، أي: مال وحاد عنه.

وقد جاء هذا التهديد في أقصى درجاته لأن القرآن توعد بالعذاب الأليم كل من ينوي ويريد الميل فيه عن دين الله، وإذا كان الأمر كذلك، فمن ينوي ويفعل يكون عقابه أشد، ومصيره أقبح.

ويدخل تحت هذا التهديد كل ميل عن الحق إلى الباطل، أو عن الخير إلى الشر كالاحتقار، والغش.(١)

✍ **ولذا قال ابن جرير بعد أن ساق الأقوال في ذلك**: وأولى الأقوال التي ذكرناها في تأويل ذلك بالصواب: القول الذي ذكرناه من أن المراد بالظلم في هذا الموضع، كل معصية لله، وذلك لأن الله عم بقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ [الحج:٢٥] ولم يخصص به ظلمًا دون ظلم في خبر ولا عقل، فهو على عمومه، فإذا كان ذلك كذلك فتأويل الكلام: ومن يرد في المسجد الحرام بأن يميل بظلم فيعصي الله فيه، نذقه يوم القيامة من عذاب موجع له.(٢)

- يا سبحان الله كما أن هناك نوايا حسنة يثاب العبد عليها بأجر تام، فإن هناك أيضًا نوايا سيئة تقضي على العمل مهما كان حجمه.

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: (٩/ ٣٠٠). بتصرف.

(٢) تفسير ابن جرير: (١٧/ ١٠٥)، التفسير الوسيط لطنطاوي: (٩/ ٣٠٠).

• **الرسول ﷺ يبين لنا خطر النية:**

* عَنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ قَـالَ: سَـمِعْتُ رَسُـولَ اللهِ ﷺ يَقُـولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّـاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَـا، قَـالَ: فَـمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْـتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَـالَ: فَـمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَـالَ: كَـذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيـلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِـي النَّـارِ، وَرَجُـلٌ وَسَّـعَ اللهُ عَلَيْـهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَـهُ فَعَرَفَهَـا، قَـالَ: فَـمَا عَمِلْـتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَـا لَـكَ، قَـالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُـمَّ أُمِـرَ بِـهِ فَسُـحِبَ عَلَـى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ**»(١).

إن الذين يريدون بقتالهم شيئًا مـن الحيـاة الـدنيا قـد عجلـوا أجـورهم، وحصلوا على ما قصدوا من المتاع العاجل الزائل، ويوم يطالبون يـوم القيامـة بأجر قتالهم يقال لهم: قاتلتم ليقال عنكم شجعان وقـد قيـل، فـلا أجـر لكـم كالمنفق ماله رئاء الناس، ويوم يطلب أجرًا على نفقته يقال لـه: أنفقـت ليقـال إنك كريم جواد فقد قيل، فلا أجر لك على نفقتك، ولن تكفر هذه النفقة شيئًا

(١) صحيح مسلم: (١٩٠٥).

من خطاياك، فاحمل خطاياك واذهب بها إلى النار.[1]

* وعَنْ سَعِيدٍ الطَّائِيِّ أَبِي البَخْتَرِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو كَبْشَةَ الأَنَّمَارِيُّ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**ثَلاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ**» قَالَ: «**مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلِمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللهُ عِزًّا، وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا**».

«**وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ**» قَالَ: «**إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ، عَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ**».[2]

✍ **يقول ابن القيم**: فأخبر ﷺ أن وزر الفاعل والناوي الذي ليس مقدوره إلا بقوله دون فعله سواءٌ، لأنه أتى بالنية ومقدوره التام، وكذلك أجر الفاعل والناوي الذي اقترن قوله بنيته. وكذلك المقتول الذي سلَّ السيف

---

(١) فتح المنعم: (٧/ ٥٥٨/ ٥٥٩).

(٢) مسند أحمد: (١٨٠٣١)، والترمذي: (٢٣٢٥) واللفظ له.

وأراد به قتل أخيه المسلم فقتل، نزل منزلة القاتل لنيته التامة التي اقترن بها مقدورها من السعي والحركة.

ومثل هذا قوله ﷺ: «**من دل على خير فله مثل أجر فاعله**»، فإنه بدلالته ونيته نزل منزلة الفاعل. ومثله: «**من دعا إلى هدى فله مثل أُجور من اتبعه**»، ومن دعا إلى ضلالة عليه من الوزر مثل آثام من تبعه لأجل نيته واقتران مقدورها بها من الدعوة، ومثله: «**إذ جاءَ المصلى إلى المسجد ليصلي جماعة فأدركهم وقد صلوا فصلى وحده كتب له مثل أجر صلاة الجماعة بنيته وسعيه**»، كما قد جاءً مصرحًا به في حديث مروي.

ومثل هذا من كان له ورد يصليه من الليل فنام ومن نيته أن يقوم إليه فغلب عينه نوم كتب له أجر ورده، وكان نومه عليه صدقة، ومثله المريض والمسافر إذا كان له عمل يعمله، فشغل عنه بالمرض والسفر كتب له مثل عمله وهو صحيح مقيم، ومثله: «**من سأل الله الشهادة بصدق بلغة الله، منازل الشهداءِ ولو مات على فراشه**»، ونظائر ذلك كثيرة.(1)

قصة قرآنية تبين عِظَمَ النية:

قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين: (ص: ٣٦٠).

عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [القلم: ١٧ - ٢٦]

هذه الآيات تصف نية أهل الجنة أي أهل البستان الذين ناموا على نية فاسدة وهي حرمان الفقراء من نصيبهم من ثمار البستان، فماذا كلفتهم تلك النية السيئة؟

✍ **قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ**: كَانُوا مِنْ قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا ضَرَوَانُ عَلَى سِتَّةِ أَمْيَالٍ مِنْ صَنْعَاءَ. وَقِيلَ: كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْحَبَشَةِ - وَكَانَ أَبُوهُمْ قَدْ خَلَّفَ لَهُمْ هَذِهِ الْجَنَّةَ، وَكَانُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَدْ كَانَ أَبُوهُمْ يَسِيرُ فِيهَا سِيرَةً حَسَنَةً، فَكَانَ مَا اسْتَغَلَّهُ مِنْهَا يَرُدُّ فِيهَا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا وَيَدَّخِرُ لِعِيَالِهِ قُوتَ سَنَتِهِمْ، وَيَتَصَدَّقُ بِالْفَاضِلِ. فَلَمَّا مَاتَ وَرِثَهُ بَنُوهُ، قَالُوا: لَقَدْ كَانَ أَبُونَا أحمق إِذْ كَانَ يَصْرِفُ مِنْ هَذِهِ شَيْئًا لِلْفُقَرَاءِ، وَلَوْ أَنَّا مَنَعْنَاهُمْ لَتَوَفَّرَ ذَلِكَ عَلَيْنَا. فَلَمَّا عَزَمُوا عَلَى ذَلِكَ عُوقِبُوا بِنَقِيضِ قَصْدِهِمْ، فَأَذْهَبَ اللهُ مَا بأيديهم بالكلية، رأس المال الربح وَالصَّدَقَةَ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ شَيْءٌ.(١)

حُرِقَ البستانُ بأكملهِ، وسبحان الله يُقال إنه كان حريقًا بدون صوتٍ أو دخانٍ حتى لا يحس به أحدٌ، وإذا تأملنا قوله تعالى: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [القلم:١٩]، فالله قال: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا ﴾ [القلم:١٩] أي على الجنة، ولم يقل (عليهم)، لأنها لو كانت عليهم لاحترقوا مع البستان، لذلك يجب أن نحذر من أن نأتي إلى مضاجعنا ونحن نحمل بين حنايا أفئدتنا نوايا سيئة.

---

(١) تفسير ابن كثير: (٨/ ١٩٧).

✍ **يقول القرطبي**: فِي هَذِهِ الْآيَـةِ دَلِيـلٌ عَلَـى أَنَّ الْعَـزْمَ مِمَّـا يُؤَاخَـذُ بِـهِ الْإِنْسَانُ، لِأَنَّهُمْ عَزَمُوا عَلَى أَنْ يَفْعَلُوا فَعُوقِبُوا قَبْلَ فِعْلِهِمْ. وَنَظِيرُ هَـذِهِ الْآيَـةِ قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج:٢٥].(١)

(١) تفسير القرطبي: (١٨/ ٢٤١).

الموعظة الثالثة عشرة

التحدث الحقيقي بالنعمة

التحدث الحقيقي بالنعمة

يقول أعزُّ من قال: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ [الضحى:١١].

إننا إذا تأملنا هذه الآية سنجد أن الناس ينقسمون في فهمها إلى فريقين:

* **الفريق الأول**: فريق يترجمها بمنظور السرف في المظاهر الحياتية وغيرها من الجوانب وعندما تحدثه أن هذا يقع تحت دائرة الإسراف يرد عليك ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ [الضحى:١١].

* **أما الفريق الثاني**: فهم من يتحدثون عن نعم الله بصورة صحيحة والبيان كالتالي:

يقول صاحب العظمة والكبرياء قبل هذه الآية: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [الضحى: ٦ – ٨].

فما السر في مجيء هذه الآية قبل: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ [الضحى:١١](١)؟

(١) من العلماء من قال: إن النعمة هي القرآن الكريم. وبناء على هذا المعنى فالتحدث بالنعمة يكون بالحديث عن القرآن الكريم.

ومن العلماء من قال: إن النعمة هي النبوة، وبناء على هذا المعنى، فالتحدث بالنعمة ⇦

قبل الإجابة لابد من بيان معاني الآيات، حتى نصل بيسر إلى الجواب الذي نبحث عنه.

- ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [الضحى:٦]، هذا الاستفهام هنا للتقرير، واليتيم: هو من فقد أباه وهو صغير.

تذكير الرسول ﷺ بنعم الله عليه:

أي: لقد كنت- أيها الرسول الكريم- يتيمًا، حيث مات أبوك وأنت في بطن أمك، فآواك الله- تعالى- بفضله وكرمه، وتعهدك برعايته وحمايته وعصمته، وسخر لك جدك عبد المطلب ليقوم بكفالتك، ومن بعده سخر لك عمك أبا طالب، حيث تولى رعايتك والدفاع عنك قبل الرسالة وبعدها، إلى أن مات.

وقوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الضحى:٧] بيان لنعمة أخرى أنعم- سبحانه- بها على نبيه ﷺ:

وللمفسرين في معنى هذه الآية كلام طويل، نختار منه قولين:

* **أولهما**: أن المراد بالضلال هنا الحيرة في الوصول إلى الحق، والغفلة عما أوحاه الله تعالى إليه بعد ذلك من قرآن كريم، ومن تشريعات حكيمة.. مع اعتقاده ﷺ قبل النبوة أن قومه ليسوا على الدين الحق، بدليل أنه لم

⇦

يكون بالحديث عن نبوة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وعن علمه، ورحمته، وكرمه، وعلو مقامه.

يشاركهم في عبادتهم للأصنام، ولا في السلوك الذي يتنافى مع مكارم الأخلاق.(١)

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله: ضَالًّا معناه: الضلال عن علم الشرائع وما طريقه السمع.(٢)

✍ **وقال الإمام الشيخ محمد عبده** رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: نشأ ﷺ موحدًا، لم يسجد لصنم، وطاهر الخلق، لم يرتكب فاحشة، حتى عرف بين قومه بالصادق الأمين، فضلال الشرك، وضلال الهوى في العمل، كانا بعيدين عن ذاته الكريمة.

ولكن للضلال أنواع أخر، منها: اشتباه المآخذ على النفس، حتى تأخذها الحيرة فيما ينبغي أن تختار.. وهذا هو الذي عناه الله- تعالى- بالضلال في هذه الآية الكريمة.

وقد هداه سبحانه إلى الحق بعد هذه الحيرة، بأن اختار له دينًا قويمًا وعلَّمه كيف يرشد قومه.

هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ ﴾ [الضحى:٧]، وهو معنى قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى:٥٢].

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: (١٥/ ٤٢٩).
(٢) تفسير الكشاف: (٤/ ٧٦٨).

وليس في وصف النبي ﷺ بالضال على هذا المعنى شين له، أو حط من شأنه، بل هذا فخره وإكليل مجده ﷺ حيث كان على غير علم فعلَّمه الله، ولم يكن مطَّلِعًا على الغيب، فأطلعه الله على ما يريد اطلاعه عليه، وبهذا التفسير نستغني عن خلط المفسرين في التأويل.(١)

أما القول الثاني في معنى الآية الكريمة: فهو أنه ﷺ كان بين قوم مشركين، وكان بعرضة أن يضل معهم، ولكن الله تعالى حبب إليه الانفراد عنهم، واعتزال شركهم وسوء أخلاقهم.. فكان بذلك كالشجرة المنفردة في الصحراء، والعرب تسمي الشجرة التي بهذه الصفة ضالة.(٢)

✍ **قال القرطبي:** قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ ﴾ [الضحى:٧] أي: غافلًا عما يراد بك من أمر النبوة، فهداك، أي: أرشدك. والضلال هنا بمعنى الغفلة.

وقال قوم: ضَالًّا أي: لم تكن تدري القرآن الكريم والشرائع، فهداك الله إليهما.

وقال قوم: ضَالًّا أي: وجدك في قوم ضُلَّال فهداهم الله تعالى بك، والعرب إذا وجدت شجرة منفردة في فلاة من الأرض، لا شجر معها، سموها ضالة، فيهتدى بها إلى الطريق، فقال سبحانه لنبيه ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ

(١) راجع تفسير جزء عم: (٨٥).
(٢) التفسير الوسيط لطنطاوي: (١٥/ ٤٣٠).

﴿٧﴾ [الضحى:٧] أي: لا أحد على دينك، وأنت وحيد ليس معك أحد، فَهَديْتُ بك الخلق إلى ديني.(١)

هذان هما القولان اللذان نرتاح إليهما، وارتياحنا إلى أولهما أشد وأقوى لأن الرسول ﷺ قد نشأ في بيئة منحرفة في عقائدها وأخلاقها، لم تطمئن نفسه الكريمة إليها، إلا أنه كان حائرًا في الوصول إلى الدين الحق، فهداه الله - تعالى- إليه، والهداية إلى الحق بعد الحيرة والضلال عنه، منة عظمى، ونعمة كبرى.

- **وهناك أقوال أخرى ضعيفة كقولهم:** ضَالًّا أي: عن القبلة فهداك الله إليها، أو ضَالًّا في شعاب مكة، فهداك الله وردك إلى عمك أو ضَالًّا في سفرك مع عمك إلى الشام، فردك الله- تعالى- إليه.

وقوله- سبحانه-: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى:٨] بيان لنعمة ثالثة من نعمه- تعالى- على نبيه ﷺ.

- **وأصل العائل:** الإنسان الذي له عائلة لا يستطيع الإنفاق عليها، ثم أطلق هذا اللفظ على الإنسان الفقير حتى ولو لم تكن له عائلة أو أسرة.

والفقر يسمى عيلة، كما في قوله تعالى-: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ - أي: فقرًا - ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبة:٢٨] [التوبة: ٢٨].

أي: وقد كنت- أيها الرسول الكريم- فقيرًا، حيث مات أبوك دون أن

---

(١) تفسير القرطبي: (٢٠/ ٩٦).

يترك لك مالًا كثيرًا، ونشأت في كنف جدك ثم عمك، وأنت على هذه الحال. ثم أغناك الله- تعالى- بفضله وكرمه بنوعين من الغنى:

- **أما أولهما وهو الأعظم:** فهو غنى النفس، بأن منحك نفسا عفيفة قانعة بما أعطاك- سبحانه- من رزق، حتى ولو كان كفافًا.

- **وأما ثانيهما:** فهو الغنى المادي عن الاحتياج إلى الناس، بما أجراه على يديك من الربح في التجارة، وبما وهبتك زوجك خديجة من مالها، فعشت مستور الحال، غير محتاج إلى من ينفق عليك.

وهكذا نجد الآيات الكريمة تبين لنا أن من فضل الله تعالى على نبيه ﷺ أنه آواه في يتمه وصغره، وهداه من ضلاله وحيرته، وأغناه بعد فقره وحاجته.(١)

- **ومن هنا نعرف السر في مجيء هذه الآيات قبل قوله تعالى:** ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى:١١]؟

إن الله بعد أن عدَّدَ هذه النعم لنبيه ﷺ أمره بشكرها، وأداء حقوقها، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾ [الضحى:٩]... والقهر: التغلب على الغير والإذلال له.

أي: إذا كان الأمر كما أخبرتك من أنك كنت يتيما فآويناك، وكنت ضالًّا فهديناك، وكنت فقيرًا فأغنيناك، فتذكر هذه النعم، واشكر ربك عليها، ومن

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: (١٥/ ٤٣١).

مظاهر هذا الشكر: أن تواسي اليتيم، وأن تكرمه. وأن تكون رفيقا به.. ولا تكن كأهل الجاهلية الذين كانوا يقهرون الأيتام ويذلونهم ويظلمونهم..

ولقد استجاب النبي ﷺ لما أمره ربه به، فأكرم اليتامى ورعاهم، وحض على ذلك في أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة**» وأشار ﷺ بإصبعيه السبابة والوسطى.

- وهكذا يجب أن يكون مَنْ مرَّ باليتم ويسر الله له من يحتويه بالحنان والرعاية، فعندما يكبر ويصبح بفضل الله عليه ونعمائه شخصًا مستقلًا ذاتيًا يجب أن يكون شعوره مختلفًا عن الآخرين إذا وجد يتيمًا يحتاج إلى عناية ورعاية لأنه قد ذاق لوعة اليتم ومرارة الحرمان ولامس قلبه نفس الشعور من قبل وعندها يكون عطاؤه من منطلق ذلك الاحساس فينطلق من هذه الآية ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ [الضحى:١١]، ويتذكر أن الله قد أنعم عليه فسخَّر من كفله ورعاه حتى اشتد عوده.

آيات أمرت برعاية اليتيم، وبالمحافظة على ماله:

❋ وقد تكرر الأمر برعاية اليتيم، وبالمحافظة على ماله في مطلع سورة النساء خمس مرات قال تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ [النساء:٢].

❋ وقال سبحانه: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [النساء:٣].

❋ وقال ﷻ: ﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ ﴾ [النساء:٦].

* وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾ [النساء:٨].

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [النساء:١٠].

* ومن الآيات القرآنية التي وردت في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ ﴾ [الأنعام:١٥٢].

النهي عن إغلاظ القول للسائل:

وقوله سبحانه: ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ ﴾ [الضحى:١٠] معطوف على ما قبله. أي: وكما أننا قد هديناك بعد حيرة.. فاشكر نعمنا على ذلك، بأن تفتح صدرك للسائل الذي يسألك العون، أو يسألك معرفة ما يجهله من علم. فالمراد بالسائل، ما يشمل كل سائل عن مال، أو عن علم، أو عن غير ذلك من شئون الحياة.

قال القرطبي: قوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ ﴾ [الضحى:١٠] أي: لا تزجره، فهو نهي عن إغلاظ القول.. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ردوا السائل ببذل يسير، أو رد جميل..**».

* وَفِي حديث أَبِي هَارُونَ الْعَبْدِيِّ، قَالَ: كُنَّا إِذَا أَتَيْنَا أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، قَالَ: «مَرْحَبًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَنَا: «**إِنَّ النَّاسَ لَكُمْ تَبَعٌ، وَإِنَّهُمْ سَيَأْتُونَكُمْ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ يَتَفَقَّهُونَ فِي الدِّينِ، فَإِذَا جَاءُوكُمْ**

فَاسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْرًا». (١)

وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١ ﴾ [الضحى:١١]، والتحديث بالشيء: الإخبار به، والحديث عنه، أي: وكما كنت عائلا فأغنيناك بفضلنا وإحساننا، فاشكرنا على ذلك، بأن تظهر نعمنا عليك ولا تسترها، وأذعها بين الناس، وأمر أتباعك أن يفعلوا ذلك، ولكن بدون تفاخر أو مباهاة... فإن ذكر النعم على سبيل الرياء والتفاخر والتطاول على الغير... يبغضه الله تعالى، ويعاقب صاحبه عقابًا أليمًا. (٢)

✍ **قال الإمام ابن كثير**: وقوله: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١ ﴾ [الضحى:١١] أي: وكما كنت عائلا فقيرا فأغناك الله، فحدث بنعمة الله عليك، كما جاء في الدعاء: «واجعلنا شاكرين لنعمتك. مثنين بها، قابليها، وأتمها علينا».

✍ **وعن أبي نضرة قال**: كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدّث بها.

❋ وعن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: **«مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ، لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ، لَمْ يَشْكُرِ اللهَ.**

---

(١) تفسير القرطبي: (٢٠/ ١٠١)، والحديث في سنن ابن ماجه: (٢٤٩). وضعفه الألباني.

(٢) التفسير الوسيط لطنطاوي: (١٥/ ٤٣٢).

التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللهِ شُكْرٌ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ، وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ». (١)

فأنت ترى أن الله تعالى قد ذكر ثلاث نعم مما أنعم به على نبيه ﷺ وأرشده إلى كيفية شكرها. نسأل الله- تعالى- أن يجعلنا من عباده الشاكرين. (٢)

✍ سريعًا نقول:

١- من كان يتيمًا فليتذكر يتمه إذا كبر وفتح الله عليه وليساعد اليتامى.

٢- إن السائل ليس السائل عن المال فقط إنما السائل من يسأل مالًا أو علمًا فيسأل عن مسألة فقهية أو آية في كتاب الله أو في أي فرع من فروع العلم.

فمن كان صاحب علم وفتح الله عليه بالفهم فلا يرد ولا يزجر سائلا . وبهذا تكون الترجمة العملية لقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ [الضحى:١١].

وهذه التوجيهات إلى إكرام اليتيم والنهي عن قهره وكسر خاطره وإذلاله، وإلى إغناء السائل مع الرفق به والكرامة، كانت من أهم إيحاءات الواقع في البيئة الجاحدة المتكالبة، التي لا ترعى حق ضعيف، غير قادر على حماية حقه بسيفه!

حيث رفع الإسلام هذه البيئة بشرعة الله إلى الحق والعدل، والتحرج

---

(١) مسند أحمد: (٤- ٢٧٨/ ٣٧٥)، والسلسلة الصحيحة: (٦٦٧).

(٢) التفسير الوسيط لطنطاوي: (١٥/ ٤٣٣).

والتقوى، والوقوف عند حدود الله، الذي يحرس حدوده ويغار عليها ويغضب للاعتداء على حقوق عباده الضعاف الذين لا يملكون قوة ولا سيفًا يذودون به عن هذه الحقوق.

وأما التحدث بنعمة الله وبخاصة نعمة الهدى والإيمان فهو صورة من صور الشكر للمنعم. يكملها البر بعباده، وهو المظهر العملي للشكر، والحديث الصامت النافع الكريم.

الموعظة الرابعة عشرة

كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللّهِ
أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ

كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ

يقول أعزُّ من قال: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة:٤٤]، وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الصف: ٢- ٣].

- إنَّ من الوقاحة أن ينصحَ الإنسانُ بشيءٍ لا يفعله، من أجل ذلك تكون دعوةُ الغني المُتْرَف إلى التَقَشُّف دعوةً مضحكة، كما تكون دعوةُ المنحرف إلى الاستقامة دعوةً مخجلة، و دعوةُ الإنسان اللاأخلاقي إلى حُسْنِ الخُلق دعوةً ساخرة، وهذا ما جعل الناس ينفرون من الدين، إن صحَّ التعبير.

المُثُل العُليا تشدُّ الناس إلى الدين أما الكلام فلا يؤثِّر:

إن لغة العمل أبلغ من لغة القول، والناس يتعلمون بعيونهم لا بآذانهم، والذي يشدُّ الناس إلى الدين المُثُل العُليا، أما الكلام فقط فلا يؤثِّر، ولا يُحرِّك ساكنًا، جاء الأنبياء بالكلمة فقط، ولكن بالكلمة التي يؤكِّدها الواقع.

قال عبد الله بن المبارك: قيل لحمدونٍ القصَّار: ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟ قال: لأنَّهم تكلَّموا لعزِّ الإسلام، ونجاة النفوس، ورضا

الرحمن، ونحن نتكلَّم لعزِّ النفوس، وطلب الدُّنيا، ورضا الخلق.(١)

سر نجاح دعوة الأنبياء:

لو سأل سائل ما هو السِّرُّ في نجاح دعوة الأنبياء، وإخفاق كثير من الدعاة في أيامنا؟

نقول: إن السرَّ يكمن في التطبيق والامتثال، فلا يمكن أن توجد عند النبي ازدواجيَّة أبدًا، فالذي قاله الأنبياء فعلوه، والذي فعلوه قالوه، فالانسجام تام بين أقوالهم وأفعالهم، ولهذا لا نجد في حياتهم تناقضًا بين أقوالهم وأفعالهم، وهذا نبيُّ الله شعيبٌ يأمر قومه بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ثم يقول لهم: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود:٨٨].

وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن سريرته كعلانيَّته، وظاهره كباطنه، وما في قلبه على لسانه، وخلوته كجلوته، وبهذا الانسجام بين القول والفعل تنتشر الدعوة في الآفاق.

العلم في الإسلام وسيلة وليس هدفًا:

إن العلم في الإسلام وسيلة وليس هدفًا، لأنه من السهل والميسور جدًا أن يتكلَّم متكلم عن الأخلاق، وسهل جدًا أن يتحدَّث متحدث عن العبادات، ومن السهل جدًا أن تتحدث العاهرة عن الشرف، وأن يتحدث

---

(١) صفة الصفوة: (٢/ ٣١٣).

اللصُّ السارقُ عن الأمانة، عن مَالِكَ بْنَ دِينَارٍ، يَقُولُ: «أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى عِيسَى عليه السلام يَا عِيسَى عِظْ نَفْسَكَ فَإِنِ اتَّعَظْتَ فَعِظِ النَّاسَ وَإِلَّا فَاسْتَحْيِ مِنِّي».(١) ومن هنا نعرف أن الغاية من العلم العمل به، كما أن الغاية من الوعظ نفع النفس به قبل الغير.

خطر مخالفة الأفعال للأقوال:

إن ربنا – تبارك وتعالى – يتوجه إلينا بهذا السؤال والاستفهام فيقول عزَّ من قائل: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة:٤٤].

يقول القرطبي: هَذَا استفهام معناه التَّوْبِيخِ، وَالْمُرَادُ فِي قَوْلِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ يَهُودُ الْمَدِينَةِ يَقُولُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لِصِهْرِهِ وَلِذِي قَرَابَتِهِ وَلِمَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ رَضَاعٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ اثْبُتْ عَلَى الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ وَمَا يَأْمُرُكَ بِهِ هَذَا الرَّجُلُ يُرِيدُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ أَمْرَهُ حَقٌّ فَكَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِذَلِكَ وَلَا يَفْعَلُونَهُ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أيضًا: كَانَ الْأَحْبَارُ يَأْمُرُونَ مُقَلِّدِيهِمْ وَأَتْبَاعَهُمْ بِاتِّبَاعِ التَّوْرَاةِ، وَكَانُوا يُخَالِفُونَهَا فِي جَحْدِهِمْ صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: كَانَ الْأَحْبَارُ يحضُّون فِي طَاعَةِ اللهِ وَكَانُوا هُمْ

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: (٢/ ٣٨٢).

يُوَاقِعُونَ الْمَعَاصِيَ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانُوا يَحُضُّونَ عَلَى الصَّدَقَةِ وَيَبْخَلُونَ.(١)

إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لذلك فإن الآية وإن كانت نازلةً في بني إسرائيل تصف حالًا من أحوالهم، وشأنا من شؤونهم، إلا أنها تتناول بعمومها كلَّ من اتصف بهذه الصفة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾ [الصف: ٢-٣].

النبي ﷺ يخبرنا بعذاب من خالف فعله قوله:

* عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، قَالَ: يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ**».(٢)

* ويحكي لنا رسولنا ﷺ عن هول ما رأى من عذاب أهل النار في ليلة المعراج، ومن ذلك ما ورد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَمَّا أُسْرِيَ بِي مَرَرْتُ بِرِجَالٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ**» قَالَ: «**فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ**

---

(١) تفسير القرطبي: (١/ ٣٦٥).

(٢) صحيح مسلم: (٢٩٨٩).

أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ».(١)، وَفِي رواية قَالَ: «أَتَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِيَ عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نارٍ فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟، فَقَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَقْرَؤُنَ كِتَابَ اللهِ وَلَا يَعْمَلُونَ بِهِ».(٢)

الواجب تجاه أوامر الله ونواهيه:

إن ربنا جل جلاله يطلب منا أن نفعل المعروف، ونأمر به، وأن ننهى عن المنكر وننتهي عنه، والله ﷻ في هذه الآية لا يذم هؤلاء على أنهم أمروا بالبر، لكنه يذمهم على أنهم تركوه.

فلا بد من أربعة: أن نأمر بالمعروف، وأن نأتمر به في أنفسنا، وأن ننهى عن المنكر، وأن ننتهي عنه في أنفسنا.

إِنَّ قَوْمًا يَأْمُرُونَا ... بِالَّذِي لَا يَفْعَلُونَا
لَمَجَانِينٌ وَإِنْ هُمْ ... لَمْ يَكُونُوا يُصْرَعُونَا

وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنِ مَطَرٍ: حَضَرْتُ مَجْلِسَ أَبِي عُثْمَانَ الْحِيرِيِّ الزَّاهِدِ فَخَرَجَ وَقَعَدَ عَلَى مَوْضِعِهِ الَّذِي كَانَ يَقْعُدُ عَلَيْهِ لِلتَّذْكِيرِ، فَسَكَتَ حَتَّى طَالَ سُكُوتُهُ، فَنَادَاهُ رَجُلٌ كَانَ يُعْرَفُ بِأَبِي الْعَبَّاسِ: تَرَى أَنْ تَقُولَ فِي سُكُوتِكَ شَيْئًا؟ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

وَغَيْرُ تَقِيٍّ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتُّقَى ... طَبِيبٌ يُدَاوِي وَالطَّبِيبُ مَرِيضُ

(١) مسند أحمد: (١٣٤٢١).
(٢) شعب الإيمان: (٤٦١٣).

قَالَ: فَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ بِالْبُكَاءِ وَالضَّجِيجِ.(١)

بعض مظاهر وصور مخالفة الأفعال للأقوال:

إنَّ أبًا يأمرُ ولَدَه بالصلاة، ويحثُّه عليها، ويدفعُه إليها دفعًا، ويؤزُّه إليها أزًّا، ثم بعد ذلك يراه ولدُهُ مضيعًا للصلوات، متَّبعًا للشهوات، لن يسمع له توجيهًا، أو يرعى له أمرًا؛ لأنه يرى الأفعال تخالف الأقوال.

إن أبًا ينهى ولده عن التدخين، ثم لا يكاد ولده يراه إلا والسيجارة بين أصبعيه، لن يسمع له توجيهًا، أو يرعى له أمرًا.

قَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ:

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ
وَابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا ... فَإِنِ انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ
فَهُنَاكَ يُقْبَلُ إِنْ وَعَظْتَ وَيُقْتَدَى ... بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ

إن أُمًّا تأمرُ بنتها بأن تَعِفَّ نفسها، وأن تصون عرضها، ثم بعد ذلك تراها بنتُها خرَّاجةً ولَّاجةً، سافرةً متبرجةً، لا ترعى لزوجها أمرًا ولا نهيا، لن تقتدي بها؛ لأنها ترى أفعالها تكذب أقوالها.

إن مديرًا أو رئيسًا يأمر مرؤوسيه، ومن ولَّاه الله أمرهم، بإتقان العمل، وعفة المطعم، وطهارة اليد، ثم بعد ذلك يرونه، يخوض في مال الله، يأكل حقوق الناس، لا يتقن عملًا، ولا يحسن قولًا، لن يصدقوا مقالته.

---

(١) تفسير القرطبي: (١/ ٣٦٧).

ضرورة إتباع الأقوال بالأفعال:

إن الأقوال من أجل أن تصدق لابدَّ أن تتبعها الأفعال، لهذا كان رسول الله ﷺ إذا أمر بأمر يكون أولَّ من يأتمر به ﷺ، ولقد وقف ﷺ بين الناس بعد صلاة العشاء، يقول لهم: «**مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَلَاثَةٍ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ أَرْبَعَةٍ فَلْيَذْهَبْ بِخَامِسٍ، بِسَادِسٍ**» أَوْ كَمَا قَالَ: وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ جَاءَ بِثَلَاثَةٍ، وَانْطَلَقَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ بِعَشَرَةٍ....».(١) انظر: يقول هذا القول ثم يرونه صلوات ربي وسلامه عليه يذهب إلى بيته بعشرة. وكذلك أصحابه رضوان الله عليهم.

- وكان هناك عهد لرسول الله ﷺ مع اليهود أن يأخذ نصف تمرهم في خيبر، فكلَّف رسول الله ﷺ سيدنا ابن رواحة ليقدِّر التمر فماذا حدث؟

* عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَبْعَثُ عَبْدَ اللهِ بْنَ رَوَاحَةَ فَيَخْرُصُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَهُودَ، قَالَ: فَجَمَعُوا لَهُ حُلِيًّا مِنْ حُلِيِّ نِسَائِهِمْ، فَقَالُوا: هَذَا لَكَ وَخَفِّفْ عَنَّا وَتَجَاوَزْ فِي الْقَسْمِ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، وَاللهِ إِنَّكُمْ لَمِنْ أَبْغَضِ خَلْقِ اللهِ إِلَيَّ وَمَا ذَلِكَ بِحَامِلِي عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ، فَأَمَّا الَّذِي عَرَّضْتُمْ مِنَ الرِّشْوَةِ فَإِنَّهَا سُحْتٌ وَإِنَّا لَا نَأْكُلُهَا. قَالُوا: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ.(٢)

* وعن حُذَيْفَةُ بْنِ الْيَمَانِ، قَالَ: مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلَّا أَنِّي خَرَجْتُ

---

(١) تفسير القرطبي: (١/ ٣٦٧).

(٢) موطأ مالك: (٢/ ٧٠٣)، السنن الكبرى للبيهقي: (٤/ ٢٠٦)، واللفظ له.

أَنَا وَأَبِي حُسَيْلٌ، قَالَ: فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ، قَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ، مَا نُرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلَا نُقَاتِلُ مَعَهُ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: «**انْصَرِفَا، نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِمْ**».(١)

* وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين يريد أن يقنن أمرًا في الإسلام يأتي بأهله وأقاربه ويقول لهم: لقد بدا لي أن آمر بكذا وكذا، والذي نفسي بيده من خالف منكم لأجعلنه نكالًا للمسلمين.(٢) يبدأ عمر بأهل بيته حتى يكونوا قدوة للناس.

* وهذا المعنى قرَّره رسولُ اللهِ ﷺ في هذا الموقف الذي روته أمنا عائشة: عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حِبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**».(٣)

إن الصغير مجبول على تقليد الكبير، وإن المرؤوس مجبول على محاكاة الرئيس، فإذا كان الأب، وإذا كانت الأم، وإذا كان المعلم والموجه، وإذا كان

---

(١) صحيح مسلم: (١٧٨٧).

(٢) تفسير الشعراوي: (١/ ٣٠٥). ولم أجده مسندًا بهذا اللفظ.

(٣) صحيح البخاري: (٣٤٧٥).

الحاكم والمسئول آمرًا بالمعروف، مؤتمرًا به، ناهيًا عن المنكر، منتهيًا عنه، فما أسرع أن يقبل الناس قوله، وأن يحاكوه في فعله.

لما فتح المسلمون بلاد فارس، وجاؤوا بالأقباض والأسلاب والغنائم العظيمة، جعل عمر رضي الله عنه ينظر إلى تلك المجوهرات التي جاؤوا بها من قصور كسرى، وما هي عليه من القيمة العالية، وقال: إِنَّ قَوْمًا أَدَّوْا هَذَا لَأُمَنَاءُ، فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: إِنَّكَ عَفَفْتَ فَعَفَّتْ رَعِيَّتُكَ، وَلَوْ رَتَعْتَ لَرَتَعَتْ.(١)

إن من كان على استقامة وسداد وصلاح، ومطابقة للأقوال بالأفعال، فإنَّ أولاده ورعيته ومن تحته يقتدون به، ويلزمون سيرته وسلوكه؛ كما كان حال الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكما كان حال التابعين مع الصحابة رضوان الله على الجميع.

وهكذا لابد أن تُصدِّقَ الأقوال الأفعال، ولا بد أن تتوافق الحقائق مع العناوين، والشعارات مع المضامين؛ من أجل أن يُصدِّقَ الناسُ كلامنا.

- إن المسلمين فتحوا بلادًا كثيرة بأفعالهم، وأخلاقهم، وسلوكهم، آمن الناس بدين الله بما رأوا من صدق المسلمين وأمانتهم، وعفتهم ونزاهتهم، وبعدهم عن الشبهات.

ولكن لما تحوَّل الدين إلى حرفة وصناعة، أصبحت الأقوال تخرج هامدةً ميتةً، لا تصل إلى القلوب.

(١) البداية والنهاية: (٧/ ٦٧).

الموعظة الخامسة عشرة

الذنوب سبب للحرمان

الذنوب سبب للحرمان

يقول أعزُّ من قال: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى:٣٠].

إن هذه الآية الكريمة تعطينا كنوزًا وعلومًا لو عُمِلَ بها لعشنا جنة الله في الأرض ولكانت حياتنا طيبة بلا منغصات تحطم النفس والقلب.

وَفِي الآية موعظة غالية، من لم يتنبه لها، لن يستطيع تحصيل السعادة التي تبحث عنها كل نفس.

حال كثير من الناس عند نزول مصيبة:

إن كثيرًا من الناس إذا نزلت به مصيبة، بدأ يدعوا ربَّ السموات والأرض، ولكنه في الوقت ذاته يفكر في من حوله، وقلبه يسيء الظن بفلان أنه سحره أو حسده، وينسى أنه لو أراد أحد إيذاءه، فلن يصيبه سِحرٌ ولا حَسَدٌ إلا بإذن الله القائل: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾ [البقرة:١٠٢].

كما أنه لا تصيبه مصيبة إلا بإذن الله القائل: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾ ﴾ [التغابن:١١].

وينسى هذا المسكين أنه لا يستطيع مخلوقٌ أن يُمسِكَ رَحْمَةَ الله ويمنَعَها من النزول كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [فاطر:٢]. ولكنها الغفلة!

– كما ينسى هذا المسكين الذي حلَّت به المصيبة أن الله إن أراد كشف ما به من ضر فلن يوقفه سبحانه، سِحْرُ فُلانٍ أو حَسَدُ فُلانةٍ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس:١٠٧].

– ثم يتغافل هذا المسكين عن احتمالية كونه هو سببًا في زوال نعمة أنعم الله بها عليه بذنوبه!!! كما قال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنفال:٥٣].

– فلماذا يشغل نفسه وتفكيره بالبحث عن متهمين يُعلِّق عليهم ما أَلَمَّ به من مصائبَ، مُبْعِدًا عن نفسه التهمة بدلًا من التركيز على نفسه والبحث عن عيوبها ليصلحها؟!!

القرآن يوضح لنا خطر الذنوب:

يقول أعزُّ من قال: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى:٣٠]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [القصص:٤٧]، وقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ

﴿كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران:١٦٥]، وقال سبحانه: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم:٤١].

الذُّنُوبُ تَطْبَعُ عَلَى الْقُلُوبِ:

إِنَّ الذُّنُوبَ إِذَا تَكَاثَرَتْ طُبِعَ عَلَى قَلْبِ صَاحِبِهَا، فَكَانَ مِنَ الْغَافِلِينَ.

كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين:١٤]، قَالَ: هُوَ الذَّنْبُ بَعْدَ الذَّنْبِ.

✍ **وَقَالَ الْحَسَنُ**: هُوَ الذَّنْبُ عَلَى الذَّنْبِ، حَتَّى يُعْمِيَ الْقَلْبَ.

✍ **وَقَالَ غَيْرُهُ**: لَمَّا كَثُرَتْ ذُنُوبُهُمْ وَمَعَاصِيهِمْ أَحَاطَتْ بِقُلُوبِهِمْ.

وَأَصْلُ هَذَا أَنَّ الْقَلْبَ يَصْدَأُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، فَإِذَا زَادَتْ غَلَبَ الصَّدَأُ حَتَّى يَصِيرَ رَانًا، ثُمَّ يَغْلِبُ حَتَّى يَصِيرَ طَبْعًا وَقُفْلًا وَخَتْمًا، فَيَصِيرُ الْقَلْبُ فِي غِشَاوَةٍ وَغِلَافٍ، فَإِذَا حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ بَعْدَ الْهُدَى وَالْبَصِيرَةِ انْعَكَسَ فَصَارَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ، فَحِينَئِذٍ يَتَوَلَّاهُ عَدُوُّهُ وَيَسُوقُهُ حَيْثُ أَرَادَ.(١)

أمثلة لأضرار الذنوب والمعاصي في الأمم الماضية:

إننا إذا تأملنا في قصص القرآن سنجد أمثلة كثيرة أهلكتهم ذنوبهم ومن هؤلاء:

---

(١) الجواب الكافي: (ص: ٦٠).

١ - صاحب الجنتين:

إن صاحب الجنتين خسر جنته كما وضحت سورة الكهف، فهل حسده صاحبه أو سحره لأنه يغار من جنتيه عندما تفاخر بهما أمامه؟ أم أنه جَنَىَ على نَفسِهِ بأن تكبَّرَ ونَسبَ النِّعْمةَ لنفسه؟ ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الكهف: ٤٢ - ٤٣].

٢ - مملكة سبأ:

وكذلك في قصة مملكة سبأ، هل حسدتها الممالك التي حولها أو تـآمرت عليها أو سحرتها حسدا لما حباها الله من خيرات؟

أم أنها جَنَتْ على نفسها بالإعراض عن ربها؟ ﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٦ - ١٧].

٣ - قوم عاد:

وماذا عـن عـاد التـي قـال الله عنهـا: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر: ٦ - ٨]. فلـم يُخْلَـقْ مِثْلُهَـا فِي الْبِلَادِ، وأعطاهم الله من القوة ما جعلهم يغترون ويتكبرون بـه ويقولـون: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]. فهل حسدهم حاسد، أو سـحرهم سـاحر؟ أو تآمر عليهم متآمر؟

إنهم أهلكوا أنفسهم بكفرهم واستكبارهم وبما كسبته أيديهم كما قال

تعالى: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ﴾ [هود: ٥٩- ٦٠].

من عاد للمعصية عاد الله عليه بالعذاب والعقوبة:

قال تعالى: ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨) ﴾ [الإسراء:٨]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) ﴾ [الأنفال:١٩].

نظرة على واقع الناس:

إن كثيرًا من الناس يُلقُونَ بفشلهم على من حولهم، بدلًا من إصلاح أنفسهم!!، مع أن الناس لو تابوا وعادوا إلى الله واستقاموا، لعاشوا في جنة الله في أرضه قال أعزُّ من قال: ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦) ﴾ [الجن:١٦]، وقال سبحانه: ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) ﴾ [النساء:١٤٧].

ما تزول به عقوبة الذنوب: (كفارات الذنوب):

من رحمة الله بعباده أن هيأ لهم أسبابًا يكفر بها عنهم الذنوب، ويمحوها، وهذه الكفارات الماحيات هي الأقوال والأعمال التي شرعها في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، ومن ذلك:

- **أولاً: الإيمان بالله وتوحيده والعمل الصالح:**

* قال صاحب العظمة والكبرياء: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [العنكبوت:٧].

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**تُفْتَحُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الخَمِيْسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا**».(1)

- **ثانيًا: اجتناب الكبائر من الذنوب:**

* قال صاحب العظمة والكبرياء: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [النساء:٣١].

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتُ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الكَبَائِرَ**».(2)

- **ثالثًا: التوبة الصادقة:**

* وهذا متفق عليه بين المسلمين، قال صاحب العظمة والكبرياء: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ

---

(١) صحيح مسلم: (٢٥٦٥).

(٢) صحيح مسلم: (٢٣٣).

حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

* وقال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر:٥٣].

* وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ**».(١)

- **رابعًا: الاستغفار:**

* قال أعزُّ من قال: ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء:١٠٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المزمل:٢٠].

* روى الإمام أبو داود من حديث زيد رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**مَن قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّوْمُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ**».(٢)

* وعن أبي ذر رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «**... يَا عِبَادِي، إِنَّكُم تُخْطِئُوْنَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيْعًا، فَاسْتَغْفِرُوْنِي أَغْفِرْ لَكُمْ**».(٣)

---

(١) ابن ماجه: (٤٢٥٠)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه: (٣٤٢٧).
(٢) أبو داود: (١٥١٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود: (١٣٤٣).
(٣) صحيح مسلم: (٢٥٧٧).

• **خامسًا: المصائب التي يكفر الله بها الخطايا في الدنيا:**

* **عن** أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿**مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ**﴾ [النساء:١٢٣] بلغت من المسلمين مبلغًا شديدًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**قَارِبُوْا وَسَدِّدُوا، فَفِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ، حَتَّى النَّكْبَةِ يُنْكَبُهَا، أَوِ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا**».(١)

* وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، يَقُولُ: «**مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ، وَلَا نَصَبٍ، وَلَا سَقَمٍ، وَلَا حَزَنٍ حَتَّى الْهَمِّ يُهَمُّهُ، إِلَّا كُفِّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ**».(٢)

• **سادسًا: الوضوء:**

* عَنْ حُمْرَانَ، مَوْلَى عُثْمَانَ، قَالَ: أَتَيْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ بِوَضُوءٍ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ نَاسًا يَتَحَدَّثُونَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَحَادِيثَ لَا أَدْرِي مَا هِيَ؟ إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم تَوَضَّأَ مِثْلَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ تَوَضَّأَ هَكَذَا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَكَانَتْ صَلَاتُهُ وَمَشْيُهُ إِلَى الْمَسْجِدِ نَافِلَةً**».(٣)

• **سابعًا: الصلاة، والمشي إليها:**

* عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**أَلَا أَدُلُّكُم عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟**» قَالُوْا: بَلَى يَا رَسُوْلَ اللهِ، قَالَ: «**إِسْبَاغُ**

---

(١) صحيح مسلم: (٢٥٧٤).

(٢) صحيح مسلم: (٢٥٧٣).

(٣) صحيح مسلم: (٢٢٩).

الوُضُوْءِ عَلَى المَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الخُطَى إِلَى المَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ». (١)

• **ثامنًا: الصدقات:**

* قال صاحب العظمة والكبرياء: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة:٢٧١].

* وعن معاذ رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيْئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ**». (٢)

• **تاسعًا: الحج والعمرة:**

* عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيْدِ**». (٣)

• **عاشرًا: صيام رمضان وقيامه:**

* عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**» (٤)

---

(١) صحيح مسلم: (٢٥١).

(٢) الترمذي: (٢٦١٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) النسائي: (٢٦٣١)، وصححه الألباني: (٢٤٦٧).

(٤) صحيح البخاري: (٣٨)، وصحيح مسلم: (٧٥٩).

* ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».(١)

• **حادي عشر: دعاء المؤمنين للمؤمن: مثل صلاتهم على جنازته:**

* عَنْ كُرَيْبٍ، مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ مَاتَ ابْنٌ لَهُ بِقُدَيْدٍ - أَوْ بِعُسْفَانَ - فَقَالَ: يَا كُرَيْبُ، انْظُرْ مَا اجْتَمَعَ لَهُ مِنَ النَّاسِ، قَالَ: فَخَرَجْتُ، فَإِذَا نَاسٌ قَدِ اجْتَمَعُوا لَهُ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: تَقُولُ هُمْ أَرْبَعُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَخْرِجُوهُ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، يَقُولُ: «**مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ**».(٢)

• **ثاني عشر: شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم وغيره في أهل الذنوب يوم القيامة:**

* كما تواترت عنه أحاديث الشفاعة، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «**شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**».(٣)

* وعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**خُيِّرْتُ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ، وَبَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ، فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ، لِأَنَّهَا أَعَمُّ وَأَكْفَى، أَتُرَوْنَهَا لِلْمُتَّقِينَ؟ لَا، وَلَكِنَّهَا لِلْمُذْنِبِينَ، الْخَطَّائِينَ الْمُتَلَوِّثِينَ**».(٤)

---

(١) صحيح البخاري: (٣٧)، وصحيح مسلم: (٧٥٩).
(٢) صحيح مسلم: (٩٤٨).
(٣) سنن أبي داود: (٤٧٣٩).
(٤) سنن ابن ماجه: (٤٣١١).

وماذا بعد الكلام:

١- قس إيمانك بميزان تأثرك بالذنوب، وعلى هذا الأساس حَدِّدْ مقدار حاجته للإصلاح والترميم.

٢- أول الطريق إلى الله الرجوع والتألم على مقارفة الذنوب والندم على الوقوع فيها والتفكر في آثارها وتباعتها.

٣- من منع نفسه من نعيم زائل اليوم غرق في نعيم الأبد غدًا.

٤- من عمل أعمال الكافرين حشر معهم، ومن عمل أعمال الظالمين حشر معهم، ومن عمل أعمال المنافقين حشر معهم.

٥- إذا نسيت هذه الآثار فاذكرها عند القبور، فإذا فاتك هذا فمع الرفقة الصالحة، فإن فاتك هذا فاذكرها عند مجالس الذكر، فإن فاتك كل هذا، فقس نبضك لتعرف أحيٌّ أنت أم ميت؟.!

٦- من كره شيئًا هرب منه، ومن أحب شيئًا أصرَّ عليه، فاقرأ هذه الكلمات مرة بعد مرة لتتقن فن الهروب من الذنوب عساك تفلح عند علام الغيوب.

وختامًا أقول:

قَرِيحُ القَلْبِ مِن وَجَعِ الذُّنُوبِ ... نَحِيلُ الجِسْمِ يَشْهَقُ بالنَّحِيبِ
أَضَرَّ بِجِسْمِهِ سَهَرُ اللَّيَالِي ... فَصَارَ الجِسْمُ مِنْهُ كَالقَضِيبِ
وغَيَّرَ لَونَهُ خَوفٌ شَدِيدٌ ... لِمَا يَلْقَاهُ مِنْ طُولِ الكُرُوبِ
يُنَادِي بالتَّضَرُّعِ يَا إلهِي ... أقِلْنِي عَثْرَتِي واسْتُرْ عُيُوبِي

فَزِعْــــتُ إلى الخَلائِـــقِ مُسْــــتَغِيثًا وَلَــم أرَ في الخَلَائِــقِ مِــن مُجِيــبِ
وأنْــتَ تُجِيــب مَــنْ يَــدْعُوكَ رَبِــي وتَكَشْــفُ ضُــرَّ عَبْــدِكَ يَــا حَبِيبِــي
ودَائِــــي بَــــاطِنٍ وَلَــــدَيكَ طِــــبٌّ ومَــن لِــي مِثْــلُ طِبِّــكَ يَــا طَبِيبَــي (١)

(١) مجموعة القصائد الزهديات: (٢/ ٢٠٦).

الموعظة السادسة عشرة

شيئان لا يجتمعان:

التكبر والعلم

شيئان لا يجتمعان: (التكبر والعلم)

يقول أعزُّ من قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾ [غافر:٣٥].

إن الله يطبع ويختم بالكفر والعمى على قلب كل إنسان متكبر عن الاستماع للحق، متطاول ومتجبر على خلق الله- تعالى- بالعدوان والإيذاء.

وبهذا الطبع على القلب الناتج عن الكبر يُحْرَمُ الإنسان من العلم ومن الحصول على السعادة بين آيات القرآن بل يُحْرَمُ من تطبيق الذي تحصل به سعادته في الدنيا والآخرة.

أخطر أنواع الكبر هو التكبر بالعلم:

إن أخطر أنواع الكبر هو التكبر بالعلم، لأن العلم لابدَّ أن يرافقَه التواضعُ والاقتناعُ بأنَّ ما لدينا من علم ما هو إلا قليلٌ جدًا، قال أعزُّ من قال: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء:٨٥]، وقال سبحانه: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ [يوسف:٧٦].

ولنا أن نتخيل: لو أعطى الله رجلًا جزءًا من فيوضات علمه ثم تكبَّر على

خلق الله بالعلم الذي علَّمه الله إياه!! فهل يؤتمن مثل هذا الرجل على أسرار القرآن؟

مثل هذا لا ينتفع بما عنده من علم، لأنه لا ينتفع بالقرآن إلا متواضعٌ أمام عظمةِ الله، أمَّا أمثال عُبيد الله بن ظبيان، الذي قام فخطب خطبة أوجز فيها، فناداه الناس من أعراض المسجد: كثّر الله فينا أمثالك. قال: لقد كلّفتم ربَّكم شَططا.(١) مثل هذا المغرور المتكبر لا ينتفع بعلمه.

مكانة العلم في قصة آدم:

- إن للعلم مكانةً عاليةً في قصة آدم، فالله سبحانه علَّم آدم الأسماء ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة:٣١]، وحتى يُظهر للملائكة مكانةَ آدمَ عرض الأسماء على الملائكة فقال تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة:٣١] وهنا جاء رد الملائكة ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة:٣٢]، فأمر الحقُّ سبحانه آدمَ أن يُنبئ بها الملائكة كما قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة:٣٣]، وهنا لما وضح للملائكة أن آدم أعلم منهم تواضعوا، وليس هذا فقط، بل سجدوا له بأمر ربهم ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ ﴾ [البقرة:٣٤]، وهذا

---

(١) العقد الفريد: (٥/ ٣١٢).

هو المطلوب منَّا جميعًا أن نقتدي بأخلاق الملائكة، وأن نتواضع أمام من هم أعلم منا، بل ونعطيهم حقهم بالاعتراف بفضلهم.

- **وَفِي قصة آدم فائدة خطيرة جدًا وهي:** أن صاحب العلم إذا عمل بعلمه ارتفع شأنه، فالملائكة سجدت لآدم بعد أن ظهر علمه بأسماء كل شيء.

كما أن **قصة آدم** تعلمنا أن صاحب العلم إذا لم يعمل بعلمه فسيهبط للأسفل كما أهبط آدم من الجنة إلى الأرض بعد أن أكل من الشجرة ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٣٦﴾ ﴾ [البقرة: ٣٥- ٣٦].

تواضع موسى عليه السلام مع الخضر:

وكما سجد الملائكة لآدم تواضعًا أمام علمه الذي علَّمه الله إياه، تواضع كذلك الكليم موسى عليه السلام أمام من هو أكثر منه علمًا. قال النَّبِيُّ ﷺ: «**قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ، هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ ثَمَّ، فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، وَحَمَلَا حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، حَتَّى كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا وَنَامَا، فَانْسَلَّ الحُوتُ مِنَ المِكْتَلِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ سَرَبًا، وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمَهُمَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا، لَقَدْ لَقِينَا**

مِنْ سفَرِنَا هَذَا نَصبًا، وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ المَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف:٦٣] قَالَ مُوسَى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف:٦٤] فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، إِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ، أَوْ قَالَ تَسَجَّى بِثَوْبِهِ، فَسَلَّمَ مُوسَى، فَقَالَ الخَضِرُ: وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟ فَقَالَ: أَنَا مُوسَى، فَقَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لَا أَعْلَمُهُ، قَالَ: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا، وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا، فَانْطَلَقَا.........[1]

إن موسى عليه السلام ظنَّ أنه الأعلم في زمانه، كما جاء في الحديث السابق: قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ.

وبعد أن علم موسى أن الخضر أكثر منه علمًا، تواضع وأصبح تابعا له، وكلمه بطريقة الطالب لأستاذه **رغم أن موسى أفضل من الخضر عمومًا** فقال كما حكى القرآن: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ [الكهف: ٦٦ - ٦٩].

(١) صحيح البخاري: (١٢٢).

تواضع عمر بن الخطاب أمام علم أبي بكر الصديق:

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ العَرَبِ، قَالَ عُمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**»، فَقَالَ: وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ، فَقَالَ عُمَرُ: «فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ.(١) وهكذا تواضع عمر أمام علم أبي بكر، وليس هذا فقط بل قبَّل رأسه كما ورد عن أبي رجاء العطاردي قال: دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين، ورأيت رجلًا يقبل رأس رجل وهو يقول: أنا فداؤك ولولا أنت لهلكنا، فقلت: من المقبِّل، ومن المقبَّل؟ قالوا: ذاك عمر يقبِّل رأس أبي بكر في قتاله أهل الردة، إذ منعوا الزكاة حتى أتوا بها صاغرين.(٢)

جزاء من تكبر بعلمه:

- **قارون:**

لقد ارتفع شأن قارون بعلمه وأصبح ذا صيت بين الناس قال تعالى: ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ

---

(١) صحيح البخاري: (٧٢٨٤).

(٢) الرياض النضرة في مناقب العشرة: (١/ ١٤٨).

لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٦- ٧٨].

ولما قال هذه الكلمة: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص:٧٨]، خرج على قومه قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾﴾ [القصص:٧٩]، فأصبح من الناس من يتمنى أن يكون مكان قارون.

- وسنة الله ماضية، فكما أهبط آدم لأنه لم ينتفع بعلمه، أهبط قارون، ولكن فارق بين هبوط وهبوط، فآدم أهبط ليختبر ويمتحن في الدنيا.

أما قارون عندما عصى وتكبر بعلمه هبط من الأرض لمسافات تحت الأرض لا يعلمها إلا الله قال أعزُّ من قال: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص: ٨١].

- **بلعام بن باعوراء:**

وضرب الله لنا المثل ببلعام بن باعوراء في القرآن وذكر أن علمه لم ينفعه لأنه لم يتواضع أمام عظمة الله قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا

فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٥].

- ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي: على اليهود أو على الناس

- ﴿ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾ أي: أعطيناه كرامات وفتحنا عليه في فهم آياتنا.

- ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا ﴾ أي: فخرج من الآيات بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره.

- ﴿ فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ أي: فلحقه الشيطان وصار قرينا له

- ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾ أي: فصار من الضالين الكافرين.

* ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٦].

- ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا ﴾: إلى منازل الأبرار من العلماء بِها أي بالآيات.

- ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾: أي: مال إلى الدنيا ورغب فيها.

- ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ ﴾: أي: في إيثار الدنيا ولذاتها على الآخرة ونعيمها.

- ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ ﴾: أي: إن تزجره وتطرده.

- ﴿ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ ﴾ غير مطرود ﴿ يَلۡهَثۡ ﴾.

والمعنى: فصفته التي هي مثل في الخسة، هي صفة الكلب في أخس أحواله وأذلها وهي حال دوام اللهث به سواء حمل عليه أي شد عليه وهيج فطرد، أو ترك غير متعرض له بالحمل عليه، وذلك أن سائر الحيوان لا يكون منه اللهث إلا إذا حرك، أما الكلب فيلهث في الحالين. وسياق الكلام يفهم منه أنه قد حط أبلغ حط حتى أصبح كمثل الكلب ذليلًا دائم الذلة لاهثًا في الحالين.

- **إن** العلم يرفع شأن الإنسان إن اتبع الإنسان رضوان الله ولكنه يهبط بالإنسان إلى الأرض إذا اتبع سخط الله.

✍ أيها القارئ الكريم:

اعلم رحمك الله: أنه لا خير في علم لا يرفع صاحبه إلا مدة قصيرة!!، وهذا ما تفعله كتب أهل الزيغ والتحريف وعلومهم وشبيهاتهم.

إن هؤلاء قد يصلون لعلم يرفع شأن الإنسان في الدنيا، والدنيا قصيرة لا تدوم فيها السعادة.

أما القرآن فإنه يوصل صاحبه للعلم الصحيح ويثبته عنده، ويدوم خيره ليصل للآخرة بأمر الله تعالى.

وإن حصَّل الإنسان علمًا دنيويًا خارج القرآن، كعلم الطب والهندسة مثلًا، فالقرآن يعلمه كيف يحافظ عليه بحفظ الله له في عقله، فعقل صاحب القرآن محفوظ.

- إن أسرار القرآن لن يصل إليها من داخل قلبَه كبرٌ، ولن يقف على

المراد الحقيقي من آيات الله، بل سيتبع عكسها ويضل، قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٦].

- ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾: لأن من شأن التكبر أن يصرف أهله عن النظر والاستدلال على وجوه الخير.

ومعنى صرف هؤلاء المتكبرين عن الانتفاع بآيات الله وحججه، منعهم عن ذلك بالطبع على قلوبهم لسوء استعدادهم لا يتفكرون ولا يتدبرون ولا يعتبرون.

أي: سأطبع على قلوب هؤلاء الذين يعدون أنفسهم كبراء، ويرون أنفسهم أنهم أعلى شأنا من غيرهم، مع أنهم أجهل الناس عقلًا، وأتعسهم حالًا.

وقوله: ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾: صلة للتكبر على معنى يتكبرون ويتطاولون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل، وسفههم المفرط، أو متعلق بمحذوف هو حال من فاعله، أي يتكبرون متلبسين بغير الحق.

ثم بين- سبحانه- ما هم عليه من عناد وجحود فقال: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ ﴾: أي: وإن يروا كل آية من الآيات التي تهدى إلى الحق وترشد إلى

الخير ﴿لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ﴾ لفساد قلوبهم، وحسدهم لغيرهم على ما آتاه الله من فضله، وتكبرهم على الناس.

والمقصود بالآية إما المنزلة فيكون المراد برؤيتها مشاهدتها والإحساس بها عن طريق السماع.

وإمّا ما يعمها وغيرها من المعجزات، فيكون المراد برؤيتها مطلق المشاهدة المنتظمة للسماع والإبصار.

﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ﴾ : أي طريق صلاح الأمر وطريق الهدى ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا﴾ أي طريقًا مع رؤيته أنه رشد.

﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ﴾: أي الضلال، ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾: أي يسيرون فيه.

﴿ذَٰلِكَ﴾: أي الصرف عن آيات الله، ﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي بسبب تكذيبهم بآيات الله، ﴿وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦﴾: غفلة عناد وإعراض لا غفلة سهو وجهل.(١)

لذا أول خطوة في طريق تعلم القرآن واستخراج بعض أسراره هو التواضع في العلم وكسر جدار الكبر فيه. **لأنهما لا يجتمعان: العلم والكبر.**

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: (٥/ ٣٧٦).

الموعظة السابعة عشرة

كيف نحصل على المال

كيف نحصل على المال

قال أعزُّ من قال: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر:٢٠]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات:٨].

إن هاتين الآيتين يؤكد بهما ربُّنا سبحانه وتعالى، على حبِّ الإنسانِ للمال حبًّا شديدًا، وقبل الاستطراد في هذه الموعظة نقف مع معنى الآيتين.

* قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر:٢٠]: أي: حبًّا كثيرًا مع حرص وشره. يقال: جمّ الماء في الحوض، إذا كثر واجتمع، ومنه الجموم للبئر الكثيرة الماء.(١)

* وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات:٨]:أي: وإن هذا الإنسان لشديد الحب لجمع المال، ولكسبه من مختلف الوجوه بدون تفرقة- في كثير من الأحيان- بين الحلال والحرام، ولكنزه والتكثر منه، وبالبخل به على من يستحقه.(٢)

- إن الحب المفرط للمال من الصفات الذميمة، لأنه يؤدي إلى جمعه من

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: (١٥/ ٣٩٢).
(٢) التفسير الوسيط لطنطاوي: (١٥/ ٤٨٤/ ٤٨٥).

كل طريق، بدون تفرقة بين ما يحل منه وما يحرم.(١)

ومن هنا نبدأ موعظتنا فنقول:

إن الله خالق الإنسان، ويعلم ما في قلبه وكيف لا وهو القائل سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: ١٣- ١٤]، فالله يعلم أن الإنسان يحبُّ المالَ حُبًّا شديدًا، وهذا الحبُّ يمكن أن يهلك الإنسان، إذا جمع المال من الحرام.

والله رحيم بعباده، ومن رحمته بعباده أعطاهم في القرآن طرقًا عديدة يجمعون بها المال.

كيف نحصل على المال والثراء السريع؟

إن السِّرَّ موجودٌ بكل وضوحٍ في كتاب الله، ولكن ينقصنا أن نتخلص من مشكلة الريب والشك، وأن نتحلى باليقين.

- وليس المرادُ هنا تركَ السعي، إنما المراد الحصول على التوفيق والنجاح والبركة في مسعانا للحصول على المال بجانب اتخاذ الأسباب الغيبية التي سنتكلم عنها.

- **أولاً: الاستغفار:**

إن أولَّ طريقٍ للحصول على المال هو الاستغفار كما قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: (١٥/ ٣٩٢).

وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

- **وقد يقول قائل**: جربت ولم أحصل على شيء!!. والجواب عليه وعلى أمثاله. أنه جرَّب ولم يكن على يقين.

- إن الاستغفار ليس بترديد عبارات وأوراد، بل إن له شروطًا هي نفسها شروط التوبة النصوح وهي كالآتي:

- الإقلاع عن الذنوب والمعاصي.

- الندم على ما فات.

- العزمُ على عدم العودة للذنوب.

- ردُّ الحقوقِ لأصحابها إنْ كان قد أذنب ذنبًا فيه أخذ لحقوق الناس.

- إن الاستغفار لا يكون ليوم أو يومين ثم ييأس، لأن العبد لا يجرب مع الله، بل هو يستدر رحمة الله عليه ولا يعلم متى تنزل عليه.

- كل ما عليه أن يحافظ على الاستغفار بشروطه السابقة، وبيقين تام أن الله سيحقق له ما وعد، مهما طال الانتظار.

وليعلم أن الزمن الطويل يجعل الكربون ألماسًا والفضلات نفطًا وذرات التراب لؤلؤًا.

- **ثانيًا: إقراض الله قرضًا حسنًا:**

إن الطريقة الثانية للحصول على المال الوفير هو إقراض الله قرضا حسنا قال تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ

وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٤٥].

✍ **قال القرطبي**: والتعبير بالقرض في هذه الآية إِنَّمَا هو تَـأْنِيسٌ وَتَقْرِيـبٌ لِلنَّاسِ بِمَا يَفْهَمُونَهُ، وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، لَكِنَّهُ تَعَالَى شَبَّهَ عَطَاءَ الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا بِمَا يَرْجُو بِهِ ثَوَابَهُ فِي الْآخِرَةِ بِالْقَرْضِ كَمَا شَبَّهَ إِعْطَاءَ النُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ فِي أَخْذِ الْجَنَّةِ بِالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ..»(١).

والمعنى: من هذا المؤمن القوي الإيمان الذي يقدم ماله في الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله، وَفِي غير ذلك من وجوه الخير كمعاونة المحتاجين، وسد حاجة البائسين، ومساعدة الأمة الإسلامية بما يفيدها ويعلي من شأنها، ﴿ فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ ﴾ [البقرة:٢٤٥] أي: فيرد الله- تعالى- إلى هذا الباذل المعطي المقرض بدل ما أعطى وبذل وأقرض أمثالا كثيرة لا يعلم مقدارها إلا الله أكرم الأكرمين. إذ المضاعفة معناها إعطاء الشخص أضعاف أي أمثال ما أعطى وبذل.

وقوله: ﴿ قَرۡضًا حَسَنٗا ﴾ [البقرة:٢٤٥]: حث للناس على إخلاص النية، وتحري الحلال فيما ينفقون، لأن الإنسان إذا تصدق بمال حرام، أو قصد بنفقته الرياء أو المباهاة لا يكون عمله متقبلًا عند الله، وإنما يتقبل الله العمل ويضاعفه لمن قصد به وجهه، وكان المتصدق به مالًا حلالًا خالصًا من الشبهات. فالله- تعالى- طيب لا يقبل إلا ما كان طيبًا.

(١) القرطبي: (٣/ ٢٤٠).

ثم ختم- سبحانه- الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾ [البقرة:٢٤٥].

القبض: ضد البسط. يقال: قبضه بيده يقبضه أي تناوله. وقبض عليه بيده أي أمسكه.

ويقال لإمساك اليد عن البذل قبض ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ﴾ [التوبة:٦٧] أي يمتنعون عن الإنفاق.

والبسط معناه المد والتوسعة. يقال بسط يده أي: مدها. وبسط المكان القوم. وسعهم.

والمعنى: والله- تعالى- بيده الإعطاء والمنع فهو يسلب تارة ويعطي أخرى، أو يسلب قومًا ويعطي آخرين، أو يضيق على بعض ويوسع على بعض حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكمة والمصلحة، وما دام الأمر كذلك فلا تبخلوا بما وسع عليكم كيلا تتبدل أحوالكم من الغنى إلى الفقر، ومن السعة إلى الضيق. وأنتم جميعا سترجعون إليه وحده، وسيجازي- سبحانه- الأسخياء بما يستحقون من كريم الثواب والبخلاء بما هم أهله من شديد العقاب.(١)

- إن المقرض لماله يجب أن يتنبه فلا يتعجل الله في السداد ولا يلح طلبًا لعودة ماله ولا يمن على الله أنه أقرضه ولا يؤذيه بكلامه.

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: (١/ ٥٦٠/ ٥٦١). بتصرف واختصار.

وهو يتعهد له بالأضعاف عند السداد فهو تجارة مع الله ﷻ ومن أوفى بعهده من الله؟ فقط نحتاج لليقين وعدم التجربة.

لماذا أتصدق ولا يعود لي أضعاف المال؟

- إن من الناس من يتصدق، ولا يجد أثرًا لصدقته فيقول: لماذا أتصدق ولا يعود لي أضعاف المال؟

والجواب على هذا السؤال بكل يسر: أن الصدقة التي تعود أضعافًا على صاحبها هي الصدقة الحسنة فقط، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [النساء: ٤٠].

كيف تكون الصدقة حسنةً ومقبولةً:

- إن الصدقة تكون حسنةً ومقبولةً بشروط وهي كالآتي:

أ - أن لا يرجو بها صاحبُها إلا وجه الله تعالى، ولا يرجوا من الناس جزاءً ولا شكورًا قال أعزُّ من قال: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإنسان: ٨- ٩].

ب - أن يحافظ على نيته ثابتة بأن تكون ابتغاء وجه الله قبل وأثناء وبعد الإنفاق ويصر عليها فلا يغيرها ولا يُدخل معها نوايا أخرى وخاصة الرياء وطلب الجزاء والشكر، قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

ج – أن لا يُتْبِعَ المتصدقُ صَدَقته بِمَنٍّ ولا أَذىً، سواء كان أَمَام من تصدق عليهم أو من خلفهم بغيبة وفضيحة، أو حتى في نفسه كأن يقول القائل: تصدقت لهم ولا خير فيهم. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٤].

د- أن لا يتعجل ربه سبحانه وتعالى، في أن يرجع له جزاء صدقته كأن يقول: تصدقت ولم أستفد بشيء.

هـ – أن لا يرتاب في وعد الله بالمضاعفة ولْيَكُن على يقين ولو تأخر.

- **ثالثًا: اتباع ما أنزل الله:**

والطريقة الثالثة للحصول على المال اتباع ما أنزل الله قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٢-٣].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [المائدة:٦٦]، فاتباع منهج الله يؤدي للنجاح في الدنيا والآخرة.

فكرة مقترحة:

لضمان اتباعك لكل ما أنزل الله أحضر دفترًا وقلمًا وابدأ من سورة الفاتحة واقرأ القرآن، وكلما صادفت أمرًا من أوامر الله وتعلم أنك لا تتبعه سجِّله في الدفتر إلى أن تختم المصحف، ثم احذف الأوامر المتشابهة، وابدأ باتباعها، وافحص نفسك كل جمعة لترى مدى تحسنك في اتباع القرآن، وامسح الأوامر التي أصبحت تتبعها وهكذا، إلى أن تنتهي منها ويصبح خلقك القرآن. عندها سيتحقق فيك وعد الله سبحانه وتعالى.

- **رابعًا: الإيمان والتقوى:**

والطريقة الرابعة للحصول على المال الإيمان والتقوى كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٦].

فلابد من الإيمان والتقوى والعمل الصالح، لأن الإيمان وحده من دون عمل لا قيمة له إطلاقًا.

والسياق القرآني هنا لا يروي حادثة، إنما يكشف عن سنة. ولا يعرض سيرة قوم إنما يعلن عن خطوات قدر.. ومن ثم يتكشف أن هناك ناموسًا تجري عليه الأمور وتتم وفقه الأحداث ويتحرك به تاريخ «الإنسان» في هذه الأرض. وأن الرسالة ذاتها - على عظم قدرها - هي وسيلة من وسائل تحقيق الناموس - وهو أكبر من الرسالة وأشمل - وأن الأمور لا تمضي جزافًا وأن الإنسان لا يقوم وحده في هذه الأرض - كما يزعم الملحدون بالله في هذا الزمان! - وأن كل ما يقع في هذا الكون إنما يقع عن تدبير، ويصدر عن

حكمة، ويتجه إلى غاية. وأن هنالك في النهاية سنةً ماضيةً وفق المشيئة الطليقة التي وضعت السنة، وارتضت الناموس..

ووفقًا لسنة الله الجارية وفق مشيئته الطليقة كان من أمر تلك القرى ما كان، مما حكاه السياق. ويكون من أمر غيرها ما يكون!

إن إرادة الإنسان وحركته - في التصور الإسلامي - عامل مهم في حركة تاريخه وَفِي تفسير هذا التاريخ أيضًا.

ولكن إرادة الإنسان وحركته إنما يقعان في إطار من مشيئة الله الطليقة وقدره الفاعل.. والله بكل شيء محيط.

● **خامسًا: شكر نعم الله:**

والطريقة الخامسة للحصول على المال هي شكر نعم الله، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧ ﴾ [إبراهيم:٧].

وهذه الآية أصلٌ في أن الشكر يستدعي المزيد من النِعَم، فإذا أردت أن تزيد النعم التي لله عليك فاشكرها.

والله يبين لنا وللناس جميعًا ما رتبه جزاء على الشكر والكفران: ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴾ [إبراهيم:٧].. ونقف نحن أمام هذه الحقيقة الكبيرة: حقيقة زيادة النعمة بالشكر، والعذاب الشديد على الكفر.

نقف نحن أمام هذه الحقيقة تطمئن إليها قلوبنا أول وهلة لأنها وعد من الله صادق. فلا بد أن يتحقق على أية حال.. فإذا أردنا أن نرى مصداقها في الحياة، ونبحث عن أسبابه المدركة لنا، فإننا لا نبعد كثيرا في تلمس الأسباب.

- إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية. فالخير يشكر لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعي في الفطرة المستقيمة.. هذه واحدة.. والأخرى أن النفس التي تشكر الله على نعمته، تراقبه في التصرف بهذه النعمة. بلا بطر، وبلا استعلاء على الخلق، وبلا استخدام للنعمة في الأذى والشر والدنس والفساد.

وهذه وتلك مما يزكي النفس، ويدفعها للعمل الصالح، وللتصرف الصالح في النعمة بما ينميها ويبارك فيها ويرضي الناس عنها وعن صاحبها، فيكونون له عونا ويصلح روابط المجتمع فتنمو فيه الثروات في أمان. إلى آخر الأسباب الطبيعية الظاهرة لنا في الحياة. وإن كان وعد الله بذاته يكفي لاطمئنان المؤمن، أدرك الأسباب أولم يدركها، فهو حق واقع لأنه وعد الله.

والكفر بنعمة الله قد يكون بعدم شكرها. أو بإنكار أن الله واهبها، ونسبتها إلى العلم والخبرة والكد الشخصي والسعي! كأن هذه الطاقات ليست نعمة من نعم الله!

وقد يكون بسوء استخدامها بالبطر والكبر على الناس واستغلالها للشهوات والفساد.. وكله كفر بنعمة الله.. والعذاب الشديد قد يتضمن محق النعمة. عينا بذهابها. أو سحق آثارها في الشعور. فكم من نعمة تكون بذاتها نقمة يشقى بها صاحبها ويحسد الخالين!

وقد يكون عذابًا مؤجلًا إلى أجله في الـدنيا أو في الآخـرة كمـا يشـاء الله. ولكنه واقع لأن الكفر بنعمة الله لا يمضي بلا جزاء.

ذلك الشكر لا تعود على الله عائدته. وهذا الكفر لا يرجـع عـلى الله أثـره. فالله غني بذاته محمود بذاته، لا بحمد الناس وشكرهم على عطاياه.

الموعظة الثامنة عشرة

حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ

حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ

يقول صاحب العظمة والكبرياء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء:٤٣].

إن الإنسان إذا تدبر في المخلوقات، سيجد أنَّ كلَّ شيء من المخلوقات له صورة حسية وحقيقة معنوية، ومن بين الأمور التي لها الصورة الحسية والحقيقة المعنوية: (قضية السُّكْرِ).

فالسُّكْرُ له صورته الحسيَّة المعروفة بسبب الخمر، والناس في أول الإسلام كانوا يشربون الخمر قبل تحريمها، وكان منهم من يصلي ولا يعي ما يقول بسبب أنه سكران بسبب الخمر، ونزل القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء:٤٣]، والمعنى كما يقول ابن عجيبة: لا تقوموا إليها وأنتم سكارى من خمر، أو غلبة نوم، أو شدة غفلة، حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ في صلاتكم، وتتدبروا ما تقرءون فيها، فالصلاة من غير حضور خاوية، وعند الخصوص باطلة.(١)

- أما الصورة المعنوية للسُّكْرِ فهو أن يكون الإنسان سكرانًا غائبَ

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: (١/ ٥٠٧).

الوعي بسبب الدنيا، ونحن في هذا الزمان وللأسف الشديد، أصابنا سُكْرٌ بسبب الدنيا.

✍ **يقول ابن عجيبة في إشارة من إشاراته:** يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا صلاة الحضرة القدسية، وأنتم سكارى بحب الدنيا الدنية، حتى يذهب عنكم سُكْرُ حبها، وتعلموا ما تقولون في مناجاة خالقها.(١)

إن من الواجب على المسلم عندما يتهيأ للصلاة أن يتجنب كلَّ ما يتعارض مع الخشوع فيها، لأنَّ الصلاةَ مناجاةٌ ووقوفٌ بين يدي الله تعالى، ومن شأن المناجي لله تعالى أن يتفرغ لذلك، وأن يكون على درجة من العلم والفهم تمكنه من الوقوف الخاشع بين يدي الله رب العالمين. وحتى يتضح المعنى الذي نريد إيصاله نذكر هذه القصة الرمزية.

فتوى عاشق:

رأى قيسٌ بنُ الملوَّح كلبَ ليلى فأسرع خلفه حتى يدله على مكان محبوبته فمرَّ في طريقه بقوم يصلون، ولما رجع مَرَّ بهم فسألوه، قد مررت بنا ونحن نصلي فلم لم تصلِّ معنا، قال: والله ما رأيتكم، ووالله لو كنتم تحبون الله، كما أحب ليلى لما رأيتموني!!

كنتم بين يدي الله ورأيتموني، وأنا بين يدي كلبها ولم أركم، أعيدوا صلاتكم يرحمكم الله.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: (١/ ٥٠٨).

إن الدنيا أصابت الكثيرَ من الناس بالسُّكْرِ، فشغلتهم عن تدبر كتاب الله وعن التركيز أثناء قراءته ولنتأمل قوله: ﴿ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء:٤٣]، فربنا لم يقل: حتى تحفظوا ما تقولون، إنما قال: ﴿ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء:٤٣] فالأصل أن يعرف الواحد منا بين يدي من يقف، وماذا يقول ومن يخاطب؟.

وشبيه بذلك قول صاحب العظمة والكبرياء: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩] فالله لم يقل لنبيه محمد ﷺ (قل لا إله إلا الله) وإنما قال: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩]، فلو علمنا حقيقة هذه الكلمة، لما استهنَّا بمقتضاها.

إن القاسم المشترك بين الآيتين العلم والفقه لما يقوله الإنسان أو يقرؤه ﴿ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ ﴾ [النساء:٤٣]، ﴿ فَٱعْلَمْ ﴾ [محمد:١٩]. والعلم والفقه لن يكون إلا بالتدبر.

✍ **قَالَ ابْنُ الْقَيِّم** رحمه الله فِي «حَادِي الأَرْوَاحِ»: وَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ مَطْلوبٍ مِفْتَاحًا يُفْتَحُ بِهِ فَجَعَلَ مِفْتَاحَ الصَّلاةِ: الطَّهورِ، وَمِفْتَاحَ: الحَجِّ الإِحْرَامُ، وَمفتاحَ البِرِّ: الصَّدَقَةُ، وَمِفْتَاحَ الجَنَّةِ: التَّوْحِيدُ، ومِفتاحَ العِلم: حُسْنُ السَّؤَالِ، وَحُسْنَ الإِصْغَاءِ، وَمفتاحَ النَّصْرِ والظَّفَرِ: الصَّبْرُ، وَمفتاحَ الْمَزِيدِ: الشُّكْرُ، وَمِفْتَاحَ الوِلايَةِ: المَحَبَّةُ، وَمِفْتَاحَ الرَّغْبَةِ فِي الآخِرةِ: الزُّهْدَ في الدُّنْيَا.

وَمفتاحَ الإيمانِ: التَّفكرُ فِيمَا دَعَا اللهُ عِبَادَهُ إلى التَّفكُر فيهِ، وَمَفْتَاحَ

الدُّخُولِ عَلَى اللهِ: إسلامَ القَلْبِ وَسَلامَتَهُ لَهُ والإخْلاصَ لَهُ في الحبِّ والبُغْضِ لَهُ والفعلَ والتَّرْكَ، ومفتاحَ حياةِ القَلْبِ: تَدبّرَ القرْآنِ.

ثمار تدبر القرآن:

قال ابن القيّم: أمّا التّأمّل في القرآن: فهو تحديق نظر القلب إلى معانيه. وجمع الفكر على تدبّره وتعقّله. وهو المقصود بإنزاله، لا مجرّد تلاوته بلا فهم ولا تدبّر، قال الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص:٢٩].

* وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد:٢٤].

* وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون:٦٨].

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الزخرف:٣].

وقال الحسن: «نزل القرآن ليتدبّر ويعمل به. فاتّخذوا تلاوته عملًا».

فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبّر القرآن، وإطالة التّأمّل. وجمع الفكر على معاني آياته. فإنّها تطلع العبد على معالم الخير والشّرّ بحذافيرها، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتتلّ في يده[1] مفاتيح كنوز السّعادة والعلوم النّافعة وتثبّت

(١) تل الشيء في يده: وضعه فيها.

قواعد الإيمان في قلبه، وتشيّد بنيانه، وتوطّد أركانه، وتريه صورة الدّنيا والاخرة، والجنّة والنّار في قلبه، وتحضره بين الأمم وتريه أيّام الله فيهم، وتبصّره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرّفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبّه وما يبغضه، وصراطه الموصّل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطّريق وآفاتها، وتعرّفه النّفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصحّحاتها وتعرّفه طريق أهل الجنّة وأهل النّار وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم. ومراتب أهل السّعادة وأهل الشّقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة تعرّفه الرّبّ المدعوّ إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه.

وتعرّفه مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشّيطان، والطّريق الموصّلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستّة أمور ضروريّ للعبد معرفتها، ومشاهدتها ومطالعتها.

فتشهده الآخرة حتّى كأنّه فيها، وتغيّبه عن الدّنيا حتّى كأنّه ليس فيها، وتميّز له بين الحقّ والباطل في كلّ ما اختلف فيه العالم، فتريه الحقّ حقًّا، والباطل باطلًا. وتعطيه فرقانًا ونورًا يفرّق به بين الهدى والضّلال، والغيّ والرّشاد، وتعطيه قوّة في قلبه، وحياة واسعة وانشراحًا وبهجة وسرورًا. فيصير في شأن والنّاس في شأن آخر.

فإنّ معاني القرآن دائرة على التّوحيد وبراهينه، والعلم بالله وما له من

أوصاف الكمال، وما ينزّه عنه من سمات النّقص، وعلى الإيمان بالرّسل، وذكر براهين صدقهم، وأدلّة صحّة نبوّتهم، والتّعريف بحقوق مرسلهم، وعلى الإيمان بملائكته، وهم رسله في خلقه وأمره، وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته، وما جعلوا عليه من أمر العالم العلويّ والسّفليّ، وما يختصّ بالنّوع الإنسانيّ منهم، من حين يستقرّ في رحم أمّه إلى يوم يوافي ربّه ويقدم عليه، وعلى الإيمان باليوم الاخر وما أعدّ الله فيه لأوليائه من دار النّعيم المطلق، الّتي لا يشعرون فيها بألم ولا نكد ولا تنغيص. وما أعدّ لأعدائه من دار العقاب الوبيل، الّتي لا يخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح. وتفاصيل ذلك أتمّ تفصيل وأبينه. وعلى تفاصيل الأمر والنّهي، والشّرع والقدر، والحلال والحرام، والمواعظ والعبر، والقصص، والأمثال، والأسباب، والحكم، والمبادئ، والغايات، في خلقه وأمره.

فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربّه بالوعد الجميل، وتحذّره وتخوّفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثّه على التّضمّر والتّخفّف للقاء اليوم الثّقيل، وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السّبيل.

وتصدّه عن اقتحام طرق البدع والأضاليل وتبعثه على الازدياد من النّعم بشكر ربّه الجليل، وتبصّره بحدود الحلال والحرام، وتوقفه عليها لئلّا يتعدّاها فيقع في العناء الطّويل، وتثبّت قلبه عن الزّيغ والميل عن الحقّ والتّحويل. وتسهّل عليه الأمور الصّعاب والعقبات الشّاقّة غاية التّسهيل. وتناديه كلّما فترت عزماته، وونى في سيره: تقدّم الرّكب وفاتك الدليل، فاللّحاق اللّحاق، والرّحيل الرّحيل، وتحدو به وتسير أمامه سير الدّليل.

وكلّما خرج عليه كمين من كمائن العدوّ أو قاطع من قطّاع الطّريق نادته: الحذر الحذر، فاعتصم بالله، واستعن به، وقل: حسبي الله ونعم الوكيل.

وَفِي تَأَمُّلِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ، وَتَفَهُّمِهِ، أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْحِكَمِ وَالْفَوَائِدِ.

وَبِالْجُمْلَةِ فَهُوَ أَعْظَمُ الْكُنُوزِ، طَلْسَمُهُ الْغَوْصُ بِالْفِكْرِ إِلَى قَرَارِ مَعَانِيهِ.

نَزِّهْ فُؤَادَكَ عَنْ سِوَى رَوْضَاتِهِ ... فَرِيَاضُهُ حِلٌّ لِكُلِّ مُنَزَّهِ
وَالْفَهْمُ طَلْسَمٌ لِكَنْزِ عُلُومِهِ ... فَاقْصِدْ إِلَى الطَّلْسَمِ تَحْظَ بِكَنْزِهِ
لَا تَخْشَ مِنْ بِدَعٍ لَهُمْ وَحَوَادِثٍ ... مَا دُمْتَ فِي كَنَفِ الْكِتَابِ وَحِرْزِهِ
مَنْ كَانَ حَارِسَهُ الْكِتَابُ وَدِرْعَهُ ... لَمْ يَخْشَ مِنْ طَعْنِ الْعَدُوِّ وَوَخْزِهِ
لَا تَخْشَ مِنْ شُبُهَاتِهِمْ وَاحْمِلْ إِذَا ... مَا قَابَلَتْكَ بِنَصْرِهِ وَبِعِزِّهِ
وَاللهِ مَا هَابَ امْرُؤٌ شُبُهَاتِهِمْ ... إِلَّا لِضَعْفِ الْقَلْبِ مِنْهُ وَعَجْزِهِ
يَا وَيْحَ تَيْسٍ ظَالِعٍ يَبْغِي مُسَا ... بَقَةَ الْهِزَبْرِ بِعَدْوِهِ وَبِجَمْزِهِ
وَدُخَانِ زِبْلٍ يَرْتَقِي لِلشَّمْسِ يَسْـ ... ـتُرُ عَيْنَهَا لَمَّا سَرَى فِي أَزِّهِ
وَجَبَانِ قَلْبٍ أَعْزَلٍ قَدْ رَامَ يَأْسِـ ... ـرُ فَارِسًا شَاكِي السِّلَاحِ بِهَزِّهِ.(١)

من أقوال العلماء في التدبر:

عن محمّد بن كعب القرظيّ قال: «لأن أقرأ في ليلتي حتّى أصبح بـ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ [الزلزلة]، و﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة]، لا أزيد عليهما، وأتردّد

(١) مدارج السالكين: (١/ ٤٥٠/ ٤٥١).

فيهما، وأتفكّر أحبّ إليّ من أن أهذّ[1] القرآن ليلتي هذّا- أو قال- أنثره نثرا».[2]

✍ **قال الشّافعيّ** رحمه الله: «استعينوا على الكلام بالصّمت، وعلى الاستنباط بالفكر».

وقال أيضًا: «صحّة النّظر في الأمور نجاة من الغرور، والعزم في الرّأي سلامة من التّفريط والنّدم، والرّؤية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة، ومشاورة الحكماء ثبات في النّفس وقوة في البصيرة، ففكّر قبل أن تعزم، وتدبّر قبل أن تهجم، وشاور قبل أن تقدم».[3]

✍ **قال الفضيل**: «إنّما نزل القرآن ليعمل به فاتّخذ النّاس قراءته عملا، قيل: كيف العمل به؟ قال: ليحلّوا حلاله، ويحرّموا حرامه، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه، ويقفوا عند عجائبه».[4]

الحد الأدنى المطلوب عند قراءة القرآن:

إننا إذا أردنا أن نقرأ القرآن فالحد الأدنى أن نقرأ القرآن كأي كتاب، لأن المعتاد أننا عندما نشرع في قراءة كتاب أو مجلة أو جريدة فإننا نعقل ما نقرؤه، وإذا ما شردنا في موضع من المواضع عُدنا بأعيننا إلى الوراء، وأعدنا قراءة ما

---

(١) أهذّ: أي أن أقرأه بسرعة.
(٢) كتاب الزهد لابن المبارك: (٩٧).
(٣) الإحياء (٤/ ٤٢٥).
(٤) انظر اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي: (٧٦).

فات على عقولنا، وما دفعنا إلى ذلك إلا لنفهم المراد من الكلام.

وهذا عين ما نريده مع القرآن: أن نقرأه بحضور ذهن، فإذا ما شردنا أو تشتَّتَ فكرُنا في وقت من الأوقات علينا أن نعيد الآيات التي شرد فيها ذهننا.

نعم في البداية سنجد صعوبة في تطبيق هذه الوسيلة بسبب تعودنا على التعامل مع القرآن كألفاظ مجردة من معانيها، ولكن بالمداومة والمثابرة سنعتاد بمشيئة الله القراءة بتركيز وبدون زيغ أو شرود للقلب والفكر.

ولنتذكر دائمًا قول الله ﷻ: ﴿ **وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠٤].

ولكن في بعض الأوقات قد نبدأ القراءة فنجد أنفسنا وقد غلبها النعاس، وأصبحنا لا ندري ما نقول، فماذا نفعل إذا ما فشلنا في جمع الذهن مع القراءة بعد العديد من المحاولات؟ علينا عندئذ التوقف بنية العودة إليها في وقت آخر.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ، فَاسْتَعْجَمَ الْقُرْآنُ**[1] **عَلَى لِسَانِهِ، فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ، فَلْيَضْطَجِعْ**».[2]

وليكن مقياس استمرارنا في القراءة قول الحسن بن علي رضي الله عنهما: «اقرأ القرآن ما نهاك فإذا لم ينهك فلست تقرأه».[3]

(١) (فاستعجم القرآن) أي استغلق ولم ينطلق به لسانه لغلبة النعاس.
(٢) صحيح مسلم: (٧٨٧).
(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن: (٦٣).

حال من عاشوا نزول القرآن أول مرة:

لقد عاش الذين أُنزل القرآن لهم أول مرة فترة عجيبة في كنف السماء موصولين بالله مباشرة: يطلعهم كل حين على ما في نفوسهم.. ويشعرهم بأن عينه عليهم.. ويحسبون هم حساب هذه الرقابة.. وحساب هذه الرعاية في كل حركة.. وَفِي كل هاجسة تخطر في قلوبهم. ويلجؤون إليه أول ما يلجؤون واثقين أنه قريب مجيب.

ومضى ذلك الجيل مثالًا عجيبًا وصورة مضيئة للإسلام، وبقي بعده القرآن كتابًا مفتوحًا يهتدي به من شاء موصولًا بالقلب البشري، يصنع به حين ينفتح له ما لا يصنعه أي أمر آخر، ويحول مشاعره بصورة تحسب أحيانًا في الأساطير.

القرآن العظيم منهج واضح كامل:

وبقي هذا القرآن العظيم منهجًا واضحًا كاملًا صالحًا لإنشاء حياة إنسانية نموذجية في كل بيئة، وَفِي كل زمان، حين يعمل به بدون تحريف أو تعطيل.

وقد أنزل الله هذا القرآن في هذه الليلة المباركة أولًا للإنذار والتحذير، فالله يعلم غفلة هذا الإنسان ونسيانه، وحاجته إلى الإنذار والتنبيه.

وهذه الليلة المباركة بنزول القرآن كانت فيصلًا بهذا التنزيل، إذ فيها يفرق كل أمر حكيم، وقد فرق الله بهذا القرآن في كل أمر، وفصل فيه كل شأن، وتميز الحق من الباطل، ووضعت الحدود، وأقيمت المعالم اللازمة لرحلة البشرية كلها بعد تلك الليلة إلى يوم الدين، وكل ذلك بإرادة الله وأمره.

وكان ذلك كله رحمة بالبشرية إلى يوم الدين، فما أعظم بركة تلك الليلة، وما أعظم القرآن الذي أنزل فيها وما أعظم كرامة هذا الإنسان على ربه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الدخان: ٣ – ٧].

وتتجلى رحمة الله بالبشر كما تتجلى في تنزيل هذا القرآن بهذا اليسر، الذي يجعله سريع اللصوق بالقلوب، سريع الفهم للعقول، ويجعل الاستجابة له تتم بسهولة، كما تتم دورة الدم في العروق، وتحول الكائن البشري إلى إنسان كريم، والمجتمع البشري إلى حلم جميل.

إن تدبر القرآن يزيل الغشاوة عن القلوب، ويفتح المنافذ، ويسكب النور، ويحرك المشاعر، وتستنير به الروح: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٤].

إن الأقفال التي ركبتها النفس والشيطان من الأموال والأولاد، والشهوات والشبهات، تحول بين القلوب وبين القرآن، تحول بينها وبين النور، تحول بينها وبين الله.

فإن استغلاق القلوب كاستغلاق الأقفال التي لا تسمح بالهواء والنور.

إن المعجزة الكبرى التي جاء بها محمد ﷺ هي القرآن الكريم، الذي يوجه العقل البشري إلى آيات الله في الأنفس والآفاق، وما فيهما من إعجاز ظاهر.

فأما ما وقع فعلًا للرسول ﷺ من خوارق شهدت بها روايات صحيحة، فكانت إكرامًا من الله لعبده، لا دليلًا لإثبات رسالته.

القرآن جاء ليقف بالقلب في مواجهة الكون كله:

وقد جاء القرآن الكريم ليقف بالقلب البشري في مواجهة الكون كله، وما فيه من آيات الله القائمة الثابتة، ويصله بتلك الآيات في كل لحظة، لا مرة عارضة في زمان محدود، يشهدها جيل من الناس في مكان محدود، وكلها يلتقي فيها الكمال بالجلال والجمال، وتستجيش لها القلوب، وتؤدي إلى الإيمان العميق.

وأجل نعم الله على الإطلاق إنزاله كتابه العظيم على عبده ورسوله محمد - ﷺ -، ولذا حمد الله نفسه، وَفِي ضمنه إرشاد العباد ليحمدوه على إرسال الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليهم كما قال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف: ١ - ٣].

القرآن كتاب كامل من جميع الوجوه:

وقد وصف الله كتابه العظيم بوصفين يدلان على أنه كامل من جميع الوجوه وهما:

الوصف الأول: نفي العوج عنه كما قال صاحب العظمة: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ

لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزمر: ٢٧- ٢٨].

الوصف الثاني: إثبات أنه مقيم مستقيم، كما قال صاحب الكبرياء: ﴿ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الحج:٦٧]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٣﴾ ﴾ [المؤمنون:٧٣]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى:٥٢].

فنفي العوج يقتضي أنه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عبث.

وإثبات الاستقامة يقتضي أنه لا يخبر ولا يأمر إلا بأَجَلِّ الإخبارات، وهي الأخبار التي تملأ القلوب معرفة وإيمانًا ورحمةً وعلمًا كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومنها الغيوب المتقدمة والمتأخرة، وأن أوامره ونواهيه تزكي النفوس وتطهرها، وتنميها وتكملها؛ لاشتمالها على كمال العدل والقسط والإخلاص، والعبودية لله رب العالمين وحده لا شريك له.

وَفِي ذكر التبشير ما يقتضي ذكر الأعمال الموجبة للمبشر به، وهو أن هذا القرآن الكريم قد اشتمل على كل عمل صالح موصل لما تستبشر به النفوس وتفرح به الأرواح في الدنيا بالسعادة والطمأنينة، وَفِي الآخرة بالجنة ورضوان الله.

ومن أراد أن ينتفع بالقرآن الكريم فليأت إليه بقلب سليم، بقلب خالص، بقلب يتقي الله ويخشاه، فالتقوى في القلب هي التي تؤهله للانتفاع بهذا

الكتاب، وعندئذ يتفتح القلب عن أسراره وأنـواره، ويسـكبها في هـذا القلـب الذي جاء إليه متقيًا: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:٢].(١)

✍ **ختامًا أقول**: يجب على العاقل أن يتنبه لحقيقة الدنيا التي وضحها لنا القرآن: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٥]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ [النساء:٧٧]، وقال تعالى: ﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة:٣٨].

إن الدنيا قليلة بجانب الآخرة، ولكنها كالخمر تغطي العقل فيسكر بها الإنسان، ويعمى عن الآخرة، فيكون كما قـال القـرآن عالمًـا بالـدنيا جـاهلًا بالآخرة، وَفِي حال هؤلاء يقول الرسول ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ كُلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ صَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، جِيفَةٍ بِاللَّيْلِ، حِمَارٍ بِالنَّهَارِ، عَالِمٍ بِالدُّنْيَا، جَاهِلٍ بِالْآخِرَةِ**».(٢)

- **الذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الـدنيا**: يعلمـون أمـر معاشـهم كيـف يكتسبون، وكيف يتّجرون، ومتى يغرسون ويزرعون، ومتى يحصدون، وكيف يعيشون ويبلون، أما شأن الآخرة فهم عنها ساهون وبها جاهلون، لا يتفكرون فيها ولا لأجلها يعملون.

---

(١) موسوعة فقه القلوب: (٢/ ١٥٤٧/ ١٥٥٠).

(٢) السنن الكبرى للبيهقي: (١٠/ ٣٢٧)، وانظر الصحيحة: (١٩٥)، وصحيح الجامع: (٨٢٦).

وهؤلاء الذين يعلمون دنياهم إذا فتح الله عليهم بالمال والدنيا يظنون أن هذا دليل على حب الله لهم فيغترون بنعم الله عليهم، فيظن أحدهم أن هذه النعم إنما هي أصل لرضا الله عنه، ويقول: لولا أن الله ﷻ قد رضي عني ما أنعم عليَّ بهذه النعم! فهو مغتر بنعم الله ونسي هذا المسكين أنه مستدرج، ولا يفيق من سُكْرِهِ بالدنيا إلا بِسَكْرَةِ الموت قال صاحب العظمة: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾ [ق: ١٩ – ٢٢].

الموعظة التاسعة عشرة

احذر أن يضيع عمرك

احذر أن يضيع عمرك

القرآن يتحدث عن الوقت:

لقد أقسم الله تبارك وتعالى بالوقت لعظمه، فقال سبحانه: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤﴾ [الفجر:١ - ٤].

كما أقسم الله ﷻ بالضحى والليل إذا سجى، فقال ﷻ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣﴾ [الضحى:١ - ٣].

كما أقسم الله ﷻ بالعصر، فقال: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العصر:١ - ٣].

وقال ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣﴾ [الليل:١ - ٣]. وكل هذا قسم بالزمن(١)، من أجل أن يلفت أنظارنا إلى خطر المقسم به.

---

(١) الله ﷻ رب كل شيء وخالقه، يقسم بما يشاء من خلقه، أما العبد إذا أراد أن يقسم فلا يجوز له أن يقسم إلا بالله ﷻ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ**». السلسلة الصحيحة: (١١٦٦).

الأدلة من السنة المطهرة على أهمية الوقت:

دلَّت السنة المشرفة على ما دلت عليه هذه الآيات الكريمات من خطر العمر وخطر الوقت: عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ**».(١)

* وَفِي لفظ: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ، عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ**».(٢)

* وَفِي لفظ: عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ؟، وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ**»(٣)

- **فيُسأل العبد سؤالين**: سؤال عن العمر عامة، وسؤال عن وقت القوة والفتوة والحركة والنشاط وهو وقت الشباب، فيسأل عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه.

ولماذا السؤال عن العمر إجمالًا وعن الشباب خاصة؟ أليس الشباب قطعة من العمر؟ فلماذا التركيز على مرحلة الشباب؟

---

(١) سنن الترمذي: (٢٤١٧) وانظر: السلسلة الصحيحة: (٩٤٦).
(٢) سنن الترمذي: (٢٤١٦): وانظر: صحيح الجامع: (٢٥٣٠).
(٣) مسند الروياني: (١٣١٣) وانظر: صحيح الجامع: (٢٥٣١).

الجواب: لأن الشباب أحلى سنين العمر وأقواها، فإن لم يصرفه الإنسانُ لله فكيف سيكون الجواب؟ وما هي حجته التي سيدلي بها؟!

قال سبحانه: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأعراف:٦ - ٩] فهل تأملنا شدة الوعد والوعيد؟

* وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ**».(١)

وأكثر الناس للأسف لا يعرف قدر هاتين النعمتين، بل إن أكثر الناس يضيع صحته في غير طاعة الله عز وجل، وَفِي غير ما يقربه إليه سبحانه، كما أنَّ أكثر الناس يضيع وقت الفراغ في غير طاعة الله عز وجل، فكم من أوقات تنفق في المباحات، بل كم من أوقات تنفق في المعاصي، ويبارز بها رب الأرض والسماوات.

وكما يقولون: **إضاعة الوقت من علامة المقت**، أي: من علامة مقت الله عز وجل للعبد أن يضيع العبد أوقاته.

يقولون: لنقتل الوقت. هل الوقت عدو حتى تقتله؟!

الوقت نعمة من أعظم نعم الله عز وجل علينا، فمن عرف هذه النعمة واستعملها في طاعة الله عز وجل أدرك جنة الله عز وجل، ونال رحمته.

(١) صحيح البخاري: (٦٤١٢).

* قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ».[1] والمغبون: من باع شيئًا بأقل من ثمنه، أو اشترى شيئًا بأكثر من ثمنه، فهو مغبون؛ لأنه أضاع حظه، وأكثر الناس مغبون في شيئين: في الصحة والفراغ، ومن أسماء يوم القيامة يوم التغابن؛ لكثرة المغبونين فيه، ولم يكن هذا الغبن يوم القيامة، وإنما كان الغبن في الدنيا.

- ومن هنا يجب أن تعلم أنك ستسأل عن الوقت، وستحاسب عما عملت فيه، فإن كنتَ صالحًا ستفوز، وإن كنتَ مضيعًا فستندم وتخسر، قال سبحانه وهو يسأل العباد عن ذلك: ﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ ﴾ [المؤمنون:١١٢]، فأمَّا المضيعون اللاهون المفرطون فيقولون: ﴿ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ ﴾ [المؤمنون:١١٣].

فيأتي التوبيخ الشديد من رب العالمين: ﴿ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ ﴾ [المؤمنون:١١٤ - ١١٥].

تضييع كثير من الناس لأوقاتهم وقلة من يوفق للانتفاع بها:

أكثر الناس يضيعون أعمارهم في غير طاعة الله ﷻ، وَفِي غير ما يعود عليهم بالخير في الدنيا والآخرة.

- **ومن علامة خذلان الله ﷻ للعبد:** أن يجعل شغله فيما لا يعنيه، ومن

---

(١) صحيح البخاري: (٦٤١٢).

حسن إسلام المرء شغله فيما يعنيه، أي: فيما يعود عليه بالخير في الدنيا والآخرة.

فأكثر الناس يبيعون أعمارهم وأوقاتهم وأنفسهم بثمن بخس دراهم معدودة وهم فيها من الزاهدين، إما في تحصيل العرض الزائل وهو عرض الدنيا، وإما في إنفاق الأنفاس في طلب المال، ولا يأتيه إلا ما قدر له منه، أو ينفق عمره في المعاصي، أو في المباحات، ولا يتقرب بذلك إلى رب الأرض والسماوات.

وقليل من الناس الموفق الذي يعرف قيمة الوقت وقيمة العمر، وينفق ذلك في طاعة الله ﷻ، ومن بذل عمره في غير طاعة الله ﷻ تقول له الملائكة يوم القيامة: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [غافر:٧٥ - ٧٦].

والذي ينفق وقته في طاعة الله ﷻ تقول له الملائكة: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل:٣٢].

﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف:٤٣].

﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة:٢٤].

- إن من يضيع عمره في غير طاعة الله ﷻ سيندم حين لا ينفع الندم، ومن عجائب الأمور إفاقة المُحْتَضَر، لأنه يفيق عند احتضاره إفاقة عجيبة، ويتذكر

كل ما مضى من جناياته ومخالفاته، ويكاد أن يموت حسرة على نفسه قبل أن تخرج روحه؛ لأنه لم يغتنم وقته في طاعة الله، وإنما ضيع وقته في معصية الله ﷻ، يفيق إفاقة عجيبة عند احتضاره، ويتمنى لو أنه أجل ساعة واحدة، فيقول لملك الموت: يا ملك الموت! أخرني شهرًا، فيقول: فنيت الشهور فلا شهر.

فيقول: يا ملك الموت! أخرني يومًا، فيقول: فنيت الأيام فلا يوم.

فيقول: يا ملك الموت! أخرني ساعة، فيقول: فنيت الساعات فلا ساعة، ثم تخرج روحه، قال ﷻ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون:٩٩ - ١٠٠].

فيطلبون الكرَّة - أي: الرجعة - عند معاينة ملك الموت، وعند معاينة أمور الآخرة، كما يطلبون الرجعة إلى الدنيا إذا وقفوا على النار وعرضوا عليها، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنعام:٢٧].

ويطلبون الرجعة كذلك إذا عرضوا على الملك الجبار، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [السجدة:١٢].

ويطلبون الرجعة وهم بين طبقات النيران، قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ

فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فاطر:٣٧].

يذكرهم الله ﷻ عند ذلك بنعمة العمر وهم يصرخون بين طبقات النيران، فهم لم يعرفوا قدر عمرهم، ولم يعرفوا قدر زمانهم، ولم يعرفوا قدر اللحظات والساعات والأيام التي عاشوها في الدنيا، عاش خمسين سنة أو مائة سنة ولكنه لم يقف مع نفسه وقفة صادقة، ولم يحاسب نفسه لله ﷻ، ولم يستقم على طريق الله ﷻ ولم يُصدِّقْ ربَّه ﷻ، ولم يبذل عمره في طاعته فهم يصرخون بين طبقات النيران، ويقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [فاطر:٣٧].

- أين الأوقات التي كانت أمام الشبكة العنكبوتية؟

- أين الأوقات التي أنفقت أمام استقبال البث المباشر؟

- أين الأوقات التي بذلت في معصية الله ﷻ؟

- بل أين الأوقات التي أنفقت في الصد عن سبيل الله وفي تزيين الشهوات والشبهات؟ قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فاطر:٣٧].

والنذير: قيل: هو الشيب، وقيل: هو الموت، وقيل: هو من يذكر بالله ﷻ ومن يدعو بدعوة الرسل، قال تعالى: ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر:٣٧].

خصائص الوقت:

خصائص الوقت هي الأمور التي يتبين بها خطورة الوقت وأهميته، وإن من أهم خصائصه:

- **الأولى: سرعة انقضاء الوقت:**

الوقت يمضي سريعًا، خاصةً أيام السعادة والشباب والسرور والفرح، هذه أوقات سرعان ما تنقضي، إذًا فهذه خاصيةٌ من خصائص الوقت، وإن كانت لحظات الأسى والحزن والألم تمر بطيئةً على النفس، فهذا الوقت سرعان ما ينقضي ويتذكره الإنسان، وأنت تذكر نفسك كيف كانت طفولتك؟ كيف كان صباك؟! والآن تجد نفسك شابًا يافعًا كبيرًا ذا أسرة أو متحملًا لمسئولية.

نوح بعث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، هذه مدة بعثته، أما عمره، فقيل: هو على الألف، أو نيف على الألف سنة، قيل له: يا أطول الأنبياء عمرًا، كيف وجدت العمر؟ كيف وجدت الوقت؟ كيف وجدت الحياة؟ قال: وجدت الدنيا كداخلٍ من باب ثم خرج من باب آخر.

فما بالك أيها المسكين يا من وقتك بين الستين إلى السبعين، إذا قدر لك أن تحيا وإلا تخطفك المنون في شبابك، أو في صباك.

يُقال: إن في عهد الأنبياء المتقدمين وجد رجلٌ امرأة تبكي على ولدها، قال: يرحمك الله كم كان عمره يوم أن مات؟ قالت: مات في شبابه كان عمره أربعمائة سنة، قال: فما بالكِ إذا أدركت قومًا أعمارهم بين الستين إلى

السبعين؟ قالت: والله لو علمت أن ليّ عمرًا بين الستين إلى السبعين؛ لأمضيته في سجدةٍ لله، إذًا وقتنا قصير، ونحن في غفلة عن قيمته وأهميته.

• الثانية: الوقت لا يعود:

الوقت ما مضى منه لا يمكن أن يعود أبدًا، قال الحسن البصري: ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي يا ابن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد فتزود مني فإني إذا مضيت لا أعود.(١)

إننا لو رأينا إنسانًا يحرق كل يوم مبلغًا زهيدًا من المال فسنقول عنه: إنه مجنون وسفيه، ولا بد أن يحجر عليه، لكن والله الذي لا إله إلا هو! إن الذي يضيع جزءًا من عمره في ما لا ينفع هو أعظم سفهًا ممن يحرق المال؛ لأن المال يمكن أن يعوض، ولكن العمر إذا ذهب لا يعوض أبدًا.

✍ وصدق الشاعر حين قال:

دَقَّاتُ قَلْبِ المَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ ... إِنَّ الحَيَاةَ دَقَائِقٌ وَثَوَانِي
فَارْفَعْ لِنَفْسِكَ بَعدْ مَوْتِكَ ذِكْرَهَا ... فَالذِّكْرُ لِلإِنْسَانِ عُمْرٌ ثَانِي(٢)

الدقيقة التي تمضي لا يمكن أن تردها بكل ما أوتيت من وسائل الدنيا بخيلها ورجلها وأموالها ورجالها وسلاحها وعتادها، لا يمكن أن ترد من هذا الوقت لحظة واحدة، ومعنى هذا أن ننتبه لأهمية الوقت لأنه يمضي ولا يعود.

---

(١) مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار: (١/ ٨٥).

(٢) موارد الظمآن لدروس الزمان: (٣/ ٤٦٢).

● **الثالثة: الوقت أنفس ما يملك الإنسان:**

الوقت أنفس ما يملك الإنسان، لأنه لا يمكن أن أحدًا يسلفك ويعيرك من وقته مهما بلغ الأمر، حياتك محدودة، حينما تأتي ساعة الأجل، لو يأتي الناس أجمعون، ويقولون: نريد أن نتبرع لهذا بخمسة أيام من أعمارنا لا يمكن إطلاقًا، فهو أنفس ما تملك، ولا يعوض بشيء، وإذا مضى لا يرجع.

الوقت والعمر جعله الله وعاءً لنملأه بالإيمان والعمل الصالح، ليس بالنفاق والعمل السيئ؟ هذا أمانة؛ لأنه ساعات محدودة، وأنفاس معدودة.

الإنسان مجموعة أيام وشهور وسنين، كل يوم يمر لا يرجع بنفسه، لكن هذا اليوم الذى انتهى وذهب وودع الإنسان ما عمل فيه، إن خيرًا وجده وإن شرًا وجده: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾**﴾ [آل عمران: ٣٠].

مضى يومك الماضي شهيدًا معدلا ... وأعقبه يوم عليك شهيد
فإن كنت بالأمس اقترفت إساءة ... فبادر بإحسان وأنت عنيد
ولا تبق فعل الصالحات إلى غدٍ ... فرب غدٍ يأتي وأنت فقيد

الوقت أمانة، ما من لحظة تمر عليك إلا وهي جزء منك، وهي شاهدة لك أو عليك، فلا تضع أنفاسك في غير طاعة الله سبحانه وتعالى، فإنك مؤتمن وستُسأل.

أيها القارئ الكريم:

إن الإنسان يولد ويعيش ويكبر ويشيب ويموت كالبهيمة، كم يذبح في اليوم من البهائم، هل يذكر الناس بهيمة من البهائم؟ الجواب لا.

البهائم لا تُذكر بشيء، لكن البشر يذكرون بالأعمال الصالحة، البشر يخلدون ذكرهم بعد موتهم بأفعالهم وأعمالهم.

ومن أجل ذلك يقول إبراهيم بن أدهم:

إِذَا مَا مَاتَ ذُو عِلْمٍ وَتَقْوَى ... فَقَدْ ثُلِمَتْ مِنَ الإِسْلامِ ثُلْمَهْ
وَمَوْتُ الْعَادِلِ الْمَلِكِ الْمُوَلَّى ... لِحُكْمِ الْخَلْقِ مَنْقَصَةٌ وَقَصْمَهْ
وَمَوْتُ الْعَابِدِ الْمَرْضِيِّ نَقْصٌ ... فَفِي مَرْآهُ لِلأَسْرَارِ نَسْمَهْ
وَمَوْتُ الْفَارِسِ الضِّرْغَامِ هَدْمٌ ... فَكَمْ شَهِدَتْ لَهُ بِالنَّصْرِ عَزْمَهْ
وَمَوْتُ فَتَى كَثِيرِ الْجُودِ نَقْصٌ ... لأَنَّ بَقَاءَهُ فَضْلٌ وَنِعْمَهْ
فَحَسْبُكَ خَمْسَةٌ يُبْكَى عَلَيْهِمْ ... وَمَوْتُ الْغَيْرِ تَخْفِيفٌ وَرَحْمَهْ.(١)

فينبغي أيها القارئ الكريم: أن تحرص على أن تكون من هؤلاء الخمسة، الذين إذا توفتهم رحمة الله بعد عمر طويل وعمل صالح، يقال: رحمه الله لقد خلف أولادًا نفعوا الأمة والمجتمع، لقد كان معلمًا نافعًا لتلاميذه، لقد كان قائدًا مغوارًا، لقد كان داعيةً مجاهدًا، لقد كان تاجرًا باذلًا، لقد كان موظفًا أمينًا، لقد كان مفكرًا محنكًا، لقد كان عابدًا صوامًا قوامًا، ليس ذلك

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: (٨/ ٢٠١).

محبة لثناء الناس وذكرهم فقط، لا، بل حينما تُذكر، يدعى لك ألا وهي العمر الثاني، والصدقة الجارية عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**».(١) فقد يدعو لك ولدك والناس أجمعون إذا خلدت في هذا الكون عملًا صالحًا.

الوقت محل العبادات:

من حكمة الله جل وعلا أن الوقت شرط أساسي في كثير من العبادات.

الوقت في كل جزء من أجزائه، وَفِي كل ساعة من ساعاته، وَفِي كل لحظة من لحظاته فيه وظيفة عبادة يتعبد الناس فيها إلى الله جل وعلا، فمنها وظيفة يجتمع الناس فيها، ومنها وظيفة تختلف بحسب قدرات الناس ومنازلهم ودرجاتهم وعلمهم ومكانتهم.

فأما الوظيفة التي يجتمع الناس فيها في هذا الوقت؛ ألا وهي الصلوات، فالوقت شرط أساسي في كثير من العبادات، الصلاة من شروطها: دخول الوقت، لو صلي إنسان قبل الوقت، ما وقعت الصلاة في محلها، ومن ثمّ لا تكون هذه الصلاة مقبولة، لأن من أتى بشيء لم يقم بشرطه، لزمه إعادته، حينما يصلي مسلم في غير الوقت، يلزمه أن يعيد الصلاة، وعندما نرى إنسانًا يقول: أنا أريد أن أصوم في شوال، فهذا غير مقبول؛ لأن العبادة مرتبطة بالوقت، والصيام يكون في رمضان.

(١) صحيح مسلم: (١٦٣١).

إنسان يريد أن يحج في محرم، نقول له: لا، العبادة مرتبطة بالوقت في أشهر الحج، وَفِي أيام معدودة من ذي الحجة، إذًا فالعبادة مرتبطة بالأوقات ارتباطًا عظيمًا جدًا.

كذلك النوع الثاني من وظائف العبادة في الأوقات: كل بحسب قدرته ومكانه وعلمه، هذا عالم يُعلم، وهذا مدرس يدرس، وهذا عامل يعمل، وهذا تاجر يتاجر، وهذا قاض يقضي، وهذا وهذا، كلٌ في مهمته، مدار أعمالهم في حيز هذه الأوقات وساعاتها، ومن حكمة الله جل وعلا أن جعل هذا الوقت يمضي رويدًا رويدًا بين الليل والنهار إلا أن فيه ميزانًا يجعل الناس ينضبطون فيه ألا وإن ميزان اليوم: الصلوات الخمس، ومن أجل ذلك نرى الذين يحافظون على الصلوات حفاظًا دقيقًا هم أشد الناس محافظةً لأوقاتهم بالجملة، فالجمعة ميزان الأسبوع، والصوم ميزانٌ في كل سنة، والحج ميزانٌ في العمر، وبعض السلف الصالح يسمي ذلك موازين الأعمال.

وتتمةً للحديث عن الوظائف المتعلقة بالوقت نذكر كلامًا جاء لأبي بكر الصديق رضي الله عنه حينما أوصى بالخلافة لعمر، قال: يا عمر! وإن لله عز وجل حقًا بالنهار لا يقبله بالليل وحقًا بالليل لا يقبله بالنهار.[1] إذًا ليس المهم العمل وحده فقط، بل المهم العمل المرتبط بالوقت المناسب.

المهم أن تعمل العمل المطلوب في الوقت المناسب الذي حدده الشارع.

---

(١) قوت القلوب: (١/ ١٣٧).

وإننا نلاحظ بعض الشباب من الذين يقضون ساعات الليل، الذي جعله الله جل وعلا سكنًا، وسترًا، وظلامًا، وهدوءًا وراحةً، الذين يُشغلون هذا الليل في معصية الله جل وعلا، وتراهم مع شياطين الإنس وتؤزهم شياطين الجن إلى معصية الله ومخالفة أوامره في الليل، فتجدهم بهذه المخالفة في أعمالهم في ظرف الوقت يخسرون جانبًا آخر من الوقت وهو الصباح، فإذا جاء وقت الصباح، وقت الفلاح، وقت الجد، وقت التشمير، تراهم جيفًا نائمةً على فروشهم، تراهم كُسالى قد أهلكهم الخور والسهر والضعف؛ لأنهم خالفوا هذا النظام الذي قرره الله جل وعلا، وسنه في الكون، ومن أجل ذلك يبقى الإنسان في مخالفة، حينما يسهر طول الليل، فإن صلاة الفجر في الغالب تفوت، والصباح وقت تقسم فيه الأرزاق لكن تجد الإنسان غافلًا، تجد الأعمال الإدارية والحكومية والمصالح العامة في الصباح لكن تجد هذا الإنسان نائمًا، وإذا عاد الناس في حر الظهيرة إلى بيوتهم آن له أن يستيقظ، وقد طارت الطيور بأرزاقها، وعاد الناس بمكاسبهم، واشتغل أصحاب الأعمال بأعمالهم وعادوا إلى بيوتهم.

هذا الضعيف المسكين السهران البارحة الذي خالف سنة الوقت، والسنة التي قررها الله جل وعلا في هذا الوقت، تجده محرومًا، والعياذ بالله.

نلاحظ الكثير منهم عاجزًا عن العمل، إذا عمل عملًا للحظات، أو أيام، أو أشهر بالكثير، ثم يتركه، لأن فيه مخالفة، إذًا الأوقات مرتبطة بالأعمال، والعمل ليس وحده مهم، بل العمل المناسب في الوقت المناسب.

أحوال السلف الصالح وانتفاعهم بأوقاتهم:

إن الناظر إلى حال سلفنا في اغتنام الأوقات والساعات واللحظات في طاعة رب العالمين سبحانه، سيجد أن حرص سلفنا الصالح على الأوقات كحرصنا نحن على الدرهم والدينار بل أعظم وأعلى.

✍ **عن الأوزاعي** رحمه الله **أنه قال:** ليس ساعة من ساعات الدنيا إلا وهي معروضة على العبد يوم القيامة يومًا فيومًا وساعة فساعة فلا تمر به ساعة لم يذكر الله فيها إلا تقطعت نفسه عليها حسرات، فكيف إذا مرت به ساعة مع ساعة ويوم مع يوم.(١)

✍ **وعن عاصم الأحول قال:** قال لي فضيل الرقاشي رحمه الله: يا هذا لا يشغلك كثرة الناس عن نفسك فإن الأمر يخلص إليك دونهم، وإياك أن تُذهب نهارك تقطعه ههنا وههنا فإنه محفوظ عليك، وما رأيت شيئًا قط أحسن طلبًا ولا أسرع إدراكًا من حسنة حديثة لذنب قديم.(٢)

✍ **وعن إسماعيل بن زبان قال:** قالت داية لداود الطائي رحمه الله: يا أبا سليمان أما تشتهي الخبز؟ قال: يا داية، بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية.(٣)

✍ **وعن الوليد بن عتبة قال:** سمعت رجلًا قال لداود الطائي رحمه الله: يا أبا

---

(١) المنتظم ٨/ ١٩٦.

(٢) تهذيب الحلية ١/ ٤٦٦.

(٣) المنتظم ٨/ ٢٧٩.

سليمان ألا تسرح لحيتك؟ قال: إني عنها مشغول.(١)

✍ **وقال أبو سليمان الداراني** رحمه الله: كلّ ما شغلَكَ عن الله عز وجل من أهْلٍ ومالٍ أو ولدٍ فهو عليك مَشُوم.(٢)

✍ **وعن الحكم بن محمد قال**: كتب محمد بن يوسف رحمه الله إلى أبي الحسن الأشهب: اغتنم ساعتك لا تغفل عنها، فإنك إن اغتنمتها شغلت عن غيرها.(٣)

✍ **وعن محمد بن مودود الموصلي**: قيل للمعافى بن عمران رحمه الله: ما ترى في الرجل يقرض الشعر ويقوله؟ قال: هو عمرك فأفنه فيما شئت.(٤)

✍ **وقال يحيى بن معاذ** رحمه الله: أعظم المصيبة على الحكيم في اليوم أن يمضي عنه، لا يأتيه فيه هدية من ربه - يعني حكمة جديدة.(٥)

✍ **وقال عريف اليماني** رحمه الله: إن من إعراض الله عن العبد أن يشغله بما لا ينفعه.(٦)

✍ **وقال مظفر القرميسيني** رحمه الله: ليس لك من عمرك إلا نفس واحدة فإن

---

(١) تهذيب الحلية ٢/ ٤٥٧.

(٢) صفة الصفوة ٤/ ٤٤٢

(٣) تهذيب الحلية ٣/ ٥٥.

(٤) تهذيب الحلية ٣/ ٧٤.

(٥) تهذيب الحلية ٣/ ٢٥٩.

(٦) تهذيب الحلية ٣/ ٢٩٥.

لم تفنها فيما لك فلا تفنها فيما عليك.(١)

- **ابن تيمية:**

بعض مَشَايِخ الْعلمَاء بحلب قدم إِلَى دمشق وَقَالَ سَمِعت فِي الْبِلَاد بصبي يُقَال لَهُ أَحْمَد بن تَيْمِية وَأَنه سريع الْحِفْظ وَقد جِئْت قَاصِدا لعَلي أَرَاهُ فَقَالَ لَهُ خياط هَذِه طَرِيق كِتَابه وَهُوَ إِلَى الْآن مَا جَاءَ فَاقْعُدْ عندنَا السَّاعَة يَجِيء يعبر علينا ذَاهِبًا إِلَى الْكتاب فَجَلَسَ الشَّيْخ الْحلَبِي قَلِيلا فَمر صبيان فَقَالَ الْخياط للحلبي هذاك الصَّبِي الَّذِي مَعَه اللَّوْح الْكَبِير هُوَ أَحْمَد بن تَيْمِية فناداه الشَّيْخ فجَاء إِلَيْهِ فتَنَاول الشَّيْخ اللَّوْح فَنظر فِيهِ ثمَّ قَالَ يَا وَلَدي امسح هَذَا حَتَّى أملي عَلَيْك شَيْئا تكتبه فَفعل فأملى عَلَيْهِ من متون الْأَحَادِيث أحد عشر أَو ثَلَاثَة عشر حَدِيثا وَقَالَ لَهُ اقْرَأ هَذَا فَلم يزدْ على أَن تأمله مرّة بعد كِتَابَته إِيَّاه ثمَّ دَفعه إِلَيْهِ وَقَالَ اسْمَعْهُ عَليّ فقرأه عَلَيْهِ عرضا كأحسن مَا أَنْت سامع فَقَالَ لَهُ يَا وَلَدي امسح هَذَا فَفعل فأملى عَلَيْهِ عدَّة أَسَانِيد انتخبها ثمَّ قَالَ اقْرَأ هَذَا فَنظر فِيهِ كَمَا فعل أول مرّة فَقَامَ الشَّيْخ وَهُوَ يَقُول إِن عَاشَ هَذَا الصَّبِي لَيَكُونن لَهُ شَأْن عَظِيم فَإِن هَذَا لم ير مثله.(٢)

- **أبو يوسف:**

أبو يوسف قَالَ: توفي أبي وخلفني صغيرا في حجر أمي، فأسلمتني إلى قصار أخدمه، فكنت أدع القصّار وأمر إلى حلقة أبي حنيفة، فأجلس فأستمع،

(١) تهذيب الحلية ٣/ ٤٥٤.

(٢) العقود الدرية من مناقب ابن تيمية (ص: ٢٠).

وكانت أمي تجيء خلفي إلى الحلقة فتأخذ بيدي، وتذهب بي إلى القصار(١)، وكان أبو حنيفة يعنى بي، لما يرى من حرصي على التعلم، فلما كثر ذلك على أمي قالت لأبي حنيفة: ما لهذا الصبي فساد غيرك، هذا صبي يتيم لا كسب له، وأنا أطعمه من مغزلي، وآمل أنه يكسب دانقا يعود به عَلَى نفسه. فقال لها أبو حنيفة: مري يا رعناء، ها هو ذا يتعلم أكل الفالوذج بدهن الفستق. فانصرفت وقالت لَهُ: أنت شيخ قد خرفت وذهب عقلك. ثم لزمته، فنفعني الله بالعلم، ورفعني حتى تقلدت القضاء، وكنت أجالس الرشيد، وآكل معه على مائدته، فلما كان في بعض الأيام قدّم إلي هارون فالوذجة بدهن فقال لي هارون: يا يعقوب، كل منه، فليس كل يوم يعمل لنا مثْلَه. فقلت: وما هذه يا أمير المؤمنين؟ فَقَالَ: هذه فالوذجة بدهن الفستق، فضحكت. فقال لي: مم تضحك؟ فقلت: خيرًا، أبقى الله أمير المؤمنين. فقال: لتخبرني. وألحّ عليّ، فأخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها، فتعجب من ذَلِكَ، وقَالَ: لعمري إن العلم يرفع وينفع دنيا وآخرة. وترحّم على أبي حنيفة، وقَالَ: كان ينظر بعين عقله ما لا يرى بعين رأسه.(٢)

- **ابن حجر العسقلاني:**

يقول صاحب الجواهر والدرر: إنما كانت هِمَّتُه المطالعة والقراءة والسماع والعبادة والتصنيف والإفادة، بحيث لم يكن يخلي لحظة مِنْ أوقاته عن شيء مِنْ ذلك، حتى في حال أكله وتوجُّهه وهو سالك كما حكى لي ذلك

---

(١) رجل ينظف الثياب.

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: (٩/ ٧٢).

بعض رفقته الذين كانوا معه في رحلته، وإذا أراد اللَّه أمرًا هيّأ أسبابه.

وقد سمعته رحمه الله يقول غير مرة: إنني لأتعجب مِمَّن يجلس خاليًا عن الاشتغال. هذا أو معناه.

ويدل على مصداق قوله: ما أخبرني به بعضُ أصحابنا أنَّه شاهده يومًا بالمدرسة الصالحية النجمية، وهو جالس في بعض بيوتها، ولم يكن عنده إذ ذاك شيءٌ مِنَ الكتب، فاستدعى مِنْ بعض مَنْ حضره مصحفًا، فبادر لذلك، فأخذ في التلاوة منه، فمرَّ فيه على سورة أخطأ الكاتبُ في عَدّ آيها، فكتب مقابلها بالهامش: الصوابُ كذا، أو بل عدَّتها كذا. فلم يسهل به رضي الله عنه أن يجلس بطَّالًا. ولم يُخلِ المصحف مع ذلك - مِنْ فائدة.

وهكذا كان دأبُه في غالب ما يقف عليه مِنْ الكتب العلمية والأدبية وغيرها.

ومما يدلُّ على عدم تضييع وقته بدون عبادة: أنه توجَّه مرةً للمدرسة المحمودية، فلم يجد مفتاحَها، كان قد سها عنه بمنزله، فأمر بإحضار نجَّارٍ، وشرع هو في الصلاة إلى أن انتهى النجارُ مِنْ فتح الباب. وقيل له: لو أرسلتَ، أحضرت المفتاح مِنَ البيت كان أقلَّ كلفة، فقال: هذا أسرع، ويحصل الانتفاعُ بالمفتاح الثاني.

وتوجه مرة للتفرُّج هو وصهره القاضي محب الدين ابن الأشقر في السَّماسم بالخانقاه، فأخرج مِنْ جيبه مصحفًا حمائليًّا، وشرع في التلاوة فيه.

وكان رحمه الله إذا جلس مع الجماعة بعد العشاء وغيرها للمذاكرة، تكون

السّبحة داخل كمِّه بحيث لا يراها أحد، ويستمرُّ يديرُها وهو يسبح أو يذكر غالب جلوسه. وربما تسقُطُ مِنْ كمِّه، فيتأثر لذلك، رغبة في إخفائه.

وكان حين كان يصلي الشيخ غرس الدين خليل الحسيني بجانبه التراويح، يستخبرُ منه عَنِ المتشابه في القرآن، حتى لا يخلو جلوسُه بين الترويحتين من فائدة.

✍ **قلت:** وأحوالُ السلف في عدم تضييع أوقاتهم أشهرُ مِنْ أن تُذكر.

✍ وقد أنشد أبو سعد ابن السمعاني عن أبي بكر محمد بن القاسم بن المظفر بن علي الشَّهرزُوري قوله:

هِمَّتي دُونَها السُّها والزُّبانا ... قد علت جهدها فما يتدانى

فأنا مُتعَبٌ مُعَنًّى إلى أن ... تتفانى الأيامُ أو أتفانى

ويُحكى عن الفقيه أبي الفتح سُليم بن أيوب الرازي أنه كان يحاسب نفسه على الأنفاس، لا يدع وقتًا يمضي بغير فائدة، إما بنسخ أو يدرس أو يقرأ، بل قيل عنه: إنه كان يحرِّكُ شفتيه إلى أن يَقُطَّ القلم. انتهى.(١)

صور لتضييع الأوقات:

- **تضييع الأوقات في المكالمات الهاتفية المحرمة:**

عجبًا لشباب يضيع الساعات في مكالمات هاتفية محرمة نهايتها إلى الرذيلة والخسارة والهوان! وإذا فقدت الفتاة حياءها وشرفها فبطن الأرض

(١) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر: (١/ ١٧٠-١٧١).

خير لها من ظهرها، فكم نسمع عن قصص وحكايات، ومآس متكررات، وكم نقرأ استغاثات ومناشدات من هؤلاء الضائعين والضائعات، وكم نرى مثل هؤلاء الحائرين والحائرات في الأسواق والتجمعات، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩]، وكم نقرأ في الصحف والمجلات عن مهاترات ومناقشات بين شبان وشابات يتكلمون عن الكرة وأخبارها، وعن المغنين والمغنيات، ويتكلمون عن آخر الموضات والصيحات، فقل لي بربك: كيف تحيا وتنهض أمة هذا حال فتيانها وفتياتها؟!

- **تضييع الأوقات في تصفح الجرائد والمجلات غير النافعة:**

هل سمعت عن تلك الفئة التي تجلس الساعات والساعات تتصفح الجرائد والمجلات، فإلى الله نشكو حال شبابنا وفتياتنا، بل حتى حال كثير من عجائزنا وشيبنا، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

- **تضييع الأوقات في الأسواق والمنتديات:**

عجبًا لمن يتسكعون في الأسواق والمنتديات، ويقضون ساعات وساعات بين نظرات ومساومات، الكل لا يعرف ماذا يريد، ويظنون أن الحياة مظاهر ومغريات، قال ﷺ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ**»(١)، وقال ﷺ: «**اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ،**

(١) صحيح البخاري: (٦٤١٢).

وَحَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»(١)

فالعمر فرصة لا تعوض، فإن كل يوم تشرق فيه الشمس ينادي ويقول: يا ابن آدم أنا يوم جديد وعلى عملك شهيد، فاغتنمني، فإني إذا ذهبت لا أرجع أبدًا.

والأحوال العجيبة كثيرة، فأين نعمة العقل التي يعرف بها الإنسان ما يضره وما ينفعه؟!

- **تضييع الأوقات أمام القنوات الفضائية:**

وعجبًا لأناس يقضون الساعات الطوال أمام الشاشات: ما بين فيلم ومسلسل، وما بين أغنية وألحان، وزيادة على ما هم فيه من الضياع فإنهم متكاسلون عن فعل الطاعات وإقام الصلوات.

فكم من الحسنات قد كسبوا في هذه الساعات؟

وماذا استفادوا مما شاهدوه وسمعوه؟

أليست الحقيقة أنهم لم يحفظوا السمع والبصر والفؤاد عن الحرام؟

أما قال الله: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء:٣٦]؟

أما قال الجبار سبحانه: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ

(١) السنن الكبرى: (١١٨٣٢). صحيح الجامع: (١٠٧٧).

أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يس:٦٥]؟

أليس الرجال ينظرون إلى النساء المتبرجات، والنساء ينظرن إلى الرجال؟ والله يقول: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾ [النور:٣٠]، وقال مخاطبًا المؤمنات: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ ﴾ [النور:٣١]؟ فأين قول المؤمنين والمؤمنات: سمعنا وأطعنا؟

تَعْصِي الاله وَأَنت تظهر حبه … هَذَا محَال فِي الفعال بديع
لَو كَانَ حبك صَادِقا لأطعته … إن الْمُحب لمن أحب مُطِيع.[1]

أليس هؤلاء قد زادوا من رصيد السيئات يوم أن ضيعوا الأعمار في هذه الساعات والملهيات والمحرمات؟ فأين العقول السليمة؟ ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج:٤٦].

- **تضييع الأوقات في القيل والقال والغيبة والنميمة وغير ذلك:**

وعجبًا لفئة أخرى من النساء اللاتي يجتمعن عند فلانة وفلانة ومدار حديثهن: القيل والقال، والغيبة والنميمة، والزور والبهتان، أما قال ﷺ: «**مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ تِرَةٌ، وَمَنْ اضْطَجَعَ مَضْجعًا، لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ تِرَةٌ**»؟[2]

وشبَّه ﷺ أصحاب هذه المجالس كمن قام عن جيفة حمار، عَنْ أَبِي

(١) مختصر شعب الإيمان: (ص: ٣٠).
(٢) سنن أبي داود (٤/ ٢٦٤).

هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهِ، إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً».(١)

أي: كأنهم كانوا مجتمعين على جيفة حمار منتنة، ويكون عليهم ذلك المجلس حسرة يوم القيامة.

- إن المسلم يجب أن يسأل نفسه بل ويسأل غيره!: كم مجلس جلسناه نذكر فيه نعم الله علينا؟ والله يقول لنا: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ [الضحى:١١].

- وكم من طريق مشيناه ونحن نتفكر فيه بآيات الله؟ والله سبحانه يقول: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس:١٠١]؟

- وكم ليلة بتناها ونحن نحاسب أنفسنا؟ والله يقول: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران:١٩١].

✍ **قال بعض السلف**: لقد عاشرنا أقوامًا كانوا أشح بوقتهم منكم على دراهمكم.

فلست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقي هو السعيد

الإسلام يحث على اغتنام الأوقات بالأعمال، ولقد أمر نبينا ﷺ

(١) سنن أبي داود (٤/ ٢٦٤).

بالمبادرة إلى الأعمال قبل حلول العواقب، قال ﷺ: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا، مَا تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوِ الْمَسِيحَ فَشَرُّ مُنْتَظَرٍ**». وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ عَبْدَانَ: «**أَوِ الدَّجَّالُ فَإِنَّهُ شَرُّ مُنْتَظَرٍ، أَوِ السَّاعَةُ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ**».(١)

ماذا ينتظر الإنسان حينما يُضيع هذه الأوقات؟ ينبغي أن تبادر إلى العمل، وأن تشحن الأوقات بالأعمال.

نصائح في تنظيم الوقت:

لا بد أن نعلم أن المطلوب منا هو أن ننظم الأوقات، ما دمنا عرفنا أهمية الأوقات، وأهمية ملئها وشحنها بالأعمال، والمسألة ليس مسألة أي عمل، إنما المسألة العمل المناسب في الوقت المناسب مع ترتيب الوقت؛ لأن ترتيب الوقت يضمن للنفس كمال الحاجات أجمع بإذن الله جل وعلا.

بعض الناس من حماسه ومن شدة اهتمامه يزيد الاهتمام بالوقت إذ به في يوم من الأيام يقتل نفسه وهو لا يدري، بل حينما تهتم بالوقت تجعل لكل وقت وظيفة، ومن أهم الوظائف راحة نفسك، فإن راحة البدن والنفس وظيفة، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ رَبِّكَ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا سَفَرًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى، فَاعْمَلْ عَمَلَ امْرِئٍ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَمُوتَ أَبَدًا،**

---

(١) شعب الإيمان: (١٣/ ١٤٨). ضعيف الجامع: (٢٣١٥).

وَاحْذَرْ حَذَرًا يَخْشَى أَنْ يَمُوتَ غَدًا».(١)

* وَفِي لفظ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عُبَادَةَ اللهِ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ(٢) لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى».(٣)

العمل بما نطيق:

* قال النبي ﷺ: «خُذُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا وَكَانَ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ وَإِنْ قَلَّ».(٤)

* وَكَانَ يَقُولُ: «خُذُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللهَ لَنْ يَمَلَّ حَتَّى تَمَلُّوا».(٥)

أي: ما دمت في اهتمامك وعنايتك بهذا الوقت، لا تكلف نفسك ما لا تطيق، أو تشحن نفسك بأمور قد تسبب لنفسك ردة فعل.

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي: (٣/ ٢٨).

(٢) المنبت: أي: المنقطع. مثلًا: إنسان يريد أن يصل إلى مكة، السير على الراحة إلى مكة يقتضي شهرًا تقريبًا، فهذا قال: لا، أنا أريد أن أواصل السير ليلًا ونهارًا حتى أصل في سبعة أيام، فأخذ يجلد هذه الناقة حتى هلكت في الطريق، ثم أخذ يمشي على أقدامه، حتى ضل ومات في الطريق، المنبت انقطع، لا ظهرًا أبقى، لا بقيت الناقة، ولا قطع الأرض، وقد يكون هلك هو أيضًا.

(٣) مسند الشهاب القضاعي: (٢/ ١٨٤).

(٤) مسند إسحاق بن راهويه (٢/ ٤٧٧).

(٥) صحيح مسلم: (٧٨٢).

* **ومثـال ذلـك:** بعـض النـاس يدفعـه الحمـاس والعاطفـة والاهتمـام بالوقت، بل والاهتمام بالعبادة إلى درجة يزيـده الشـيطان فيهـا زيـادة تجعلـه يكره العبادة والاستقامة والتدين بسبب أنه ضـغط عـلى نفسـه، ومعنـى كـلام النبي ﷺ: «**خُذُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا**» «**وَكَـانَ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَـاحِبُهُ وَإِنْ قَـلَّ**».(١) أي لا تضـغطوا عـلى أنفسكم، بل اعملوا من العمل ما تطيقون، لأن الله غنـي عـن أعمالنـا، وكثـرة أعمالنا لا تنفع ربنا.

فلنداوم على العمل الصالح القليل، فإن ذلك ينفعنـا، وإني أنصـح نفسـي وإياك والذين يضغطون على أنفسهم في أوقاتهم أن يجتهـدوا في الترويح عـن النفس، فالترويح عن النفس من ضمن برامج الوقت ووظائفه.

✍ **قال علي بن أبي طالب** رضي الله عنه: روحوا القلوب ساعة فإنها إذا أكرهـت عميت.(٢)

إذًا: الترويح مهم، يُقال: إن رجلًا شاهد أعرابيةً تتعبـد وتتنسـك وتصـلي، ثم رآها في وقت آخر، أي: في نفس يومها، قد تهيأت وتجملت لزوجها، فقال: أين هذا من ذاك؟ أين عبادتك من فعلك هذا؟ قالت:

وللجـدِّ منـي جانـبٌ لا أضـيّعه ... وللهـو منـي والمحبـة جانـب

يعني: أنا أقسم وقتي، وأجعل نشاطي في نفسي يوزع عـلى هـذه الأعمـال

(١) صحيح البخاري: (٥٨٦١)، صحيح مسلم: (٧٨٢).
(٢) إحياء علوم الدين: (٢/ ٣٠).

داخل هذه الأوقات وقت الجد والعمل، حتى وقت الترويح عن النفس هو وقتٌ إذا احتسبه الإنسان، فهو عبادة، لأنه يدفعك ويجعلك تندفع نشيطًا لمزيد من الأعمال الصالحة.

اغتنام أوقات الدعاء:

وأذكر نفسي وإياك بأن هناك أوقاتًا وأيامًا لها مزيد فضل، قد خصها الله جل وعلا بمزيد الأجور والثواب والخيرات منها:

ساعات السحر، وساعة الإجابة يوم الجمعة، وعشر ذي الحجة، ويوم عرفة، وشهر رمضان، والعشر الأواخر، وليلة القدر.

- إن الوقت في عمومه مهم، ولكن هناك أوقات مليئة بالفرص الأهم، وإن الوقت ثمين، ولكن فيه ساعات أثمن. فلنحرص على تحصيلها واستغلالها.

المحافظة على الصلوات:

إن المسلم عنده الوقت مرتبط بالصلاة، بعد صلاة الفجر هذا وقت، إذًا معناه أنه يصلي الفجر ليعرف الوقت الذي بعد الفجر، فيستغله غاية الاستغلال، بعد صلاة الظهر وقت، يستغله بحسب البرنامج، وهكذا. فترتيبك للوقت مرتبط بالصلاة.

فمن لا يُصلي مع الجماعة، أو كيفما استيقظ من نومه صلى، هذا تضيع عليه الأوقات وتمضي عليه وهو لا يعرف قدرها، ولا يدرك قيمتها.

أما الذي يجتهد على الصلاة مع الجماعة، بإذن الله جل وعلا يعينه الله

على الاستفادة من وقته ويحفظ عليه عمره ويعطيه فيه البركة.

الحذر من التسويف:

إن من الناس من يقول: سوف أنظم وقتي ابتداءً من رمضان، أو من بداية العام سوف أنطلق، كالصاروخ، وهذا المسكين لا يضمن أن يعيش إلى الوقت الذى قاله.

أو يقول: هذه السنة دعها على السعة والراحة، وإن شاء الله من رمضان القادم أنطلق انطلاقة قوية، هذا حال كثير من الذين نسمعهم وللأسف.

فالحذر الحذر من التسويف في استغلال الوقت، ولنعلم أن الأماني رءوس أموال المفاليس.

نعوذ بالله من الغواية ونسأله الهداية والرشاد.

الموعظة العشرون

وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ

وَلْتَنْظُرْ نفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ

إن من علامات صحة القلب أن يمقت العبد نفسه في جنب الله، ومعنى هذا أن يحاسبها على كل ما تعمل حتى لا تهلكه.

✍ **قال الإمام الماورديّ**: محاسبة النّفس: أن يتصفّح الإنسان في ليله ما صدر من أفعال نهاره فإن كان محمودًا أمضاه وأتبعه بما شاكله وضاهاه، وإن كان مذموما استدركه إن أمكن، وانتهى عن مثله في المستقبل.(١)

حديث القرآن عن محاسبة النفس:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ ﴾ [الحشر: ١٨- ١٩]، وقال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١ ﴾ [البقرة:٢٨١].

(١) أدب الدنيا والدين: (٣٤٢).

من الأحاديث الواردة في محاسبة النفس:

* عَنِ ابْنِ شِمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ، قَالَ: حَضَرْنَا عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ، وَهُوَ فِي سِيَاقَةِ الْمَوْتِ، يَبْكِي طَوِيلًا، وَحَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى الْجِدَارِ، فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ: يَا أَبَتَاهُ، أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا؟ أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا؟

قَالَ: فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: إِنَّ أَفْضَلَ مَا نُعِدُّ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ عَلَى أَطْبَاقٍ ثَلَاثٍ، لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا أَحَدٌ أَشَدَّ بُغْضًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنِّي، وَلَا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ قَدِ اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ، فَقَتَلْتُهُ، فَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ.

فَلَمَّا جَعَلَ اللهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلْأُبَايِعْكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي، قَالَ: «**مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟**»

قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ: «**تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟**» قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قَالَ: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟**»

وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ، وَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ وَلِينَا أَشْيَاءَ مَا أَدْرِي مَا حَالِي فِيهَا، فَإِذَا أَنَا مُتُّ فَلَا تَصْحَبْنِي نَائِحَةٌ، وَلَا نَارٌ، فَإِذَا دَفَنْتُمُونِي فَشُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ شَنًّا، ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدْرَ مَا

تُنْحَرُ جَزُورٌ(١) وَيُقْسَمُ لَحْمُهَا، حَتَّى أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ، وَأَنْظُرَ مَاذَا أُرَاجِعُ بِهِ رُسُلَ رَبِّي.(٢)

وهكذا يحاسب عمرو بن العاص نفسه حتى وهو على فراش الموت.

* وَعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ(٣) وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ**».(٤)

من الآثار وأقوال العلماء والمفسرين الواردة في محاسبة النفس

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا؛ فَإِنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْكُمْ فِي الْحِسَابِ غَدًا أَنْ تُحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ [الحاقة:١٨]».(٥)

وكَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه إِلَى بَعْضِ عُمَّالِهِ فَكَانَ فِي آخِرِ كِتَابِهِ «أَنْ حَاسِبْ نَفْسَكَ فِي الرَّخَاءِ قَبْلَ حِسَابِ الشِّدَّةِ، فَإِنَّهُ مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الرَّخَاءِ قَبْلَ حِسَابٍ فِي الشِّدَّةِ؛ عَادَ مَرْجِعُهُ إِلَى الرِّضَا وَالْغِبْطَةِ، وَمَنْ أَلْهَتْهُ

---

(١) الجزور: هي الناقة التي تنحر.

(٢) مسلم: (١٢١).

(٣) قال الترمذي تعقيبًا على هذا الحديث: وَمَعْنَى قَوْلِهِ: «**مَنْ دَانَ نَفْسَهُ**» يَقُولُ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ يُحَاسَبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

(٤) الترمذي: (٢٥٧٧)، وقال حديث حسن.

(٥) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا: (٢٢)، وإغاثة اللهفان لابن القيم: (٩٤).

حَيَاتُهُ، وَشَغَلَتْهُ أَهْوَاؤُهُ عَادَ أَمْرُهُ إِلَى النَّدَامَةِ وَالْحَسْرَةِ فَتَذَكَّرْ مَا تُوعَظُ بِهِ لِكَيْمَا تُنْهَى عَمَّا يَنْهَى عَنْهُ وَتَكُونَ عِنْدَ التَّذْكِرَةِ وَالْمَوْعِظَةِ مِنْ أُولِي النُّهَى». (١)

✍ **وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رضي الله عنه **قَالَ**: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَوْمًا وَخَرَجْتُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلَ حَائِطًا فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ جِدَارٌ وَهُوَ فِي جَوْفِ الْحَائِطِ: «عُمَرُ بْنَ الْخَطَّابِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَخٍ وَاللهِ لَتَتَّقِيَنَّ اللهَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَوْ لَيُعَذِّبَنَّكَ». (٢)

✍ **قال عمر بن الخطّاب** رضي الله عنه لفضيل بن زيد الرّقاشيّ: لَا يُلْهِيَنَّكَ النَّاسُ عَنْ ذَاتِ نَفْسِكَ فَإِنَّ الْأَمْرَ يَخْلُصُ إِلَيْكَ دُونَهُمْ وَلَا تَقْطَعِ النَّهَارَ بَكَيْتَ وَكَيْتَ فَإِنَّهُ مَحْفُوظٌ عَلَيْكَ مَا قُلْتَ، وَلَمْ تَرَ شَيْئًا أَحْسَنَ طَلَبًا وَلَا أَسْرَعَ إِدْرَاكًا مِنْ حَسَنَةٍ حَدِيثَةٍ لِذَنْبٍ قَدِيمٍ». (٣)

✍ **قال مالك بن دينار**: رَحِمَ اللهُ عَبْدًا قَالَ لِنَفْسِهِ النَّفِيسَةِ: أَلَسْتِ صَاحِبَةَ كَذَا؟ أَلَسْتِ صَاحِبَةَ كَذَا؟ ثُمَّ ذَمَّهَا ثُمَّ خَطَمَهَا، ثُمَّ أَلْزَمَهَا كِتَابَ اللهِ؛ فَكَانَ لَهَا قَائِدًا». (٤)

✍ **وعن الحسن** رحمه الله: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة:٢] قَالَ: «لَا يُلْقَى الْمُؤْمِنُ إِلَّا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ مَاذَا أَرَدْتُ بِكَلِمَتِي مَاذَا أَرَدْتُ بِأَكْلَتِي مَاذَا

(١) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا: (٥٩)، إغاثة اللهفان: (٩٥).
(٢) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا: (٢٣).
(٣) الزهد لأحمد بن حنبل: (ص: ٢٠٧).
(٤) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا: (ص: ٢٦)، وإغاثة اللهفان لابن القيم: (٩٦).

أَرَدْتُ بِشَرْبَتِي وَالْعَاجِزُ يَمْضِي قُدُمًا لَا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ». (١)

أهمية محاسبة النفس:

قال الغزالي رحمه الله: اعلم أن مطالب المتعاملين في التجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنما مطالبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس:٩، ١٠]، وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله، وكما أن الشريك يصير خصمًا منازعًا يجاذبه في الربح فيحتاج إلى أن: يشارطه أولًا، ويراقبه ثانيًا، ويحاسبه ثالثًا، ويعاقبه أو يعاتبه رابعًا.

فكذلك العقل يحتاج إلى: مشارطة النفس أولًا فيوظف عليها الوظائف، ويشرط عليها الشروط، ويرشدها إلى طريق الفلاح، ويحزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة، وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجو وانفرد بالمال، ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيرًا من تدقيقه في أرباح الدنيا مع أنها

(١) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا: (ص: ٢٤)، وإغاثة اللهفان لابن القيم: (٩٦).

محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى، ثم كيفما كانت فمصيرها إلى التصرم والانقضاء ولا خير في خير لا يدوم بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائمًا، وقد انقضى الشر والخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائمًا وقد انقضى الخير ولذلك قيل:

أشد الغم عندي في سرور ... تيقن عنه صاحبه انتقالا

فحتم عَلَى كُلِّ ذِي حَزْمٍ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ لَا يَغْفُلَ عَنْ مُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهَا فِي حَرَكَاتِهَا وَسَكَنَاتِهَا وَخَطَرَاتِهَا وَخُطُوَاتِهَا فَإِنَّ كُلَّ نَفَسٍ مِنْ أَنْفَاسِ الْعُمُرِ جَوْهَرَةٌ نَفِيسَةٌ لَا عِوَضَ لَهَا يُمْكِنُ أَنْ يُشْتَرَى بِهَا كَنْزٌ مِنَ الْكُنُوزِ لَا يَتَنَاهَى نَعِيمُهُ أبد الآباد فانقباض هَذِهِ الْأَنْفَاسِ ضَائِعَةً أَوْ مَصْرُوفَةً إِلَى مَا يَجْلِبُ الْهَلَاكَ خُسْرَانٌ عَظِيمٌ هَائِلٌ لَا تَسْمَحُ به نفس عاقل فإذا أَصْبَحَ الْعَبْدُ وَفَرَغَ مِنْ فَرِيضَةِ الصُّبْحِ يَنْبَغِي أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته، فيقول للنفس مَا لِي بِضَاعَةٌ إِلَّا الْعُمُرُ وَمَهْمَا فَنِيَ فَقَدْ فَنِيَ رَأْسُ الْمَالِ وَوَقَعَ الْيَأْسُ عَنِ التِّجَارَةِ وَطَلَبِ الرِّبْحِ وَهَذَا الْيَوْمُ الْجَدِيدُ قَدْ أَمْهَلَنِي اللهُ فِيهِ وَأَنْسَأَ فِي أَجْلِي وَأَنْعَمَ عَلَيَّ بِهِ وَلَوْ تَوَفَّانِي لَكُنْتُ أَتَمَنَّى أَنْ يُرْجِعَنِي إِلَى الدُّنْيَا يَوْمًا وَاحِدًا حَتَّى أَعْمَلَ فِيهِ صَالِحًا فَاحْسَبِي أَنَّكِ قَدْ تُوُفِّيتِ ثُمَّ قَدْ رُدِدْتِ فَإِيَّاكِ ثُمَّ إِيَّاكِ أَنْ تُضَيِّعِي هَذَا الْيَوْمَ فَإِنَّ كُلَّ نَفَسٍ مِنَ الْأَنْفَاسِ جَوْهَرَةٌ لَا قِيمَةَ لها.(١)

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٩٤-٣٩٥). ومعنى لا قيمة لها أي لا تقدر بثمن.

أنواع محاسبة النفس:

محاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل، ونوع بعده.

- **النّوع الأوّل المحاسبة قبل القول والعمل:**

ومعناه أن يقف عند أوّل همّه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتّى يتبيّن له رجحانه على تركه.

قال الحسن: رحم الله عبدًا وقف عند همه، فإن كان للّه أمضى وإلا كف.(١)

فيسأل المسلم نفسه لمن أتكلم؟ لمن أعمل؟ لماذا أحب؟ لماذا أبغض؟ لماذا أوالي؟ لماذا أعادي؟ لماذا أعطي؟ لماذا أمنع؟ لماذا جئت؟ لماذا لم آت؟ سؤال عن الإخلاص لمن تعمل: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

فإذا وقف أحدنا وحاسب نفسه قبل أن يتكلم وقبل أن يعمل لتغير حالنا تمامًا، بل لفكر أحدنا بدل المرة ألف مرة قبل أن ينطق مرة، وقبل أن يعمل مرة، لأنه سوف يسأل نفسه: لماذا أتكلم؟ هل أبتغي بعملي هذا وجه الله، أم أبتغي السمعة والشهرة والرياء؟

والله جل وعلا لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه، وما كان موافقًا لهدي نبيه ﷺ.

---

(١) الذريعة الى مكارم الشريعة: (ص: ٩٤).

✍ **يقول شيخ الإسلام ابن تيمية**: جماع الدِّين أصلان: أَلا نعْبد إِلَّا الله وَلَا نعبده إِلَّا بِمَا شرع لَا نعبده بالبدع. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠].

وَذَلِكَ تَحْقِيق الشَّهَادَتَيْنِ: شَهَادَة أَن لَا إِلَه إِلَّا الله وَشَهَادَة أَن مُحَمَّد رَسُول الله. فَفِي الأولى: أَلا نعْبد إِلَّا إِيَّاه. وَفِي الثَّانِيَة: أَن مُحَمَّدًا هُوَ رَسُوله الْمبلغ عَنهُ فعلينا أَن نصدق خَبره ونطيع أمره.(١)

• **النّوع الثّاني: محاسبة النّفس بعد العمل:**

وهو ثلاثة أنواع:

* **أحدها**: محاسبتها على طاعة قصّرت فيها من حقّ الله تعالى؛ فلم توقعها على الوجه الّذي ينبغي.

وحقّ الله تعالى في الطّاعة ستّة أمور وهي:

١- الإخلاص في العمل.

٢- النّصيحة لله فيه.

٣- متابعة الرّسول فيه.

٤- حصول المراقبة فيه.

٥- شهود منّة الله عليه.

٦- شهود تقصيره فيه بعد ذلك كلّه.

---

(١) العبودية: (ص: ١٤٨).

فيحاسب نفسه: هل وفّى هذه المقامات حقّها، وهل أتى بها في هذه الطّاعة.

* **الثّاني**: أن يحاسب نفسه على كلّ عمل كان تركه خيرا له من فعله.

* **الثّالث**: أن يحاسب نفسه على أمر مباح، أو معتاد: لم فعله؟

وهل أراد به الله والدّار الآخرة؟ فيكون رابحا، أو أراد به الدّنيا وعاجلها؛ فيخسر ذلك الرّبح ويفوته الظّفر به.(١)

✍ **وقال الغزاليّ في بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل**: اعلم أنّ العبد كما يكون له وقت في أوّل النّهار يشارط فيه نفسه على سبيل التّوصية بالحقّ فينبغي أن يكون له في آخر النّهار ساعة يطالب فيها النّفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، كما يفعل التّجّار في الدّنيا مع الشّركاء في آخر كلّ سنة أو شهر أو يوم، حرصا منهم على الدّنيا، وخوفًا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته!

ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلّا أيّاما قلائل، فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلّق به خطر الشّقاوة والسّعادة أبد الآباد؟ ما هذه المساهلة إلّا عن الغفلة والخذلان وقلّة التّوفيق- نعوذ بالله من ذلك.(٢)

---

(١) إحياء علوم الدين: (٤/ ٣٩٤- ٣٩٥).

(٢) إحياء علوم الدين: (٤/ ٤٠٥).

أركان المحاسبة:

✍ قال ابن القيم: **قَالَ صَاحِبُ الْمَنَازِلِ: الْمُحَاسَبَةُ لَهَا ثَلَاثَةُ أَرْكَانٍ:**

- **أَحَدُهَا**: أَنْ تُقَايِسَ بَيْنَ نِعْمَتِهِ وَجِنَايَتِكَ. يَعْنِي تُقَايِسَ بَيْنَ مَا مِنَ اللهِ وَمَا مِنْكَ، فَحِينَئِذٍ يَظْهَرُ لَكَ التَّفَاوُتُ، وَتَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ إِلَّا عَفْوُهُ وَرَحْمَتُهُ، أَوِ الْهَلَاكُ وَالْعَطَبُ، وَبِهَذِهِ الْمُقَايَسَةِ تَعْلَمُ أَنَّ الرَّبَّ رَبٌّ وَالْعَبْدَ عَبْدٌ، وَيَتَبَيَّنُ لَكَ حَقِيقَةُ النَّفْسِ وَصِفَاتُهَا، وَعَظْمَةُ جَلَالِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَفَرُّدِ الرَّبِّ بِالْكَمَالِ وَالْإِفْضَالِ، وَأَنَّ كُلَّ نِعْمَةٍ مِنْهُ فَضْلٌ، وَكُلَّ نِقْمَةٍ مِنْهُ عَدْلٌ، وَأَنْتَ قَبْلَ هَذِهِ الْمُقَايَسَةِ جَاهِلٌ بِحَقِيقَةِ نَفْسِكَ، وَبِرُبُوبِيَّةِ فَاطِرِهَا وَخَالِقِهَا، فَإِذَا قَايَسْتَ ظَهَرَ لَكَ أَنَّهَا مَنْبَعُ كُلِّ شَرٍّ، وَأَسَاسُ كُلِّ نَقْصٍ، وَأَنَّ حَدَّهَا الْجَاهِلَةُ الظَّالِمَةُ، وَأَنَّهُ لَوْلَا فَضْلُ اللهِ وَرَحْمَتُهُ بِتَزْكِيَتِهِ لَهَا مَا زَكَتْ أَبَدًا، وَلَوْلَا هُدَاهُ مَا اهْتَدَتْ، وَلَوْلَا إِرْشَادُهُ وَتَوْفِيقُهُ لَمَا كَانَ لَهَا وُصُولٌ إِلَى خَيْرٍ الْبَتَّةَ، وَأَنَّ حُصُولَ ذَلِكَ لَهَا مِنْ بَارِئِهَا وَفَاطِرِهَا، وَتَوَقُّفَهُ عَلَيْهِ كَتَوَقُّفِ وُجُودِهَا عَلَى إِيجَادِهِ، فَكَمَا أَنَّهَا لَيْسَ لَهَا مِنْ ذَاتِهَا وُجُودٌ، فَكَذَلِكَ لَيْسَ لَهَا مِنْ ذَاتِهَا كَمَالُ الْوُجُودِ، فَلَيْسَ لَهَا مِنْ ذَاتِهَا إِلَّا الْعَدَمُ - عَدَمُ الذَّاتِ، وَعَدَمُ الْكَمَالِ - فَهُنَاكَ تَقُولُ حَقًّا «**أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي**». ثُمَّ تُقَايِسُ بَيْنَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، فَتَعْلَمُ بِهَذِهِ الْمُقَايَسَةِ أَيُّهُمَا أَكْثَرُ وَأَرْجَحُ قَدْرًا وَصِفَةً.

- **الرُّكْنُ الثَّانِي مِنْ أَرْكَانِ الْمُحَاسَبَةِ**: أَنْ تُمَيِّزَ مَا لِلْحَقِّ عَلَيْكَ وَبَيْنَ مَا لَكَ وَمَا عَلَيْكَ مِنْ وُجُوبِ الْعُبُودِيَّةِ، وَالْتِزَامِ الطَّاعَةِ، وَاجْتِنَابِ الْمَعْصِيَةِ، وَبَيْنَ مَا لَكَ وَمَا عَلَيْكَ، فَالَّذِي لَكَ: هُوَ الْمُبَاحُ الشَّرْعِيُّ، فَعَلَيْكَ حَقٌّ، وَلَكَ حَقٌّ، فَأَدِّ مَا عَلَيْكَ يُؤْتِكَ مَا لَكَ. وَلَابُدَّ مِنَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا لَكَ وَمَا عَلَيْكَ، وَإِعْطَاءِ كُلِّ

ذِي حَقٍّ حَقَّهُ.

- **الرُّكْنُ الثَّالِثُ مِنْ أَرْكَانِ الْمُحَاسَبَةِ:** أَنْ تَعْرِفَ أَنَّ كُلَّ طَاعَةٍ رَضِيتَهَا مِنْكَ فَهِيَ عَلَيْكَ، وَكُلَّ مَعْصِيَةٍ عَيَّرْتَ بِهَا أَخَاكَ فَهِيَ إِلَيْكَ، رِضَاءُ الْعَبْدِ بِطَاعَتِهِ دَلِيلٌ عَلَى حُسْنِ ظَنِّهِ بِنَفْسِهِ، وَجَهْلِهِ بِحُقُوقِ الْعُبُودِيَّةِ، وَعَدَمِ عَمَلِهِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ وَيَلِيقُ أَنْ يُعَامَلَ بِهِ.(١)

وجهل الإنسان بنفسه وصفاتها وآفاتها وعيوب عمله، وجهله بربه وحقوقه وما ينبغي أن يعامل به يتولد منهما رضاه بطاعته، وإحسان ظنه بها، ويتولد من ذلك العجب والكبر والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة من الزنى وشرب الخمر ونحوهما.

وأرباب العزائم وأهل البصائر أشد ما يكونون استغفارًا عقيب الطاعات، بشهودهم تقصيرهم فيها، وعدم القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه.

وأنه لولا الله لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية، ولا رضيها لسيده، فالنفس مأوى كل عيب وشر، وعملها عرضة لكل آفة ونقص، ولكن الله يعفو ويضاعف ويرحم، ويجزي على العمل القليل الأجر الكثير، وهو الجواد الكريم.

والتاجر يحسب كل يوم كم كسب؟ وكم خسر؟ وكم استهلك؟

وذلك ليضمن بقاء ماله ونمو تجارته.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٩٠) بتصرف واختصار.

وهكذا كل مؤمن ينبغي أن يحاسب نفسه، فإن كانت طاعاته أكثر من معاصيه فعليه أن يحمد الله، ويستمر في الطاعة، ويزيدها وينوعها ويحسنها، لتكون مقبولة موفورة.

وإن كانت معاصيه أكثر من طاعاته فعليه فورًا المبادرة إلى التوبة، فهو عرضة للهلاك والعطب.

وإن كانت معاصيه وطاعاته سواء فهذا جمود، والمؤمن مأمور بالمسارعة والمسابقة إلى الخيرات، والمنافسة فيها، وترغيب الناس فيها.

والمؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله ﷿، يعلم أنه مؤاخذ ومحاسب على سمعه وبصره، وعلى لسانه وجوارحه.

وحياة المسلم كلها علم وعمل، وعبادة ودعوة، وجهاد وإحسان، فيجب عليه أن يحاسب نفسه أول النهار وآخره.

ومعنى المحاسبة أن ينظر في رأس المال، وَفِي الربح، وَفِي الخسران، ليتبين له الزيادة من الخسران.

فرأس المال في الدين الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي والسيئات.

وينبغي للعبد أن يحاسب نفسه على المعاصي في كل ساعة، فإن الإنسان لو رمى بكل معصية يفعلها حجرًا في داره؛ لامتلأت داره في مدة يسيرة.

ولو كان للمعاصي رائحة كريهة ما أطاق أحد الجلوس في بيته، ولكن الإنسان يتباهى بذكر الطاعات، ويتساهل في حفظ نفسه من المعاصي.

والكل معدود ومحسوب ومعروض على العبد، أحصاه الله في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزلزلة:٧، ٨].(١)

انتشار الفساد في الدنيا سببه قلة المحاسبة:

كل فساد في الدنيا إنما يحصل حينما لا يتوقع الفرد أو المجتمع حسابًا، أما إذا توقع المجتمع حسابًا فهنا ينتظم الأمر، وتصلح أحوال الأمة.

فمن لا يرجو حسابًا ولا يتوقع سؤالًا في الدنيا والآخرة، فإنه يفسد ويهمل العمل للآخرة كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥ جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨ ﴾ [النبأ: ٢١ - ٢٨].(٢)

من المنوط بالمحاسبة في المجتمع:

- **المحاسِب في المجتمع:**

١ - إما الحاكم الذي نصبه الله ليقيم شرعه في الأمة.

٢ - المجتمع الذي يحاسب صاحب الجريمة بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

---

(١) موسوعة فقه القلوب: (٢/ ٢٠٠٥-٢٠٠٦).

(٢) موسوعة فقه القلوب: (٢/ ٢٠٠٣) بتصرف يسير.

٣- النفس التي تحاسب صاحبها وتلومه وتؤنبه، أو الاعتقاد أنه محكوم أمام عيني خبير لا تخفى عليه خافية، لا يستطيع أن يستتر عنه أحد، وأنه يراقبني وسوف يحاسبني على ما عملت.

فالذي يعلم أنه محاسب ومسؤول يكون في حالة تأهب وترقب للسؤال في الدنيا وَفِي الآخرة.(١)

صور ونماذج للمحاسبة:

قلنا: إن المنوط بهم المحاسبة في المجتمع ثلاثة:

١- إما الحاكم الذي نصبه الله ليقيم شرعه في الأمة.

٢- المجتمع الذي يحاسب صاحب الجريمة بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

٣- النفس التي تحاسب صاحبها وتلومه وتؤنبه، أو الاعتقاد أنه محكوم أمام عيني خبير لا تخفى عليه خافية، لا يستطيع أن يستتر عنه أحد، وأنه يراقبني وسوف يحاسبني على ما عملت.

وسنعرض الآن لبعض الصور من المحاسبة لنرى ما لها من تأثير:

١ - الحاكم الذي نصبه الله ليقيم شرعه في الأمة.

- **محاسبة العمال:**

حق على المسلم الذي يتولى ولاية، وهو رئيس في دائرة، أو في مكان أو

(١) موسوعة فقه القلوب: (٢/ ٢٠٠٣).

مجمع، أن يحاسب من تحت يده من رؤساء المكاتب، ومن المسئولين عن الأقسام والشعب والدوائر؛ ليلقى الله وقد حاسبهم، فإن ترك الأمور هكذا مبثوثة، فهذا معناه: الوهن والفشل والضياع، والرسول عليه الصلاة والسلام حاسب عماله، وأعلن تذمره ﷺ، ثم تكلم عليه الصلاة والسلام بكلام واضح كالشمس.

* عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنَ الأَزْدِ، يُقَالُ لَهُ ابْنُ الأُتْبِيَّةِ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي، قَالَ: «**فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ، فَيَنْظُرُ يُهْدَى لَهُ أَمْ لَا؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْهُ شَيْئًا إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ**» ثُمَّ رَفَعَ بِيَدِهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَةَ إِبْطَيْهِ: «**اللهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ**» ثَلَاثًا.(١)

ويؤخذ من هذا الحديث المحاسبة، وعدم ترك الأمور تذهب هكذا! ويقاس على ذلك: من كان مسئولًا في كلية، أو مدرسة، أو معهد، أو ثانوية، أو دائرة حكومية، أو مصلحة، أو شركة، أو مؤسسة، أن يتفقد دائمًا من تحت يده بالحساب، وبالجلسة، وبالاستقراء من أخبارهم، ومتابعة دوامهم، وحضورهم، وذهابهم، وأدائهم للدروس، وتحضيرهم للمحاضرات والحصص فإن الله سوف يسأله عن رعيته، وعن أساتذته، وعمّن تحت يده، هذا هو أمر الإسلام في هذا.

---

(١) صحيح البخاري: (٦٦٣٦).

- **صور من محاسبة عمر للولاة والرعية:**

عمر رضي الله عنه وأرضاه يحاسب عماله، وكان يحاسب نفسه قبل أن يحاسب الناس، ويحاسب زوجته في البيت وأبناءه.

- **محاسبة عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص:**

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ جاءه رجل من أهل مصر، فقال: «يا أمير المؤمنين، هذا مقام العائذ بك».

قال: «وما لك؟»

قال: أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل فأقبلت، فلما تراها الناس، قام محمّد بن عمرو فقال: «فرسي ورب الكعبة، فلما دنا منه عرفته، فقلت: فرسي ورب الكعبة، فقام إليّ يضربني بالسوط، ويقول: «خذها وأنا ابن الأكرمين».

قال: فوالله ما زاده عمر أن قال له: «اجلس.

ثم كتب إلى عمرو إذا جاءك كتابي هذا فأقبل، وأقبل معك بابنك محمّد.

قال: فدعا عمرو ابنه فقال: «أحدثت حدثًا؟ أجنيت جناية؟»، قال: «لا»

قال: فما بال عمر يكتب فيك؟

قال: فقدم على عمر، قال أنس: فوالله إنا عند عمر حتى إذا نحن بعمرو، وقد أقبل في إزار ورداء، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه؟

فإذا هو خلف أبيه، قال: «أين المصري؟»

قال: «ها أنا ذا»

قال: «دونك الدّرة فاضرب ابن الأكرمين، اضرب ابن الأكرمين».

قال فضربه حتى أثخنه، ثم قال: أحلِها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه.

فقال: «يا أمير المؤمنين، قد ضربت من ضربني».

قال: «أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه، يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟»

ثم التفت إلى المصري فقال: «انصرف راشدًا فإن رابك ريب فاكتب إليّ».(1)

• محاسبة عمر للنعمان بن عدي:

استعمل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه النعمان بن عدي بن نضلة على ميسان من أرض البصرة، وكان يقول الشعر، **فقال:**

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها ... بميسان يُسقى في زجاج وحنتم
إذا شئت غنتني دهاقين قرية ... ورقاصة تجذو على كل منسم
فإن كنت ندماني فبالأكبر اسقني ... ولا تسقني بالأصغر المتثلم
لعل أمير المؤمنين يسوءه ... تنادمنا بالجوسق المتهدم

فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إي والله إنه ليسوءني ذلك،

(1) محض الصواب: (2/ 473)، وابن الجوزي: مناقب: (98، 99).

ومن لقيه فليخبره أني قد عزلته، وكتب إليه عمر: بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر: ١ - ٣] أما بعد: فقد بلغني قولك:

لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجوسق المتهدم

وأيم الله إنه ليسوءني، وقد عزلتك.

فلما قدم على عمر بكته بهذا الشعر، فقال: والله يا أمير المؤمنين ما شربتها قط، وما ذلك الشعر إلا شيء طفح على لساني، فقال عمر: أظن ذلك، ولكن والله لا تعمل لي عملا أبدًا، وقد قلت ما قلت.(١)

- **قصة سعيد بن عامر مع عمر بن الخطاب:**

عن خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، قَالَ: اسْتَعْمَلَ عَلَيْنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِحِمْصَ سَعِيدَ ابْنَ عَامِرِ بْنِ حِذْيَمٍ الْجُمَحِيُّ، فَلَمَّا قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ حِمْصَ قَالَ: يَا أَهْلَ حِمْصَ، كَيْفَ وَجَدْتُمْ عَامِلَكُمْ؟

فَشَكَوْهُ إِلَيْهِ - وَكَانَ يُقَالُ لِأَهْلِ حِمْصَ: الْكُوَيْفَةُ الصُّغْرَى لِشِكَايَتِهِمُ الْعُمَّالَ - قَالُوا: نَشْكُو أَرْبَعًا: لَا يَخْرُجُ إِلَيْنَا حَتَّى يَتَعَالَى النَّهَارُ، قَالَ: أَعْظِمْ بِهَا، قَالَ: وَمَاذَا؟

قَالُوا: لَا يُجِيبُ أَحَدًا بِلَيْلٍ، قَالَ: وَعَظِيمَةٌ، قَالَ: وَمَاذَا؟

---

(١) آفات اللسان (ص: ٩).

قَالُوا: وَلَهُ يَوْمٌ فِي الشَّهْرِ لَا يَخْرُجُ فِيهِ إِلَيْنَا، قَالَ: عَظِيمَةٌ، قَالَ: وَمَاذَا؟

قَالُوا: يَغْنَظُ الْغُنْظَةَ بَيْنَ الْأَيَّامِ - يَعْنِي تَأْخُذُهُ مَوْتَةٌ - قَالَ: فَجَمَعَ عُمَرُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ وَقَالَ: اللهُمَّ لَا تُقْبَلْ رَأْيِي فِيهِ الْيَوْمَ(١)، مَا تَشْكُونَ مِنْهُ؟

قَالُوا: لَا يَخْرُجُ إِلَيْنَا حَتَّى يَتَعَالَى النَّهَارُ، قَالَ: «وَاللهِ إِنْ كُنْتُ لَأَكْرَهُ ذِكْرَهُ، لَيْسَ لِأَهْلِي خَادِمٌ فَأَعْجِنُ عَجِينِي ثُمَّ أَجْلِسُ حَتَّى يَخْتَمِرَ ثُمَّ أَخْبِزُ خُبْزِي، ثُمَّ أَتَوَضَّأُ ثُمَّ أَخْرَجُ إِلَيْهِمْ» فَقَالَ: مَا تَشْكُونَ مِنْهُ؟

قَالُوا: لَا يُجِيبُ أَحَدًا بِلَيْلٍ، قَالَ: مَا تَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كُنْتُ لَأَكْرَهُ ذِكْرَهُ، إِنِّي جَعَلْتُ النَّهَارَ لَهُمْ وَجَعَلْتُ اللَّيْلَ لِلَّهِ ﷻ، قَالَ: وَمَا تَشْكُونَ؟»

قَالُوا: إِنَّ لَهُ يَوْمًا فِي الشَّهْرِ لَا يَخْرُجُ إِلَيْنَا فِيهِ، قَالَ: مَا تَقُولُ؟

قَالَ: «لَيْسَ لِي خَادِمٌ يَغْسِلُ ثِيَابِي، وَلَا لِي ثِيَابٌ أُبَدِّلُهَا، فَأَجْلِسُ حَتَّى تَجِفَّ ثُمَّ أَدْلُكُهَا ثُمَّ أَخْرَجُ إِلَيْهِمْ مِنْ آخِرِ النَّهَارِ» قَالَ: مَا تَشْكُونَ مِنْهُ؟

قَالُوا: يَغْنَظُ الْغُنْظَةَ بَيْنَ الْأَيَّامِ، قَالَ: مَا تَقُولُ: قَالَ: «شَهِدْتُ مَصْرَعَ خُبَيْبٍ الْأَنْصَارِيِّ بِمَكَّةَ وَقَدْ بَضَّعَتْ قُرَيْشٌ لَحْمَهُ ثُمَّ حَمَلُوهُ عَلَى جِذْعَةٍ فَقَالُوا: أَتُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا مَكَانَكَ؟

فَقَالَ: وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنِّي فِي أَهْلِي وَوَلَدِي وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ شِيكَ بِشَوْكَةٍ، ثُمَّ نَادَى: يَا مُحَمَّدُ فَمَا ذَكَرْتُ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَتَرْكِي نُصْرَتَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ، وَأَنَا مُشْرِكٌ لَا أُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّ اللهَ ﷻ لَا يَغْفِرُ لِي بِذَلِكَ الذَّنْبِ أَبَدًا،

(١) في تاريخ دمشق: (٢١/ ١٦٢) اللهم لا تفيل رأيي فيه اليوم. أي لا تخيب.

قَالَ: فَتُصِيبُنِي تِلْكَ الْغِنْظَةُ».

فَقَالَ عُمَرُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُفَيِّلْ فَرَاسَتِي، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِأَلْفِ دِينَارٍ وَقَالَ: اسْتَعِنْ بِهَا عَلَى أَمْرِكَ، فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَغْنَانَا عَنْ خِدْمَتِكَ، فَقَالَ لَهَا: «فَهَلْ لَكِ فِي خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ؟

نَدْفَعُهَا إِلَى مَنْ يَأْتِينَا بِهَا أَحْوَجَ مَا نَكُونُ إِلَيْهَا» قَالَتْ: نَعَمْ، فَدَعَا رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ يَثِقُ بِهِ فَصَرَهَا صُرَرًا ثُمَّ قَالَ: انْطَلِقْ بِهَذِهِ إِلَى أَرْمَلَةِ آلِ فُلَانٍ، وَإِلَى يَتِيمِ آلِ فُلَانٍ، وَإِلَى مِسْكِينِ آلِ فُلَانٍ، وَإِلَى مُبْتَلَى آلِ فُلَانٍ، فَبَقِيَتْ مِنْهَا ذُهَيْبَةٌ فَقَالَ: «أَنْفِقِي هَذِهِ» ثُمَّ عَادَ إِلَى عَمَلِهِ، فَقَالَتْ: أَلَا تَشْتَرِي لَنَا خَادِمًا، مَا فَعَلَ ذَلِكَ الْمَالُ؟ قَالَ: «سَيَأْتِيكِ أَحْوَجَ مَا تَكُونِينَ».(١)

- **محاسبة عمر للربيع بن زياد:**

✍ **يقول الربيع بن زياد:** ولَّاني عمر على الكوفة فجمعت الأموال وأتيت أحاسبه في المدينة، فأتاني من الهم ما قرب وما بعد، قلت: إن هذا الرجل سوف يكشف ما عندي وإن أخفيت عنه شيئًا فسوف يظهره الله، قال: فلما جلست عليه كان يسألني فكنت أتحفظ في كل كلمة حتى لما دخل المدينة كان ثوبه غاليًا وثمينًا فلما قربت من المدينة، نزلت عن راحلتي وطويت ذلك الثوب الثمين وشريت ثوبًا بثمانية دراهم ولبسته حتى يظهر النسك والزهد أمام عمر رضي الله عنه وأرضاه.

قال: فلما دخلت على عمر قال: أخذ يلمس هذا الثوب، قال: أتيت

---

(١) تاريخ دمشق: (٢١/ ١٦٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٢٤٥).

بشيء، قال: أتيت بالأموال يا أمير المؤمنين، قال: يا فلان! اذهب وائتي بالراحلة، ما أرسل الرجل هذا إلا لأنه سوف يخفي الثوب، قال: فذهب ذاك فأتى بالراحلة فأناخها عنده، فقام ليفتشها فوجد الثوب. قال: لمن هذا الثوب؟ قلت: لي يا أمير المؤمنين، قال: أتلبس لي ثوبًا بثمانية دراهم، وتلبس لله ثوبًا بخمسين درهمًا؟!

قال: فما زلت أتحفظ حتى ظننت أني انتهيت من المحاسبة، قال: ثم قلت كلمة ليتني ما قلتها، قالوا: وماذا قلت؟!

قال: قلت: يا أمير المؤمنين! أنت أولى الناس بالمطعم الهنيء، والملبس الرضي، والمطعم الشهي، قال: أنا؟! قلت: أنت، قال: انتظرني قليلًا، قال: فأخذ خشبة فضربني على رأسي قال: اذهب، والله لا تلي لي عملًا أبدًا، أي: لا تتولى لي عملًا.(١)

- **عمر بن عبد العزيز ومحاسبته لعماله:**

ثم يأتي عمر بن عبد العزيز المجدد، فيحاسب عماله، تولى الإمارة، وأول ما أخذ الخلافة جاءه صاحب الشرطة ليسير بين يديه بالحربة على عادته مع الخلفاء قبله، فقال له عمر: ما لي ولك؟ تنح عني، إنما أنا رجل من المسلمين.

ثم سار وساروا معه حتى دخل المسجد، فصعد المنبر واجتمع الناس إليه.

---

(١) سير السلف الصالحين: (ص: ١٢٦). إكمال تهذيب الكمال (٤/ ٣٣٧).

فقال: أيها الناس! إني قد ابتُليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مِنِّي فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم ولأمركم من تريدون.

فصاح المسلمون صيحة واحدة: قد اخترناك لأنفسنا وأمرنا، ورضينا كلنا بك.

فلما هدأت أصواتهم حمد الله وأثنى عليه وقال: أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خلف من كل شيء، وليس من تقوى الله خلف.

وأكثروا من ذكر الموت فإنه هادم اللذات، وأحسنوا الاستعداد له قبل نزوله، وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها ولا في كتابها ولا في نبيها، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم، وإني والله لا أعطي أحدًا باطلًا، ولا أمنع أحدًا حقًّا.

ثم رفع صوته فقال: أيها الناس! من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم.

ثم نزل فدخل فأمر بالستور فهتكت والثياب التي كانت تبسط للخلفاء أمر بها فبيعت، وأدخل أثمانها في بيت المال، ثم ذهب يتبوأ مقيلًا، فأتاه ابنه عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين ماذا تريد أن تصنع؟

قال: يا بني أقيل.

قال: تقيل ولا ترد المظالم إلى أهلها؟

فقال: إني سهرت البارحة في أمر سليمان، فإذا صليت الظهر رددت

المظالم.

فقال له ابنه: ومن لك أن تعيش إلى الظهر؟

قال: ادن مني أي بني، فدنا منه فقبل بين عينيه وقال: الحمد لله الّذي أخرج من صلبي من يعينني على ديني.

ثم قام وخرج وترك القائلة وأمر مناديه فنادى: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها، فقام إليه رجل ذمي من أهل حمص فقال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله، قال: ما ذاك؟

قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي. والعباس جالس، فقال له عمر: يا عباس ما تقول؟

قال: نعم! أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد وكتب لي بها سجلًا، فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟

قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى. فقال عمر: نعم كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد، قم فاردد عليه ضيعته، فردها عليه.

ثم تتابع الناس في رفع المظالم إليه، فما رفعت إليه مظلمة إلا ردها، سواء كانت في يده أو في يد غيره حتى أخذ أموال بني مروان وغيرهم، مما كان في أيديهم بغير استحقاق.

فاستغاث بنو مروان بكل واحد من أعيان الناس، فلم يفدهم ذلك شيئًا، فأتوا عمتهم فاطمة بنت مروان- وكانت عمته- فشكوا إليها ما لقوا من عمر، وأنه قد أخذ أموالهم ويستنقصون عنده، وأنه لا يرفع بهم رأسًا، وكانت هذه

المرأة لا تحجب عن الخلفاء، ولا ترد لها حاجة، وكانوا يكرمونها ويعظمونها، وكذلك كان عمر يفعل معها قبل الخلافة، وقامت فركبت إليه، فلما دخلت عليه عظمها وأكرمها، لأنها أخت أبيه، وألقى لها وسادة، وشرع يحادثها، فرآها غضبى وهي على غير العادة، فقال لها عمر: يا عمه مالك؟

فقالت: بنو أخي عبد الملك وأولادهم يهانون في زمانك وولايتك؟ وتأخذ أموالهم فتعطيها لغيرهم، ويسبون عندك فلا تنكر؟

فضحك عمر وعلم أنها متحملة، وأن عقلها قد كبر، ثم شرع يحادثها والغضب لا يتحيز عنها، فلما رأى ذلك أخذ معها في الجد، فقال: يا عمه!

اعلمي أن النبي ﷺ مات وترك الناس على نهر مورود، فولى ذلك النهر بعده رجل فلم يستنقص منه شيئًا حتى مات.

ثم ولى ذلك النهر بعد ذلك الرجل رجل آخر فلم يستنقص منه شيئًا حتى مات.

ثم ولى ذلك النهر رجل آخر فكرى منه ساقية، ثم لم يزل الناس بعده يكرون السواقي حتى تركوه يابسًا لا قطرة فيه.

وأيم الله لئن أبقاني الله لأردنه إلى مجراه الأول، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط.

وإذا كان الظلم من الأقارب الذين هم بطانة الوالي، والوالي لا يزيل ذلك، فكيف يستطيع أن يزيل ما هو ناء عنه في غيرهم؟

فقالت: فلا يسبوا عندك؟

قال: ومن يسبهم؟

إنما يرفع الرجل مظلمته فآخذ له بها.(١)

٢ - المجتمع الذي يحاسب صاحب الجريمة بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل أصيل في دين الإسلام، وسبب من أسباب حفظ الأمة من العقاب العام، ولهذا يجب على المسلمين أن يعرفوه بشروطه وآدابه، ويمتنع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا جر ذلك إلى مفاسد أشد مما هو موجود؛ فعلى المسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيما علم، إذا كان مستطيعًا لذلك، قادرًا على التمييز بين المصالح والمفاسد المترتبة على أمره ونهيه.

- **المواصفات المؤهلة للخيرية:**

لقد ذكر الله تبارك وتعالى عقب قوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١١٠] المواصفات التي جعلت هؤلاء الناس خير أمة، فقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران:١١٠].

فذكر تعالى هذا الأصل الأصيل الرصين، الذي يجب على المسلمين أن يعرفوه بقيوده وحدوده، وهو: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١) البداية والنهاية: (٩/ ٢١٣-٢١٤).

- **ذم أهل الكتاب لتفريطهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

لقد ذم الله ﷻ بني إسرائيل فقال: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٩]، لا ينهى بعضهم بعضًا عن منكر اقترفه بعضهم، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾، ولذلك يقول تعالى في تمام الآية التي نحن بصددها: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ﴾ [آل عمران:١١٠] ١٠]، ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: لو فعلوا مفردات الإيمان -وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران:١١٠]، فلم يقل: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾؛ لأن الذي يترك النهي عن المنكر مع القدرة على إنكاره لا يكون كافرًا، إنما يكون فاسقًا.

٣ - النفس التي تحاسب صاحبها وتلومه وتؤنبه:

* قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: ١٨- ١٩].

* وقال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة:٢٨١].

إلى غير ذلك من الأحاديث التي تبين وتؤكد أهمية المحاسبة، وقد ذكرنا في الصفحات السابقة ما يكفي لبيان هذه النقطة بفضل الله ﷻ.

من فوائد (محاسبة النفس):

(١) تحقيق السّعادة في الدّارين.

(٢) تثمر محبّة الله ورضوانه.

(٣) دليل على صلاح الإنسان.

(٤) البعد عن مزالق الشّيطان.

(٥) دليل على الخوف من الله، ومن خاف من الله بلغ المنزلة.

الموعظة الحادية والعشرون

إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ

إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ

يقول الحيُّ الذي لا يموت: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجمعة:٨].

إن هذه الآية الكريمة تلفتنا لفتة من اللفتات القرآنية الموحية للمخاطبين بها وغير المخاطبين، تقر في الأخلاد حقيقة ينساها الناس، وهي تلاحقهم أينما كانوا..

فهذه الحياة إلى انتهاء، والبعد عن الله فيها ينتهي للرجعة إليه، فلا ملجأ منه إلا إليه. والحساب والجزاء بعد الرجعة كائنان لا محالة. فلا مهرب ولا فكاك.

روى الطبري عَنْ سَمُرَةَ بن جُنْدُبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يَفِرُّ مِنَ الْمَوْتِ كَمَثَلِ الثَّعْلَبِ، تَطْلُبُهُ الأَرْضُ بِدَيْنٍ، فَجَعَلَ يَسْعَى، حَتَّى إِذَا أَعْيَى وَانْتَهَرَ دَخَلَ جُحْرَهُ، فَقَالَتْ لَهُ الأَرْضُ: يَا ثَعْلَبُ، دَيْنِي؟ فَخَرَجَ، وَلَهُ حُصَاصٌ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى تَقَطَّعَتْ عُنُقُهُ، فَمَاتَ**».(١) وهي صورة

(١) المعجم الكبير للطبراني: (٦٧٧٩) وهو موقوف.

متحركة موحية عميقة الإيحاء..

إن المنهمك في الدنيا المكب على شهواتها وملذاتها يغفل قلبه عن ذكر الموت فلا يذكره، وإن ذكره كره هو ونفر منه، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الجمعة:٨].

* وقال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ ﴾ [النساء:٧٨].

* وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٥].

وأما العارف بربه، فإنه يذكر الموت دائمًا، أخذًا بوصية رسول الله ﷺ عندما قال: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ يعني الموت**».(١)

* وروى ابن ماجه في سننه من حديث ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»، قَالَ: فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْيَسُ؟ قَالَ: «**أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا، أُولَئِكَ الأَكْيَاسُ**».(٢)

✍ **قال الحسن البصري** رحمه الله: «فضح الموت الدنيا، فلم يترك لذي لب

(١) سنن الترمذي: (٢٣٠٧) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي: (١٨٧٧).
(٢) ابن ماجة: (٤٢٥٩) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة: (١٣٨٤).

فيها فرحًا، وما ألزم عبد قلبه ذكر الموت إلا صغرت الدنيا عليه، وهان عليه جميع ما فيها».

✍ **قال الشاعر**:

لا طِيبَ للعيْشِ ما دامَت لذاتُهُ ... مُنْغَصةً بادِّكَار المَوتِ وَالهَرم

✍ **وقال عمر بن عبد العزيز**: إذا غفل قلبي عن ذكر الموت ساعة فسد.

✍ **وقال بعضهم**: من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة.

ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضا بالكفاف، والكسل في العبادة.

لماذا نكره الموت؟!

إن الناس يكرهون الموت، مع أن قائدنا وإمامنا ورسولنا ﷺ لمّا خُيِّر بين البقاء في الدنيا وبين الموت اختار الموت، تقول أم المؤمنين عَائِشَةُ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ صَحِيحٌ: «**إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّرَ**» فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ، وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِي غُشِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ فَأَشْخَصَ بَصَرَهُ إِلَى سَقْفِ البَيْتِ، ثُمَّ قَالَ: «**اللهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى**». فَقُلْتُ: إِذًا لَا يَخْتَارُنَا، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَدِيثُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ، قَالَتْ: فَكَانَتْ آخِرَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا: «**اللهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى**».[1]

(١) صحيح البخاري: (٤٤٦٣).

- وعاش أصحاب الرسول ﷺ على دربه فكانوا يرحبون بالموت ويحسنون استقباله أحسن استقبال!!

فما الفارق بيننا وبين الصحابة الكرام؟

ألسنا مطالبين مثلهم بالتأسي برسولنا ﷺ؟

فلماذا نكره الموت؟

لماذا نخاف من زيارة الزائر الأخير لنا في الدنيا، لماذا يرتعد القلب فرقًا وخوفًا؟

إن هذه الأسئلة أسئلة تحتاج جوابًا لنعلم لماذا نكره الموت حتى قال صاحب العظمة: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الجمعة:٨].

- **إن الأسباب التي جعلت الناس يكرهون الموت كثيرة ومنها ما يلي:**

١ - الحياء من الله:

وعلامة الْحيَاء من الله ألا تنسى الْوُرُود على الله[١]، ومن كانت هذه حاله كره لقاء الله حياء من الله، وليس بغضًا في لقاء الله، ولنتأمل ما قاله أحمد بن أبي الحواري لأم هارون.

✍ **قال أحمد بن أبي الحواري:** قلت لأم هارون: أتحبين الموت؟ قالت: لا. قلت: ولم؟ قالت: لو عصيت آدميًا ما أحببت لقاءه، فكيف أحب لقاء الله

(١) آداب النفوس للمحاسبي: (ص: ١٥٠).

وقد عصيته.[1]

✍ وكان **الْأَسْوَدُ بْنُ يَزِيدَ النَّخعيّ** يجتهد في العبادة، وَكَانَ يَصُومُ حَتَّى يَخْضَرَّ وَيَصْفَرَّ، فَلَمَّا احْتُضِرَ بَكَى فَقِيلَ لَهُ: ما هذا الجزع؟ فقال: مالي لَا أَجْزَعُ؟ وَمَنْ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنِّي؟ وَاللهِ لو أنبئت بالمغفرة من الله لأهمَّني الحَيَاءُ مِنْهُ مِمَّا قَدْ صَنَعْتُ، إِنَّ الرَّجُلَ لَيَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّجُلِ الذَّنْبُ الصَّغِيرُ فَيَعْفُو فَلَا يَزَالُ مُسْتَحْيِيًا مِنْهُ.[2]

✍ **يقول ابن القيم**: مَعْرِفَةُ النَّفْسِ وَمَقْتُهَا يُوجِبُ الْحَيَاءَ مِنَ اللهِ ﷻ، وَاسْتِكْثَارَ مَا مِنْهُ، وَاسْتِقْلَالَ مَا مِنْكَ مِنَ الطَّاعَاتِ، وَمَحْوَ أَثَرِ الدَّعْوَى مِنَ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ.[3]

✍ **أيها القارئ الكريم:**

إن المرء لو كان يعمل في وظيفة وتأخَّر عن عمله دقائق معدودات، فإنه يحمل همَّ المساءلة.

ولو قصَّر تلميذٌ في واجباته التي كلَّفه بها أستاذه، فإنه يحمل همَّ المساءلة.

ولو طلب أبٌ من ولده شيئًا، ولم يقضه له فإنه يحمل هم المساءلة إن كان صالحًا يعرف حقَّ والده عليه.

---

(١) صفة الصفوة: (٢/ ٤٣٤)، طبقات الصوفية للسلمي: (ص: ٤٠٢).

(٢) البداية والنهاية: (٩/ ١٧)، حياة السلف بين القول والعمل: (ص: ٦٨٧).

(٣) مدارج السالكين: (٢/ ٣٠).

إنَّ كلَّ هذه الأمثلة يخاف المرء المساءلة فيها، والمساءلة تكون من بشر مخلوق ضعيف، لا يملك ضرًا ولا نفعًا، فكيف بالخالق صاحب الكبرياء والعظمة.

٢ - أين المستقر وإلى أين المصير:

قالت امرأة مسروق رحمه الله: ما كان مسروق يوجد إلا وساقاه قد انتفختا من طول الصلاة، فلما احتُضِر بكى، فقيل له: ما هذا الجزع؟!!

قال: ما لي لا أجزع، وإنما هي ساعة، ولا أدري أين يُسلك بي؟ بين يديّ طريقان لا أدري إلى الجنة أم إلى النار؟.(١)

وَكَيْفَ تَنَامُ العَيْنُ وَهِي قَرِيْرَةٌ ... وَلَمْ تَدْرِ في أَيْ المَكَانِيْنِ تَنْزِلُ.(٢)

وعن أبي أمامة قال: مرض عنبسة بن أبي سفيان فدخل عليه أناس يعودونه وهو يبكي قال فقلنا ما يبكيك يا أبا عثمان فقال كانت لك سابقة وقد سلف لك خير قال وما لي لا أبكي من هول المطلع وما لي عمل أثق به.(٣)

٣ - قلة الزاد:

يقول صاحب العظمة والكبرياء: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون:١٠]، وَكَانَ عَلِيٌّ رضي الله عنه يَقُولُ: آهٍ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ وَبُعْدِ السَّفَرِ

(١) صفة الصفوة: (٣/ ١٧)، حياة السلف بين القول والعمل: (ص: ٨٠٦).
(٢) مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار: (٢/ ١٧٢).
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر: (٤٧/ ٢٢).

وَوَحْشَةِ الطَّرِيقِ!.[(١)]

✍ **وبكى سلمان الفارسي** رضي الله عنه عند الموت فقيل: ما يبكيك؟ قال: ما أبكي ضنًّا بدنياكم، ولا جزعًا من الموت، ولكن قلةُ الزاد، وبعد المفاز.[(٢)]

✍ **ولما حَضَرَتْ أبَا هُريرة الْوَفَاةُ** بَكَى فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: عَلَى قِلَّةِ الزَّادِ وَشِدَّةِ الْمَفَازَةِ، وَأَنَا عَلَى عَقَبَةِ هبوط إما إلى جنة أَوْ إِلَى نَارٍ فَمَا أَدْرِي إِلَى أَيِّهِمَا أَصِيرُ.[(٣)]

✍ **وَرُوِيَ عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ** رضي الله عنه أَنَّهُ قَامَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ فَقَالَ: أَلَا مَنْ عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَنِي، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْنِي فَأَنَا جُنْدُبُ بْنُ جِنَادَةَ الْغِفَارِيُّ أَبُو ذَرٍّ، هَلُمُّوا إِلَى أَخٍ نَاصِحٍ شَفِيقٍ عَلَيْكُمْ.

فَاجْتَمَعَ النَّاسُ حَوْلَهُ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ سَفَرًا مِنْ أَسْفَارِ الدُّنْيَا لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا بِزَادٍ، فَكَيْفَ مَنْ يُرِيدُ سَفَرَ الْآخِرَةِ بِلَا زَادٍ.

قَالُوا: وَمَا زَادُنَا يَا أَبَا ذَرٍّ؟

قَالَ: صَلَاةُ رَكْعَتَيْنِ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ لِوَحْشَةِ الْقُبُورِ، وَصَوْمُ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ لِيَوْمِ النُّشُورِ، وَصَدَقَةٌ عَلَى الْمَسَاكِينِ لَعَلَّكُمْ تَنْجُونَ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ عَسِيرٍ، وَحَجٌّ لِعَظَائِمِ الْأُمُورِ.

---

(١) التبصرة لابن الجوزي: (١/ ٤٥٠).
(٢) موسوعة ابن أبي الدنيا: (٥/ ٣٧٨).
(٣) البداية والنهاية: (٨/ ١٢٢).

وَاجْعَلُوا الدُّنْيَا مَجْلِسَيْنِ: مَجْلِسًا فِـي طَلَـبِ الـدُّنْيَا وَمَجْلِسًـا فِـي طَلَـبِ الْآخِرَةِ.

وَالثَّالِثُ يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ.

وَاجْعَلُوا الْكَلَامَ كَلِمَتَيْنِ: كَلَمَةً نَافِعَةً فِي أَمْرِ دُنْيَاكُمْ، وَكَلِمَةً بَاقِيَةً فِـي أَمْـرِ آخِرَتِكُمْ.

وَالثَّالِثُ يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ.(١)

فما أخبار زادك؟!

- **بكم** ركعة في جوف اليل أعتقت رقبتك من النار؟!
- بكم يوم صمته في شدة الحر اتقيت حرَّ جهنم؟!
- بكم شهوة تركتها ترجو نعيم الأبد؟!
- أين الزاد الذى يبلغ؟ أين العمل الذى يصلح؟!

✍ **قيل لرجل وهو يجود بنفسه**: ما حالك؟ فقال: وما حال من يريد سفرًا بعيدًا بلا زاد ويدخل قبـرًا موحشًـا بـلا مـؤنس وينطلـق إلى ملـك عـدل بـلا حجة.(٢)

✍ **قَالَ رَجُلٌ لِدَاوُدَ الطَّائِيِّ**: أَوْصِنِي. فَدَمعَتْ عَيْنَاهُ، وَقَالَ: يَا أَخِـي إِنَّمَـا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَرَاحِلُ يَنْزِلُهَا النَّاسُ مَرْحَلَةً بَعْدَ مَرْحَلَةٍ، حَتَّى يَنْتَهِـيَ ذَلِـكَ إِلَـى

(١) تنبيه الغافلين للسمرقندي: (٢١٩).

(٢) إحياء علوم الدين: (٢/ ٢٣٠).

آخِرِ سَفَرِهِمْ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُقَدِّمَ كُلَّ يَوْمٍ زَادًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْكَ فَافْعَلْ، فَإِنَّ انْقِطَاعَ السَّفَرِ عَنْ قَرِيبٍ وَالأَمْرَ أَعْجَلُ مِنْ ذَلِكَ، فَتَزَوَّدْ لِنَفْسِكَ وَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ، فَكَأَنَّكَ بِالأَمْرِ قَدْ بَغَتَكَ، إِنِّي لأَقُولُ لَكَ هَذَا وَمَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَشَدَّ تَقْصِيرًا مِنِّي!! ثم قام وتركه.

يَا لاهِيًا بالمنايا قد غَرَّهُ الأَمَلُ ... وَأَنْتَ عَمَّا قَلِيلٍ سَوْفَ تَرْتَحِلُ
تَبْغِي اللُّحُوقَ بِلا زَادٍ تُقَدِّمُهُ ... إِنَّ الْمُخِفِّينَ لَمَّا شَمَّرُوا وَصَلُوا
لا تَرْكَنَنَّ إِلَى الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا ... فَأَنْتَ مِنْ عَاجِلِ الدُّنْيَا سَتَنْتَقِلُ
أَصْبَحْتَ تَرْجُو غَدًا يَأْتِي وَبَعْدَ غَدٍ ... وَرُبَّ ذِي أَمَلٍ قَدْ خَانَهُ الأَمَلُ
هَذَا شَبَابُكَ قَدْ وَلَّتْ بَشَاشَتُهُ ... مَا بَعْدَ شَيْبِكَ لا لَهْوٌ وَلا جَدَلُ
مَاذَا التَّعَلُّلُ بِالدُّنْيَا وَقَدْ نَشَرَتْ ... لأَهْلِهَا صِحَّةً فِي طَيِّهَا عِلَلُ.(1)

٤ - الإسراف على النفس:

لا شك أن الإسراف تتعدد صوره ومظاهره وهو يقع في أمور كثيرة كالمأكل والمشرب، والملبس، والمركب، والمسكن، وغيرها، ومن هذه الصور: الإسراف على الأنفس في المعاصي والآثام.

والقرآن الكريم بيَّن أن الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة يكون نتيجة الإسراف على الأنفس في المعاصي والآثام، ولقد ذُكِر هذا المعنى في آيات كثيرة قال أعزُّ من قال: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾

---

(1) التبصرة لابن الجوزي: (1/ 49).

قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [طه: ١٢٤- ١٢٧].

* وقال صاحب العظمة: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧ - ٩].

* وقال صاحب الكبرياء: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [غافر: ٤٣].

* وقال ربّ العزة: ﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الذاريات: ٣١ - ٣٤].

المسرفون في المعاصي يخافون القدوم، ويهابون المنون، وأساءوا فخافوا، وعاشوا فهابوا، وماتوا فلاقوا ما كانوا يحذرون.

لاه بدنياه وَالْأَيَّام تنعاه ... والقبر غَايَته واللحد مَأْوَاه
يلهو وَلَو كَانَ يدْرِي مَا أعد لَهُ ... إِذا لأحزنه مَا كَانَ ألهاه
أَو مَا جنت يَده لَو قد تعرفه ... ويلاه مِمَّا جنت كَفاهُ ويلاه.(١)

(١) بستان الواعظين ورياض السامعين: (ص: ١٩٣).

باب التوبة مفتوح لأهل الإسراف قبل فوات الأوان:

* يقول أعزُّ من قال: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الزمر: ٥٣ - ٥٦].

قال القاسمي: أي جنوا عليها بالإسراف في المعاصي والكفر... لا تيأسوا من مغفرته بفعل سبب يمحو أثر الإسراف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣] أي لمن تاب وآمن. فإن الإسلام يجبّ ما قبله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزمر:٥٣، ٥٤] أي: توبوا إليه وَأَسْلِمُوا لَهُ أي استسلموا وانقادوا له. وذلك بعبادته وحده وطاعته وحده، بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه.(١)

رسائل من الله قبل الوصول:

إن الله سبحانه يرسل رسائل لعباده، هذه الرسائل تخبرهم وتنذرهم بقرب الوصول ودنو الأجل واقترابه وهذه الرسائل معلومة لدى كل إنسان، لكن نذكّر بها فنقول: ها هي برقيات الوصول:

---

(١) محاسن التأويل: (٨/ ٢٩٣).

١ - المرض:

إنَّ أولَ برقيّةٍ تأتي لتذكر النَّاسَ بلقاءِ الله هي نعمةُ المرض، ولنتأمل في نصيحة محمد بن واسع وهي نصيحة قلبية صادقة في وقت حرج وزمنٍ ضيق، عن مُحَمَّد بن عبد الله مَوْلَى الثَّقِيفِيِينَ قَالَ دَخَلْنَا عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ وَهُوَ يَقْضِي فَقَالَ يَا إِخْوَتَاهُ هَبُونِي وَإِيَّاكُمْ سَأَلْنَا اللَّهَ الرَّجْعَةَ وَأَعْطَاكُمُوهَا وَمَنَعَنِيهَا فَلا تَخْسَرُوا أَنْفَسَكُمْ.(١)

إن الطَّبِيب بطبه ودوائه ... لَا يَسْتَطِيع دفاع مَقْدُور القضا
مَا لِلطَّبِيْبِ يَمُوْتُ بِالدَّاءِ الَّذِيْ ... قَدْ كَانَ يُبْرِيْ مِنْهُ فِيْما قَدْ مَضَى
ذَهَبَ الْمُداوِيْ وَالْمُداوَىْ والَّذِيْ ... جَلَبَ الدَّواءَ وَباعَهُ وَمَنِ اشْتَرَىْ.(٢)

✍ **قَالَ سَعِيدُ بْنُ بَشِيرٍ**: إِنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ حِينَ ثَقُلَ جَعَلَ يَلُومُ نَفْسَهُ، وَيَضْرِبُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ، وَقَالَ: وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ أَكْتَسِبُ يَوْمًا بِيَوْمٍ مَا يُقَوِّتُنِي، وَأَشْتَغِلُ بِطَاعَةِ اللهِ. فَذُكِرَ ذَلِكَ لِابْنِ خَازِمٍ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَهُمْ يَتَمَنَّوْنَ عِنْدَ الْمَوْتِ مَا نَحْنُ فِيهِ، وَلَا نَتَمَنَّى عِنْدَ الْمَوْتِ مَا هُمْ فِيهِ. وَقَالَ مَسْعُودُ بْنُ خَلَفٍ: قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ فِي مَرَضِهِ: وَاللهِ وَدِدْتُ أَنِّي عَبْدٌ لِرَجُلٍ مِنْ تِهَامَةَ أَرْعَى غَنَمًا فِي جِبَالِهَا، وَأَنِّي لَمْ أَكُ شَيْئًا.(٣)

---

(١) الثبات عند الممات: (ص: ١٤٦).

(٢) العاقبة في ذكر الموت: (ص: ١٣٠).

(٣) الكامل في التاريخ: (٣/ ٥٣٤)، أدب الدنيا والدين: (ص: ١١٥).

٢ - الشيب:

إن الشيب رسول من رسل الله إلى الناس، يخبر بدنو الأجل، حتى يُعِدَّ المرء العدَّة لما بعد الشيب، يقول صاحب المدهش: الشيب أَذَان وَالْمَوْت إِقَامَة.(١)

✍ **عن أَحْمَدَ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ، عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ لِجُلَسَائِهِ:** «يَا مَعْشَرَ الشُّيُوخِ: مَا يُنْتَظَرُ بِالزَّرْعِ إِذَا بَلَغَ؟ قَالُوا: الْحَصَادُ، قَالَ: يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ: إِنَّ الزَّرْعَ قَدْ تُدْرِكُهُ الْعَاهَةُ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ»(٢).

سَارَ الشَّبَابُ فَلَمْ نَعْرِفْ لَهُ خَبَرًا ... وَلا رَأَيْنَا خَيَالا مِنْهُ مُنْتَابَا
وَحَقٌّ لِلْعِيسِ لَوْ نَالَتْ بِنَا بلدًا ... فيه الصبا كون عود الند أقْتَابَا
أُلْقِيَ إِلَيْهِ قَمِيصُ الشَّيْبِ رَهْنَ بِلًى ... ثُمَّ اسْتَجَدَّ قَمِيصَ الشَّيْبِ مُحْتَاجَا
مَا زَالَ يَمْطُلُ دُنْيَاهُ بِتَوْبَتِهِ ... حَتَّى أَتَتْهُ مَنَايَاهُ وَمَا تابا(٣)

يَا هَذَا لا نَوْمٌ أَثْقَلُ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَلا رِقٌّ أَمْلَكُ مِنَ الشَّهْوَةِ، وَلا مُصِيبَةٌ كموت القلب، ولا نذيرًا أَبْلَغُ مِنَ الشَّيْبِ: أَسْمَعُ قَوْلا بِلا عَمَلٍ، وَأَرَى خِلالا خِلالُهَا الْخَلَلُ، إِذَا دُعِيتَ إِلَى الْخَيْرِ جَاءَ الْكَسَلُ وَقُلْتَ لَوْ شَاءَ أَنْ يُوَفِّقَنِي فَعَلَ، وَإِذَا لاحَتِ الْمَعَاصِي كَرَّ الْبَطَلُ، وَيَقُولُ: خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ. وَيْحَكَ هَذَا الشَّيْبُ قَدْ نَزَلَ يُخْبِرُكَ بِقُرْبِ الأَجَلِ، خَلَتِ الدِّيَارُ وَنَاحَ الطَّلَلُ،

(١) المدهش: (ص: ٢٩٢).
(٢) الزهد الكبير للبيهقي: (ص: ٢٠١).
(٣) التبصرة لابن الجوزي: (١/ ٣٦٨).

أَيَحْتَاجُ الْمُهِمُّ إِلَى اعْتَدِلْ، يَا قَبِيحَ الْخِصَالِ إِلَى كَمْ زَلَلَ، مَا لِكَبِيرٍ فِي الْعَذْلِ لا نَاقَةٌ وَلا جَمَلٌ.(١)

يَا مَنْ يُؤْمَرُ بِمَا يُصْلِحُهُ فَلا يَقْبَلُ، أَمَا الشَّيْبُ نَذِيرٌ بِالْمَوْتِ قَدْ أَقْبَلَ، أَمَا أَنْتَ الَّذِي عَنْ أَفْعَالِهِ تُسْأَلُ، أَمَا أَنْتَ تَخْلُو فِي اللَّحْدِ بِمَا تَعْمَلُ، سَتَعْلَمُ يَوْمَ الْحِسَابِ عِنْدَ الْعِتَابِ مَنْ يَخْجَلُ، يَا مُبَادِرًا بِالْخَطَايَا تَوَقَّفْ لا تَعْجَلْ، يَا مُفْسِدًا مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ لا تَفْعَلْ.(٢)

٣ - فراق الأهل والأحباب:

عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُهُ مَوْتُ أَخٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَيَقُولُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، كِدْتُ وَاللهِ أَنْ أَكُونَ أَنَا السَّوَادُ الْمُخْتَطَفُ فَيَزِيدُهُ اللهُ بِذَلِكَ جِدًّا وَاجْتِهَادًا فَيَلْبَثُ بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ يَبْلُغُهُ مَوْتُ الْأَخِ مِنْ إِخْوَانِهِ فَيَقُولُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، كِدْتُ وَاللهِ أَنْ أَكُونَ أَنَا السَّوَادُ الْمُخْتَطَفُ فَيَزِيدُهُ اللهُ بِذَلِكَ جِدًّا وَاجْتِهَادًا قَالَ: فَرَدَّدَ الْحَسَنُ هَذَا الْكَلَامَ غَيْرَ مَرَّةٍ فَوَاللهِ مَا زَالَ كَذَلِكَ حَتَّى مَاتَ مَوْتًا كَيِّسًا».(٣)

يَا سَاهِيًا لاهِيًا عَمَّا يُرَادُ بِهِ ... آن الرحيل وَمَا قدمت من زَاد
ترجو الْبَقَاء صَحِيحًا سالمًا أبدًا ... هَيْهَات أَنْت غَدًا فِيمَن غَدا غاد(٤)

---

(١) التبصرة لابن الجوزي: (١/ ٢٩٢).
(٢) التبصرة لابن الجوزي: (١/ ٢٢٨).
(٣) الزهد لأحمد بن حنبل: (ص: ٢١٨).
(٤) المدهش: (ص: ٣٥٣).

فوائد ذكر الموت:

١ - شغل الأوقات بما ينفع:

إن الوقت يتحرك دائمًا، وإذا مرَّ الوقت لا يعود بعد مروره، لذلك فإن خسارته خسارة لا يمكن تعويضها، والحصيف هو ما يجعل لكل وقت ما يملؤه من العمل.

ولقد أعطانا الإمام ابن الجوزي درسًا بليغًا في الحفاظ على الأوقات، وكان له موقف من أهل الفراغ، الذين لا يعرفون معنى الحياة، وقيمة الوقت فهم يضيعونه فيما لا يفيد.

فهو يحكي تجربته مع أهل الفراغ، وتضييع الزمان، وما ألهمه الله تعالى لاغتنام الأوقات.

فيقول ابن الجوزي: أعوذ بالله من صحبة البطالين! لقد رأيت خلقًا كثيرًا يجرون معي فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة، ويسمون ذلك التردد خدمة، ويطلبون الجلوس، ويجرون فيه أحاديث الناس، وما لا يعني، وما يتخلله غيبة!

وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس، وربما طلبه المزور، وتشوق إليه، واستوحش من الوحدة، وخصوصًا في أيام التهاني والأعياد، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام، بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان.

فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء، والواجب انتهابه بفعل الخير، كرهت

ذلك، وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرت عليهم، وقعت وحشة، لموضع قطع المألوف! وإن تقبلته منهم، ضاع الزمان! فصرت أدافع اللقاء جهدي: فإذا غلبت، قصرت في الكلام، لأتعجل الفراق.

ثم أعددت أعمالًا تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم، لئلا يمضي الزمان فارغًا، فجعلت من المستعد للقائهم: قطع الكاغد(١)، وبري الأقلام، وحزم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لا بد منها، ولا تحتاج إلى فكر، وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم، لئلا يضيع شيء من وقتي. نسأل الله ﷻ أن يعرفنا شرف أوقات العمر، وأن يوفقنا لاغتنامه.

ولقد شاهدت خلقًا كثيرًا لا يعرفون معنى الحياة: فمنهم من أغناه الله عن التكسب بكثرة ماله، فهو يقعد في السوق أكثر النهار، ينظر إلى الناس، وكم تمر به من آفة ومنكر! ومنهم من يخلو بلعب الشطرنج! ومنهم من يقطع الزمان بكثرة الحديث عن السلاطين، والغلاء والرخص، إلى غير ذلك: فعلمت أن الله تعالى لم يطلع على شرف العمر ومعرفة قدر أوقات العافية إلا من وفقه وألهمه اغتنام ذلك، ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا ﴾ [فصلت:٣٥].(٢)

إن شغل الأوقات وشحنها بالأعمال والواجبات والانتقال من عمل إلى عمل ومن مهمة إلى مهمة ولو كانت خفيفة يحمي المرء من علل البطالة

(١) الكاغد: ورق الكتابة.

(٢) صيد الخاطر: (ص: ٢٤٠: ٢٤١).

ولوثات الفراغ. والنفس كما قال الإمام الشافعي رحمه الله إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

- وإن الأمة لتتخلص من مفاسد كثيرة وشرور عريضة، لو أنها تحكمت في أوقات فراغ أبنائها، وليس بالإفادة منها بعد أن توجد، ولكن بإيجاد ترتيب لا يكون معه فراغ قاتل.

- إن مشاعر الخوف والقلق، والحقد والغيرة والحسد، لا تندفع إلى النفس الإنسانية إلا حينما تكون فارغة غير مشغولة.

- وإن توزيع التكاليف الشرعية في الإسلام منظور فيه إلى هذه الحقيقة؛ فشرائعه تدور على الجهاد والمجاهدة، مجاهدة النفس ومجاهدة الناس.

فالصلوات الخمس في ترتيبها وتوزيعها، والعبادات الأخرى في واجباتها ونوافلها بدنية ومالية، والأذكار بكرة وعشيًا، قيامًا وقعودًا وعلى المضاجع، والحرف والمهن، والقيام بحقوق القريب والبعيد كل أولئك جهادات ومجاهدات تستغرق العمر كله لحظة لحظة، لا تبقي فرصة للغفلات والذهولات.(١)

✍ **قيل لمحمد بن واسع**: كيف أصبحت؟ قال: ما ظنك برجل يرتحل كل يوم مرحلة إلى الآخرة.(٢)

- لو تأملنا بقليل من التفكر هذه الحقيقة لنظرنا إلى ما بقي من أعمارنا

---

(١) الوقت وأهميته في حياة المسلم: (٢٤).

(٢) البداية والنهاية ١٣/ ١٦٦.

نظرة الحريص على كل لحظة، وبالمثال يتضح المقال، فلننظر إلى اللحظات الأخيرة والبقية الباقية من عمر أبي يوسف يعقوب الأنصاري، كما يرويها إبراهيم بن الجراح الكوفي بقوله: مرض أبو يوسف فأتيتُه أعودُه، فوجدتُه مُغْمىً عليهِ، فلمَّا أفاق قال لي: ما تقولُ في مسألةٍ؟ قلتُ: في مثلِ هذه الحالِ؟! قال: لا بأس ندرسُ بذلك لعلَّه ينجو به ناجٍ.

ثم قال: يا إبراهيمُ، أيُّما أفضلُ في رمي الجمارِ: أن يرميها الرجلُ ماشيًا أو راكبًا؟ قلتُ: راكبًا. قال: أخطأت. قلتُ: ماشيًا. قال: أخطأت. قلتُ: أيُّهما أفضلُ؟ قال: ما كان يُوقفُ عندهُ فالأفضلُ أنْ يرميه ماشيًا، وأما ما كان لا يُوقفُ عنده، فالأفضلُ أن يرميه راكبًا، ثم قمتُ من عندهِ فما بلغتُ باب دارِهِ حتى سمعتُ الصراخ عليه وإذا هو قدْ مات. رحمةُ الله عليه.

✍ **قال أحدُ الكُتَّابِ المعاصرين**: هكذا كانوا!! الموتُ جاثمٌ على رأسِ أحدِهِمْ بكُربِهِ وغُصَصِهِ، والحشرجةُ تشتدُّ في نفسِهِ وصدرِهِ، والأغماءُ والغشيانُ محيطٌ بهِ، فإذا صحا أو أفاق من غشيتِهِ لحظاتٍ، تساءل عنْ بعضِ مسائلِ العلمِ الفرعيَّةِ أو المندوبةِ، ليتعلَّمها أو ليعلِّمها، وهو في تلك الحالِ التي أخذ فيها الموتُ منه الأنفاس والتلابيب.(١)

٢ - العفو والتسامح:

إن الحقد والكراهية لا قيمة لها بين من سيصيرون ترابًا، كما أنه لا معنى للغيظ والبغض ونحن عن قريب راحلون وللدنيا مفارقون ولنعيمها تاركون.

(١) لا تحزن: (ص: ١٩٥).

* قَالَ صاحب العظمة والكبرياء: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف:١٩٩]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ [الحجر:٨٥].

* وقال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور:٢٢].

* وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤].

* وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى:٤٣].

* وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: «**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ**(١)**، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، وَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبرِيلُ عليه السلام فَنَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَد بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا**

(١) «قرن الثعالب: هو قرن المنازل وهو ميقات أهل نجد، على مرحلتين من مكة».

مَلَكُ الجِبال، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبِّي إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَطْبَقْتُ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ». فَقَالَ النبي ﷺ: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**».(١)

دخل بهاء الدين السبكي على الشيخ برهان الدين الإنباسي يعوده في مرضٍ أشفى منه على الموت، وقد غلب على ظنه أنه لا يعيش من هذا المرض، فتحادثا ساعة وكان تجاههما نعش قد جدد عمله، فنظر بهاء الدين السبكي إلى النعش ثم قال للإبناس: يا شيخ برهان الدين أتدري ما يقول هذا النعش؟.

فقال إنه يقول:

انظر إليَّ بعقلك ... أنا المعد لحملك

أنا سرير المنايا ... كم سار مثلي لمثلك.(٢)

٣ - الإنفاق في سبيل الله:

* عَنِ الحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ عَبْدُ اللهِ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ، قَالَ: «**فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ**».(٣)

ولذلك قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: «مَنْ قَرَّبَ الْمَوْتَ مِنْ قَلْبِهِ اسْتَكْثَرَ مَا

---

(١) البخاري: (٣٢٣١)، ومسلم: (١٧٩٥).

(٢) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي: (١/ ٤١٣). بتصرف.

(٣) صحيح البخاري: (٦٤٤٢).

فِي يَدَيْهِ». (١)

• الإنفاق ثمرة ودواء:

إن الانفاق إحدى ثمار ذكر الموت، وهو أيضًا دواء لمن شكا طول الأمل وكراهية الموت، فقد رُوِيَ «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أَكْرَهُ الْمَوْتَ. قَالَ: «**أَلَكَ مَالٌ؟**» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «**قَدِّمْ مَالَك فَإِنَّ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ مَالِهِ**». (٢)

وهذا كلام صحيح صادق؛ لأن من ينفق ماله في سبيل الله فإنه يشترى شيئًا به في الجنة بفضل الله تعالى، وكلما زادت نفقة المنفق بإخلاص وقبلها الله منه، فإن أملاكه تزداد في جنة الله بأمر الله تعالى، فأحبَّ أن يُعاينَ ما اشْترى ويشاهد ويرى، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالموت، لذا أحب أن يموت.

٤ - المسارعة في الخيرات:

* قال صاحب العظمة: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨].

* وقال صاحب الكبرياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء:٩٠].

* وقال أعزُّ من قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠ - ٦١].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: (٥/ ٣١٦).

(٢) أدب الدنيا والدين: (ص: ١١٤).

✍ **قال سفيان بْن عُيَيْنَة**: كان بالكوفة ثلاثة لو قيل لأحدهم: إنك تموت غدا لم يقدر أن يزيد في عمله: مُحَمَّد ابْن سوقة، وأَبُو حيان التَّيْمِيّ، وعَمْرو بْن قيس الملائي.

✍ **قال سُفْيَان**: وكان مُحَمَّد بْن سوقة لا يحسن أن يعصي اللَّه ﷻ.(١)

وذلك بسبب أن قلوبهم امتلأت بذكر دنو الأجل وقرب الرحيل، والقدوم على نتيجة أعمالهم وجزاء سعيهم.

ولقد فهم عبد الله بن المبارك هذا الأمر، فلما قيل له: يا أبا عبد الرحمن إلى متى تكتب هذا الحديث؟ فقال: لعل الكلمة التي أنتفع بها ما كتبتها بعد.(٢)

• عابد يسبقُ أجرُه أجرَ شهيد!

* عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ، أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ بَلِيٍّ قَدِمَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ إِسْلَامُهُمَا جَمِيعًا، فَكَانَ أَحَدُهُمَا أَشَدَّ اجْتِهَادًا مِنَ الْآخَرِ، فَغَزَا الْمُجْتَهِدُ مِنْهُمَا فَاسْتُشْهِدَ، ثُمَّ مَكَثَ الْآخَرُ بَعْدَهُ سَنَةً، ثُمَّ تُوُفِّيَ، قَالَ طَلْحَةُ: فَرَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ: بَيْنَا أَنَا عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ، إِذَا أَنَا بِهِمَا، فَخَرَجَ خَارِجٌ مِنَ الْجَنَّةِ، فَأَذِنَ لِلَّذِي تُوُفِّيَ الْآخِرَ مِنْهُمَا، ثُمَّ خَرَجَ، فَأَذِنَ لِلَّذِي اسْتُشْهِدَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيَّ، فَقَالَ: ارْجِعْ، فَإِنَّكَ لَمْ يَأْنِ لَكَ بَعْدُ، فَأَصْبَحَ طَلْحَةُ يُحَدِّثُ بِهِ النَّاسَ، فَعَجِبُوا لِذَلِكَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَحَدَّثُوهُ الْحَدِيثَ، فَقَالَ: «**مِنْ أَيِّ ذَلِكَ تَعْجَبُونَ؟**»

(١) تهذيب الكمال في أسماء الرجال: (٢٥/ ٣٣٥).

(٢) صفة الصفوة: (٢/ ٣٢٦).

فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا كَانَ أَشَدَّ الرَّجُلَيْنِ اجْتِهَادًا، ثُمَّ اسْتُشْهِدَ، وَدَخَلَ هَذَا الْآخِرُ الْجَنَّةَ قَبْلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَيْسَ قَدْ مَكَثَ هَذَا بَعْدَهُ سَنَةً؟**» قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «**وَأَدْرَكَ رَمَضَانَ فَصَامَ، وَصَلَّى كَذَا وَكَذَا مِنْ سَجْدَةٍ فِي السَّنَةِ؟**» قَالُوا: بَلَى، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَمَا بَيْنَهُمَا أَبْعَدُ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**».(١)

---

(١) سنن ابن ماجه: (٣٩٢٥)، صحيح الجامع: (١٣١٦).

الموعظة الثانية والعشرون

وَلا تكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ

وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ

يقول صاحب العظمة والكبرياء: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [هود:٤٢].

إن نوحًا عليه السلام نادى على ولده قائلًا: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [هود:٤٢]، ولم يقل نوح: مع الغارقين لأن مصيبة الدين أعظم المصائب.

- وَفِي هذا إشارة: إلى أن صاحب العقل ينبغي أن يصون دينه أكثر من أن يصون نفسه.

ومن هنا لنا وقفة مع الكفر وأنواعه، حتى نصون أنفسنا منه ومن أنواعه بعد توفيق الله سبحانه وتعالى.

وللكفر أنواع كثيرة، أهمها:

- **النوع الأول: كفر الإنكار والتكذيب:**

وهو أن ينكر المكلف شيئًا من أصول الدين، أو أحكامه، أو أخباره الثابتة ثبوتًا قطعيًا. وذلك بأن ينكر بقلبه، أو لسانه أصلًا من أصول الدين، أو حكمًا من أحكامه، أو خبرًا من أخباره المعلومة من دين الإسلام بالضرورة

والتي ورد في شأنها نص صريح من كتاب الله تعالى، أو وردت في شأنها أحاديث نبوية متواترة تواترًا معلومًا، وأجمع أهل العلم عليها إجماعًا قطعيًا، أو ينكر ما يجزم هو في قرارة نفسه بأنه من دين الله تعالى.(١)

- ومثل الإنكار بالقلب واللسان: أن يفعل ما يدل على إنكاره شيئًا من دين الله تعالى.(٢)

وقد أجمع العلماء على كفر من وقع في هذا النوع أي كفر الجحود؛ لأنه مكذبٌ لكلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ، رادٌّ لهما ولإجماع الأمة القطعي.

ومن أمثلة هذا النوع من أنواع الكفر الأكبر:

أ- أن ينكر شيئًا من أركان الإيمان أو غيرها من أصول الدين، أو ينكر شيئًا مما أخبر الله عنه في كتابه، أو ورد في شأنه أحاديث متواترة وأجمع أهل العلم عليه إجماعًا قطعيًا، كأن ينكر ربوبية الله تعالى أو ألوهيته، أو ينكر اسمًا أو صفة لله تعالى مما أجمع عليه إجماعًا قطعيًا، كأن ينكر صفة العلم، أو ينكر وجود أحد من الملائكة المجمع عليهم كجبريل أو ميكائيل عليهما السلام، أو ينكر كتابًا من كتب الله المجمع عليها، كأن ينكر الزبور أو التوراة أو القرآن، أو ينكر نبوة أحد من الأنبياء المجمع عليهم، كأن ينكر رسالة نوح أو إبراهيم أو

---

(١) وذلك بأن ينكره في الظاهر مجاملة أو عنادًا لغيره، أو في حال غضب أو مشاجرة أو خصومة ونحو ذلك، مع أنه في قرارة نفسه يعلم أنه من دين الله تعالى.

(٢) ومن ذلك أن يصلي إلى غير القبلة؛ لأنه يدل على إنكاره الإجماع القطعي والنصوص الدالة على وجوب التوجه إلى الكعبة وعدم صحة صلاة من توجه إلى غيرها.

هود عليهم السلام.(١)

أو ينكر البعث للأجساد والأرواح، أو ينكر الحساب أو الجنة أو النار، أو ينكر نعيم القبر أو عذابه، أو ينكر أن الله تعالى قدَّر جميع الأشياء قبل حدوثها.

ومنه أن يصحح أديان الكفار كاليهود أو النصارى أو غيرهم، أو لا يكفرهم، أو يقول: إنهم لن يخلدوا في النار، ومنه أن ينسب نفسه إلى غير دين الإسلام.(٢)

ومنه أن ينكر صحبة أبي بكر، أو يقول بردة الصحابة أو أكثرهم، أو يقول بفسقهم كلهم، أو ينكر وجود الجن، أو ينكر إغراق قوم نوح.(٣)

---

(١) ومن ذلك أن ينكر شيئًا مجمعًا عليه يتعلق بأحد من الأنبياء عليهم السلام كأن يعتقد أن جبريل عليه السلام غلط في الرسالة، فنزل بالوحي على محمد ﷺ وكان مرسلًا به إلى علي ابن أبي طالب رضي الله عنه كما يقول ذلك بعض غلاة الشيعة الرافضة، أو ينكر معجزة من معجزات الأنبياء المجمع عليها، أو يفضل الأولياء على أحد منهم، أو يعتقد أن أحدًا من بني آدم أفضل من النبي ﷺ، أو يعتقد أنه لا يجب العمل بالسّنة، أو ينكر صحة حديث متواتر مجمع عليه إجماعًا قطعيًا، ومنه أن يقول: إن بعض الناس لا يجب عليه اتِّباع النبي ﷺ.

(٢) وذلك بأن يقول عن نفسه: «هو كافر»، أو «هو يهودي»، أو «هو نصراني»، ومثله ما إذا قيل له: هل أنت مسلم. فقال: لا. فهذا كله كفر؛ لأنه إما أنه يخبر عن ارتداده فعلًا عن الإسلام، وإما أنه ينسب دين الإسلام إلى الكفر، أو إلى هذه الأديان المحرفة إما اعتقادًا لذلك، وهذا إنكار لما هو معلوم من الدين بالضرورة، وإما استهزاء واستخفافًا بدين الإسلام، وهذا كله كفر.

(٣) ونحو ذلك مما أخبر الله عنه في كتابه من أخبار الأمم الماضية، أو غير ذلك، كأن ⇦

ب - أن ينكر تحريم المحرمات الظاهرة المجمع على تحريمها، كالسرقة، وشرب الخمر، والزنى، والتبرج، والاختلاط بين الرجال والنساء، ونحو ذلك.

أو يعتقد أن أحدًا يجوز له الخروج على شريعة النبي ﷺ، فلا يجب عليه الالتزام بأحكامها، فيجوز له ترك الواجبات وفعل المحرمات.(١)

أو يعتقد أن أحدًا يجوز له أن يحكم أو يتحاكم إلى غير شرع الله تعالى.

ج- أن ينكر حِلّ المباحات الظاهرة المجمع على حلها، كأن يجحد حِلَّ أكل لحوم بهيمة الأنعام، أو ينكر حل تعدد الزوجات، أو حل أكل الخبز، ونحو ذلك.

د- أن ينكر وجوب واجبٍ من الواجبات المجمع عليها إجماعًا قطعيًا، كأن ينكر وجوب ركن من أركان الإسلام، أو ينكر أصل وجوب الجهاد، أو أصل وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أو ينكر سنية سنة من السنن أو النوافل المجمع عليها إجماعًا قطعيًا، كأن

⇦

ينكر وجود السماوات السبع، أو ينكر وجود الشيطان، أو ينكر إخراجه من الجنة، أو يقول بتناسخ الأرواح ونقلها إلى أرواح أخرى، أو ينكر إنزال المنّ والسلوى على بني إسرائيل، أو ينكر قصة أصحاب الكهف، أو ينكر قصة الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، ونحو ذلك.

(١) ومن هذا اعتقاد بعض غلاة الصوفية أن بعض مشايخهم يحل له فعل المحرمات، فهذا الاعتقاد كفر بأجماع أهل العلم. ومنه أن يعتقد أن أحدًا حرٌّ في نفسه يفعل ما يشاء، كما يتفوه به بعض المنافقين، ومنه أن يعتقد حل موالاة الكفار.

ينكر السنن الرواتب، أو ينكر استحباب صيام التطوع، أو حج التطوع، أو صدقة التطوع، ونحو ذلك.(١)

- **النوع الثاني: كفر الشك والظن:**

وهو أن يتردد المسلم في إيمانه بشيء من أصول الدين المجمع عليها، أو لا يجزم في تصديقه بخبر أو حكم ثابت معلوم من الدين بالضرورة.

فمن تردد أو لم يجزم في إيمانه وتصديقه بأركان الإيمان أو غيرها من أصول الدين المعلومة من الدين بالضرورة، والثابتة بالنصوص المتواترة، أو تردد في التصديق بحكم أو خبر ثابت بنصوص متواترة مما هو معلوم من الدين بالضرورة فقد وقع في الكفر المخرج من الملة بإجماع أهل العلم؛ لأن الإيمان لابد فيه من التصديق القلبي الجازم، الذي لا يعتريه شك ولا تردد، فمن تردد في إيمانه فليس بمسلم، وقد أخبرنا الله تعالى في قصة صاحب الجنة أنه كفر بمجرد شكه في أن جنته - أي بستانه - لن يبيد - أي لن يخرب- أبدًا، وشكه في قيام الساعة، حين قال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾ [الكهف:٣٥] يريد جنته، وحين قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف:٣٦]، فقال له صاحبه المؤمن: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ [الكهف:٣٧].

---

(١) ومن هذا اعتقاد بعض غلاة الصوفية أن بعض مشايخهم يحل له فعل المحرمات، فهذا الاعتقاد كفر بأجماع أهل العلم. ومنه أن يعتقد أن أحدًا حرٌّ في نفسه يفعل ما يشاء، كما يتفوه به بعض المنافقين، ومنه أن يعتقد حل موالاة الكفار.

ومن أمثلة هذا النوع:

- أن يشك في صحة القرآن.
- أو يشك في ثبوت عذاب القبر.
- أو يتردد في أن جبريل عليه السلام من ملائكة الله تعالى.
- أو يشك في تحريم الخمر.
- أو يشك في وجوب الزكاة.
- أو يشك في كفر اليهود أو النصارى.
- أو يشك في سنية السنن الراتبة.
- أو يشك في أن الله تعالى أهلك فرعون بالغرق.
- أو يشك في أن قارون كان من قوم موسى، وغير ذلك من الأصول والأحكام والأخبار الثابتة المعلومة من الدين بالضرورة، والتي سبق ذكر أمثلة كثيرة لها في النوع الأول.

- **النوع الثالث: كفر الامتناع والاستكبار:**

وهو: أن يصدِّق بأصول الإسلام وأحكامه بقلبه ولسانه، ولكن يرفض الانقياد بجوارحه لحكم من أحكامه استكبارًا وترفعًا.

وقد أجمع أهل العلم على كفر من امتنع من امتثال حكم من أحكام الشرع استكبارًا؛ لأنه معترض على حكمة الله تعالى، وهذا قدح في ربوبيته جلّ وعلا، وإنكار لصفة من صفات الله تعالى الثابتة في الكتاب والسنة، وهي صفة «الحكمة».

وأوضح مثال على هذا النوع من أنواع الكفر:

رفض إبليس امتثال أمر الله تعالى بالسجود لأبينا آدم ﷺ استكبارًا وترفعًا عن هذا الفعل الذي أمره الله تعالى به، معترضًا على ذلك بأنه هو أفضل من آدم، فلن يسجد له، حيث قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف:١٢].

وقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء:٦١] فاعترض على حكمة الله تعالى في هذا الأمر، ورفض الانقياد له من أجل ذلك.

ومن أمثلة هذا الكفر أيضًا: أن يرفض شخص أن يصلي صلاة الجماعة، ويترفع عنها، لأنها تسوي بينه وبين الآخرين.

ومن أمثلته أيضًا: أن يمتنع شخص عن لبس لباس الإحرام؛ لأنه في زعمه لباس الفقراء ولا يليق به، ونحو ذلك.

- **النوع الرابع: كفر السبّ والاستهزاء:**

وهو أن يستهزئ المسلم أو يسبّ شيئًا من دين الله تعالى مما هو معلوم من الدين بالضرورة، أو مما يعلم هو أنه من دين الله تعالى.

وذلك بأن يستهزئ بالقول أو الفعل.(١) بالله تعالى، أو باسم من أسمائه،

---

(١) من الاستهزاء بالفعل: الإشارة باليد، أو اللسان، أو الشفة، أو العين، أو غيرها مما يدل على الاستهزاء والاستهانة، ومنه إهانة الشيء بوضعه في القاذورات، أو بوضع القدم عليه، أو الجلوس عليه ونحو ذلك، ومنه أن يضرب أو يقتل أو يحارب مسلمًا، أو جماعة من المسلمين من أجل إسلامهم، أو من أجل التزامهم بأحكام ⇦

أو بصفة من صفاته المجمع عليها، أو يصف الله تعالى بصفة نقص، أو يسب الله تعالى.(١)

أو يسب دين الله تعالى كأن يلعن هذا الدين، أو يلعن دين شخص مسلم، أو يقول: إن هذا الدين متخلف، أو رجعي، أو لا يناسب هذا العصر، أو يستهزئ بملائكة الله تعالى، أو بواحد منهم: كأن يسب ملك الموت، أو خزنة جهنم.(٢)

أو يستهزئ أو يسب شيئًا من كتب الله، كأن يسب القرآن، أو يستهزئ به أو بآية منه بالقول، أو بالفعل بأن يهينه بوضعه في القاذورات ونحو ذلك.

أو يسب أحدًا من أنبياء الله المجمع على نبوتهم أو يستهزئ بهم، كأن يسب النبي ﷺ أو يستهزئ به.

أو يستهزئ بشيء مما ثبت في القرآن أو السنة من الواجبات أو السنن، كأن يستهزئ بالصلاة، أو يستهزئ بالسواك، أو بتوفير اللحية، أو بتقصير الثوب إلى نصف الساقين مع علمه بأن ذلك كله من دين الله تعالى، أو يستهزئ بشخص لتطبيقه واجبًا أو سنة ثابتة يعلم بثبوتها، وأنها من دين الله،

⇦

الإسلام وتطبيقهم لشرع الله، فإن هذا من أعظم الاستهزاء بدين الله تعالى، وهو أعظم من السبّ، ويدلّ على كرهه لدين الإسلام.

(١) وذلك كأن يتهم الله تعالى بالظلم، أو يلعن خالقه ورازقه سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

(٢) وكأن يستهزئ بأجنحة الملائكة أو بنزولهم.

وكان استهزاؤه بكل هذه الأمور من أجل مجرد فعل هذا الحكم الشـرعي، لا من أجل شكل الشخص وهيئته.

وقد أجمع أهل العلم على كفر من سبّ أو استهزأ بشيء مما ثبت أنه من دين الله تعالى، سواء أكان هازلًا أم لاعبًا أم مجاملًا لكافر أو غيره، أم في حال مشاجرة، أم في حال غضب.[1]، أم غير ذلك.

وذلك لأن الله تعالى قد حكم بكفر من استهزأ بالله تعالى وبآياته وبرسوله محمد ﷺ، مع أنهم كما قالوا كانوا يلعبون ويقطعون الطريق بذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة:٦٥، ٦٦]؛ ولأن من فعل ذلك فهو مستخف بالربوبية والرسالة ومستخف بعموم دين الله تعالى غير معظِّم لذلك كله، وهذا مناف للإيمان والإسلام.

- **النوع الخامس: كفر البغض:**

وهو أن يكره دين الإسلام، فقد أجمع أهل العلم على أن من أبغض دين الله تعالى كفر، لقوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ

(١) ومن الكفر في حال الغضب - والمراد الغضب الذي لا يُفقد المكلف عقله - أن يعلق كفره على أمر مستقبل، وإن كان هذا التعليق في غير حال الغضب، فهو كفر من باب أولى؛ لأنه يدل على استهزائه واستخفافه بدين الإسلام.

﴿٩﴾ ﴾ [محمد:٩]، ولأنه حينئذٍ يكون غيرَ معظِّم لهذا الدين(١)، بل إنَّ في قلبه عداوةً له، وهذا كله كفر.

• النوع السادس: كفر الإعراض:

ورد ذكر الإعراض في كتاب الله تعالى في آيات كثيرة، وأصل الإعراض هو: التولي عن الشيء، والصدود عنه، وعدم المبالاة به.

---

(١) فإن من تعظيم هذه الدين محبته، ومعلوم أن أهم أركان العبادة «المحبة» فمن لم يحب هذا الدين فقد أخل بهذا الركن العظيم، فكيف إذا أبغضه، ومعلوم أن من شروط «لا إله إلا الله» محبة هذه الكلمة ومحبة ما دلت عليه، فمن لم يحب ما اقتضته فقد أخل بهذا الشرط، فكيف إذا كرهه. ينظر مجموع الفتاوى ١٤/١٠٧-١٠٩، والصارم المسلول ص٥٢٤.

وقال شيخ الإسلام في رسالة المحبة ص١٠٤: «إذا كان أصل الإيمان صحيحًا، وهو التصديق، فإن هذه المحرمات يفعلها المؤمن مع كراهته وبغضه لها، فهو إذا فعلها لغلبة الشهوة عليه، فلابد أن يكون مع فعلها فيه بغض لها، وفيه خوف من عقاب الله عليها، وفيه رجاء لأن يخلص من عقابها، إما بتوبة، وإما حسنات، وإما عفو، وإما دون ذلك، وإلا فإذا لم يبغضها، ولم يخف الله فيها، ولم يرج رحمته، فهذا لا يكون مؤمنًا بحال، بل هو كافر أو منافق».

وقال أيضًا في المرجع نفسه ص١٩٣،١٩٤: «لم يتنازع العلماء في أن الرضا بما أمر الله به ورسوله واجب محبب، لا يجوز كراهة ذلك وسخطه، وأن محبة ذلك واجبة، بحيث يبغض ما أبغضه الله، ويسخط ما أسخطه الله من المحظور، ويحب ما أحبه، ويرضى ما رضيه الله من المأمور. وإنما تنازعوا في الرضا بما يقدره الحق من الألم بالمرض والفقر. فقيل: هو واجب. وقيل: هو مستحب. وهو أرجح، والقولان في أصحاب الإمام أحمد وغيرهم، وأما الصبر على ذلك فلا نزاع أنه واجب».

✍ **والإعراض عن دين الله تعالى قسمان:**

* **القسم الأول: الإعراض المكفر:**

وهو أن يترك المرء دين الله ويتولى عنه بقلبه ولسانه وجوارحه، أو يتركه بجوارحه مع تصديقه بقلبه ونطقه بالشهادتين.

وهذا القسم له ثلاث صور، هي:

١- الإعراض عن الاستماع لأوامر الله ﷻ، كحال الكفار الذين هم باقون على أديانهم المحرفة أو الذين لا دين لهم، ولم يبحثوا عن الدين الحق مع قيام الحجة عليهم، فهم أعرضوا عن تعلم ومعرفة أصل الدين الذي يكون به المرء مسلمًا، فهم يمكنهم معرفة الدين الحق والسير عليه، ولكنهم لم يلتفتوا إلى ذلك، ولم يرفعوا به رأسًا.

٢- الإعراض عن الانقياد لدين الله الحق وعن أوامر الله تعالى بعد استماعها ومعرفتها، وذلك بعدم قبولها فيترك ما هو شرط في صحة الإيمان، وهذا كحال الكفار الذين دعاهم الأنبياء وغيرهم من الدعاة إلى الدين الحق، أو عرفوا الحق بأنفسهم، فلم يسلموا، وبقوا على كفرهم، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ٣﴾ [الأحقاف:٣].

٣- الإعراض عن العمل بجميع أحكام الإسلام وفرائضه بعد إقراره بقلبه بأركان الإيمان ونطقه بالشهادتين.

فمن ترك جنس العمل بأحكام الإسلام، فلم يفعل شيئًا من الواجبات، لا صلاة ولا صيامًا ولا زكاةً ولا حجًا ولا غيرها، فهو كافر كفرًا أكبر بإجماع

السلف، لقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [آل عمران:٣٢]، ولقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [السجدة:٢٢]، ولآيات أخرى كثيرة تدل على كفر عموم المعرضين، ولأن تركه لجميع الأعمال الظاهرة دليل على خلو باطنه من الإيمان والتصديق الجازم.

القسم الثاني: الإعراض غير المكفر:

وهو أن يترك المسلم بعض الواجبات الشرعية غير الصلاة، ويؤدي بعضها.

- **تنبيه:**

إن المسلم قد يقع في بعض أنواع الكفر الأكبر أو الشرك الأكبر والتي قال أهل العلم: «من فعلها فقد كفر».

ولكن قد لا يحكم على هذا المسلم المعيَّن بالكفر، وذلك لفقد شرط من شروط الحكم عليه بالكفر، أو لوجود مانع من ذلك، كأن يكون جاهلًا، كما في قصة الذي أمر أولاده إذا مات أن يحرِّقوه ثم يذروا رماده في يوم شديد الريح في البحر وقال: «**والله لئن قدر الله عليَّ ليعذبني عذابًا ما عذب به أحدًا**»، فغفر الله له، فهو قد شك في قدرة الله على إعادة خلقه، بل اعتقد أنه لا يعاد، وهذا كفر باتفاق المسلمين، ومع ذلك غفر الله له لجهله وخوفه من ربه.

- **ومن موانع التكفير للمعيَّن أيضًا**: التأويل، وهو: أن يرتكب المسلم

أمرًا كفريًّا معتقدًا مشروعيته أو إباحته له لدليل يرى صحته أو لأمر يراه عـذرًا له في ذل وهو مخطئ في ذلك كله.

فإذا أنكر المسلم أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة مثلًا، أو فعـل مـا يـدل على إنكاره لذلك، وكان عنده شبهة تأويل، فإنه يعذر بذلك ولـو كانـت هـذه الشبهة ضعيفة إذا كان هذا التأويل سائغًا في لغة العـرب ولـه وجـه في العلـم، وهذا مما لا خلاف فيه بين أهل السنة. وعلى وجه العموم فعـذر التأويـل مـن أوسع موانع تكفير المعين.

ولهذا ذكر بعض أهل العلم أنه إذا بلغ الدليلُ المتأوِّلَ فيما خالف فيـه ولم يرجع وكان في مسألة يُحتَملُ وقوع الخطأ فيها، واحتمل بقاء الشـبهة في قلـب من أخطأ فيها لشبه أثيرت حولها أو لملابسات أحاطت بها في واقعة معينة أنـه لا يحكم بكفره، لقولـه تعـالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ﴾ [الأحزاب:٥].

ولذلك لم يكِفّر بعض العلماء بعض المعينين من الجهمية الذين يعتقدون بعض الاعتقادات الكفرية في صفات الله تعالى.

ومن أجل مانع التأويل أيضًا لم يكفر بعض العلمـاء بعـض مـن يغلـون في الموتى ويسألونهم الشفاعة عند الله تعالى.

ومن أجل مانع التأويل كذلك لم يكفـر الصـحابة رضي الله عنهم الخـوارج الـذين خرجوا عليهم وحاربوهم، وخالفوا أمورًا كثيرة مجمعًا عليهـا بـين الصـحابة إجماعًا قطعيًّا.

وعلى وجه العموم فمسألة تكفير المعيَّن مسألة كبيرة من مسائل الاجتهاد التي تختلف فيها أنظار المجتهدين، وللعلماء فيها أقوال وتفصيلات ليس هذا موضع بسطها.

ولهذا ينبغي للمسلم أن لا يتعجل في الحكم على الشخص المعين أو الجماعة المعينة بالكفر حتى يتأكد من وجود جميع شروط الحكم عليه بالكفر، وانتفاء جميع موانع التكفير في حقه، وهذا يجعل مسألة تكفير المعين من مسائل الاجتهاد التي لا يحكم فيها بالكفر على شخص معين أو جماعة أو غيرهم من المعيَّنين إلا أهل العلم الراسخون فيه، لأنه يحتاج إلى اجتهاد من وجهين:

الأول: معرفة هل هذا القول أو الفعل الذي صدر من هذا المكلف مما يدخل في أنواع الكفر الأكبر أم لا؟.

والثاني: معرفة الحكم الصحيح الذي يحكم به على هذا المكلف، وهل وجدت جميع أسباب الحكم عليه بالكفر وانتفت جميع الموانع من تكفيره أم لا؟.

والحكم على المسلم بالكفر وهو لا يستحقه ذنب عظيم؛ لأنه حكم عليه بالخروج من ملة الإسلام، وأنه حلال الدم والمال، وحكم عليه بالخلود في النار إن مات على ذلك، ولذلك ورد الوعيد الشديد في شأن من يحكم على مسلم بالكفر، وهو ليس كذلك، فقد ثبت عن أبي ذر قال: قال النبي ﷺ: «**لا يرمي رجل رجلًا بالفسوق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك**».

ولذلك كله فإنه يجب على المسلم الذي يريد لنفسه النجاة أن لا يتعجل في إصدار الحكم على أحد من المسلمين بالكفر أو الشرك.

كما أنه يحرم على العامة وصغار طلاب العلم أن يحكموا بالكفر على مسلم معيَّن أو على جماعة معيَّنة من المسلمين أو على أُناس معينين من المسلمين ينتسبون إلى مذهب معيَّن دون الرجوع في ذلك إلى العلماء.

كما أنه يجب على كل مسلم أن يجتنب مجالسة الذين يتكلمون في مسائل التكفير وهم ممن يحرم عليهم ذلك لقلة علمهم؛ لأن كلامهم في هذه المسائل من الخوض في آيات الله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام:٦٨].(١)

(١) مختصر تسهيل العقيدة الإسلامية: (٦٩/ ٨١). بتصرف.

الموعظة الثالثة و العشرون

يقظة متأخرة فات أوانها

يقظة متأخرة فات أوانها

يقول أعزُّ من قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة:١٢].

إن الله سبحانه وتعالى يصوِّرُ لنَا في هذه الآية أحوال الكافرين، عندما يقفون للحساب، تصويرًا مرعبًا مخيفًا فيقول: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة:١٢] .

وجواب «لو» محذوف، والتقدير: لرأيت شيئًا تقشعر من هوله الأبدان.

وقوله: ناكِسُوا من النكس، وهو قلب الشيء على رأسه كالتنكيس.. وفعله من باب نصر- والخطاب يصح أن يكون للرسول ﷺ أو لكل من يصلح له.

أي: ولو ترى- أيها الرسول الكريم- حال أولئك المجرمين الذين أنكروا البعث والجزاء، وهم يقفون أمام خالقهم بذلة وخزي، لحسابهم على أعمالهم.. لو ترى ذلك لرأيت شيئًا ترتعد له الفرائص، وتهتز منه القلوب.

وقوله: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة:١٢] حكاية لما يقولونه في هذا الموقف العصيب.

أي: يقولون بذلة وندم: يا ربنا نحن الآن نبصر مصيرنا، ونسمع قولك ونندم على ما كنا فيه من كفر وضلال، فَارْجِعْنا إلى الدنيا، لكي نَعْمَلَ عملا صالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ الآن بأن ما جاءنا به رسولك هو الحق، وأن البعث حق. وأن الجزاء حق، وأن الجنة حق، وأن النار حق.

ولكن هذا الإيقان والاعتراف منهم، قد جاء في غير أوانه، ولذا لا يقبله- سبحانه- منهم.

إنه لأمر عجيب! كيف يقولون يوم القيامة وعند رؤية جهنم أبصرنا وسمعنا؟

ألم يهبهم الله في حياتهم السمع والبصر؟

بلى لقد أعطاهم الله السمع والبصر، وكانوا يتمتعون بهما، لكنهم عند معاينة العذاب أدركوا حقيقةً مؤلمة. حقيقةَ أنَّ السمع والبصر وسيلة لحدوث اليقظة وليستا غاية في ذاتهما، إنهم أدركوا أنهم لم يحققوا بالسمع والبصر الهدف المنشود الذي من أجله خلقهم الله.

من لم يستخدم بصره في طاعة الله في الدنيا أعماه الله في الآخرة:

إن الله سبحانه يخبرنا أن الأمر في الآخرة سيتغير، حيث إن المعرض عن ذكر الله سيحشره اللهُ أعمى قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه: ١٢٤- ١٢٦].

وعندها يكون الندم: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفرقان:٢٧]، فإن السمع و البصر وكل ما وهبه الله للإنسان إنما هو وسيلة لتحقيق هدف الطاعة. فهل نحن أحْسَنَّا استخدامها؟

يقظة الخليل إبراهيم عليه السلام:

إن إبراهيم عليه السلام قد تلمست نفسه وجه الحق فهتف قائلًا: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنعام: ٧٩- ٨٠]، وهنا كان الأمر: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ﴾ [البقرة:١٣١][1]، فكانت

---

(١) هل كان إبراهيم كافرًا أو مشركا حتى يقول الله تعالى له: أسلم؟

- والجواب من كلام الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة:١٣٥]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران:٦٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران:٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء:١٢٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام:١٦١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل:١٢٠]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

⇦

الاستجابة ويقظة العقل: ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٣١﴾ [البقرة:١٣١].

يقظة إسماعيل عليه السلام:

والذبيح عليه السلام كان إيمانه عميقًا، ولقد ترجم هذا الإيمان إلى طاعة مطلقة واستسلام لله عندما أخبره أبوه أن الله قد أمره بذبحه ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات:١٠٢]، فلم يتردد لحظة وكانت يقظة قلبه حمايةً كافية من ضعف النفس فهتف قائلًا بثقة ويقين وصبر وتسليم: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢].

فكان نجاحه نجاحًا باهرًا، وكانت النتيجةُ نجاتَه في الدنيا و الآخرة.

[النحل:١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج:٧٨].

- كل هذه الآيات تؤكد أن الخليل عليه السلام كان حنيفًا مسلمًا، **وهنا يأتي السؤال كيف قال الله تعالى له: أسلم؟**

والجواب: أسلم هنا بمعنى استسلم، ولما قال الخليل أسلمت جاءت الاختبارات.

١ - أُلقي في النار فاستسلم لأمر الله تعالى.

٢ - أمره الله بترك زوجته وولده في مكان موحش لا أنيس ولا جليس واستسلم، وكذلك استسلمت زوجه لما قالت: لن يضيعنا.

٣ - أمره الله بذبح ولده وهنا قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ١٠٣﴾ [الصافات:١٠٣] فاستسلم إبراهيم واسماعيل عليهما السلام، ونحن كذلك يجب أن نكون مستسلمين لله ولآياته ولدينه. ونسأل الله أن يرزقنا الاستسلام له سبحانه وتعالى.

يقظة يوسف عليه السلام:

أما يوسف عليه السلام فقد تهيأت له كل أسباب المعصية، ولكنَّ يقظةَ قلبه كانت حمايةً كافية من ضعف النفس فهتف قائلًا: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف:٢٣].

يقظة موسى عليه السلام:

ولما خرج موسى بقومه ليلًا مخافة بطش فرعون بهم كان البلاء عظيمًا قال تعالى: ﴿۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الشعراء: ٥٢- ٦٠]، وهنا زاد الخطر ونظر الفريقان إلى بعضهما كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء:٦١].

وَفِي هذه اللحظات التي ضَعُف فيها قوم موسى عليه السلام وشعروا بالخوف وعدم النجاة، كانت يقظة قلب موسى حماية كافية من ضعف النفس فهتف قائلًا: ﴿سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء:٦٢].

وهنا جاء الفرج من الله ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٦٧﴾

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٣ – ٦٨].

يقظة سحرة فرعون:

إننا يأخذنا العجب على لحظة هداية سحرة فرعون، فقد أبصروا بفضل الله في وقت مناسب تمامًا وهم أحياء يرزقون. ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٠ – ١٢٢]، فبالرغم من طاعتهم العمياء لفرعون التي جعلتهم من المفسدين في الأرض، إلا أن نور الهدى قد أزال ران القلوب فتحملوا التعذيب والإهانة في سبيل الله: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٣ – ١٢٤].

وكانت يقظة قلوبهم حماية كافية من ضعف النفس فهتفوا قائلين: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٥ – ١٢٦].

يقظة قلب رسولنا ﷺ:

إن رسولنا ﷺ واجه في هجرته خطرًا محققًا، لأن المشركين كانوا حريصين على قتله، وذهب الرسول ﷺ إلى الغار ومعه صاحبه، وهناك التفَّ المشركون حول الغار وخاف أبو بكر على رسول الله ﷺ، ولكنَّ يقظة قلب النبي ﷺ كانت حماية كافية من ضعف النفس فهتف قائلًا: ﴿ لَا تَحْزَنْ

إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ [التوبة:٤٠] وكان الفرج والنصر ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ(١) وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠﴾ [التوبة:٤٠].

يقظة أصحاب الغار:

إن الرسول ﷺ خرج من الغار بفضل الله تعالى، وقصَّ علينا قصة أصحاب الغار فقال: «**انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوْا المَبِيتَ إِلَى غَارٍ، فَدَخَلُوهُ فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ، فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ.**

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا، وَلَا مَالًا فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا، فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا، فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا، فَلَبِثْتُ وَالقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ، أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا، فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ».

---

(١) الضمير في قوله: عليه فيه قولان: أحدهما: عَلَى النَّبِيِّ ﷺ. وَالثَّانِي: عَلَى أَبِي بَكْرٍ. يقول ابْنُ الْعَرَبِيِّ: قَالَ عُلَمَاؤُنَا وَهُوَ الْأَقْوَى، لِأَنَّهُ خَافَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْقَوْمِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ بِتَأْمِينِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَكَنَ جَأْشُهُ وَذَهَبَ رَوْعُهُ وَحَصَلَ الْأَمْنُ. تفسير القرطبي: (٨/ ١٤٨).

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَقَالَ الآخَرُ: اللهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ، كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِي، فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا، قَالَتْ: لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ مِنْهَا».

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَقَالَ الثَّالِثُ: اللهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ، فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالبَقَرِ وَالغَنَمِ وَالرَّقِيقِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ لَا تَسْتَهْزِئُ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ، فَاسْتَاقَهُ، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ».(١)

إن هؤلاء الثلاثة الذين أغلق عليهم الغار كانت فتنتهم في ثلاثة أمور حذَّرَنا الله منها:

- فالأول كانت فتنته في الولد.
- والثاني كانت فتنته في النساء.

---

(١) صحيح البخاري: (٢٢٧٢).

- والثالث كانت فتنته في المال.

ولكنهم كانوا مثالًا ليقظة الروح والقلب في وقت وقوع الفتنة فنجاهم الله من الوقوع في شباكها.

- إنه لأمر عظيم أن يشعر المرء أن الله معه و يتصرف على هذا الأساس.

صور اليقظة في واقع الحياة:

إن يقظة العقل ليست كلماتٍ تقال، ولا مواقف تروى وتحكى بل إن اليقظة مواقف وأعمال:

- فمن يقظة العقل أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر كما قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران:١١٠].

- ومن يقظة العقل أن نجعل الإله هو الواحد الأحد وليس هوى النفس كما قال تعالى: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الفرقان:٤٣].

وقال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجاثية:٢٣].

- ومن يقظة العقل التفكر في مخلوقات الله والتوقف عند آياته كما قال أعزُّ من قال: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ

لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩١].

- ومن يقظة العقل احترام الرسول ﷺ وتقديره كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٨﴾ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ [الفتح: ٨- ٩].

وقال سبحانه: ﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور:٦٣].

- ومن يقظة العقل الحفاظ على الجماعة و الصف وعدم التفرقة كما قال أعزُّ من قال: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأنفال:٤٦].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأنعام:١٥٩].

إن القرارات الصائبة نتيجة ليقظة عقل وقلب:

إن يقظة العقل والروح تجعل الإنسان بعد فضل الله تعالى وتوفيقه، يتخذ قراراتٍ صائبةً في أوقات شديدة تكون فيها النجاة، ومن لم يكن يقظ القلب فإنه يأخذ قرارات فاشلة مدمرة ومن هؤلاء:

١ - صاحب الجنتين:

﴿ ۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف: ٣٢- ٣٦]، إنه برد فعل يفتقر إلى يقظة الروح والعقل أهلك ماله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الكهف: ٤٢- ٤٣].

٢ - أصحاب الجنة:

إن أصحاب الجنة أهلكوا جنتهم بفعل يفتقر إلى يقظة الروح والعقل ﴿ إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [القلم: ١٧ - ٢٢]، فلم يكتفوا بالقول، بل شرعوا بالفعل ﴿ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القلم: ٢٣ - ٢٥].

فكان ضياع كل شيء، ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ

يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾
كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [القلم: ٢٦ - ٣٣].

وكذلك فرعون وقارون، وغيرهما ممن غابوا تحت الثرى وكانوا لنا عبرة وعظة.

نسأل الله أن يوقظ قلوبنا وعقولنا من غفلتها.

الموعظة الرابعة و العشرون

الكنز المفقود

الكنز المفقود

يقول صاحب العظمة والكبرياء: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء:٨٢].

إن صاحب العظمة يبدأ هذه الآية بنون العظمة في فعل ﴿ وَنُنَزِّلُ ﴾ [الإسراء:٨٢] ليبين لنا المنة والعظمة والنعمة في إنزاله لهذا القرآن، ويبين لنا أن من القرآن ما هو شفاء ورحمة. وهنا سؤال جوهري: هل منا أحد لا يرجو أحدهما أعني الشفاء والرحمة؟

إن الحقيقة أنه لا يخلو إنسان من ابتلاء إما في صحته، وإما في إيمان قلبه، وإما في أمور حياته، فهو إما يرجو من الله شفاء، أو يرجو منه رحمة، والقرآن فيه الإثنين الشفاء والرحمة، ولكن المؤسف جدًا أن يكون هذا الشفاء موجودًا في بيوت كل المسلمين ومع ذلك لا يجد المسلمون منه الشفاء. فما السبب؟

وللجواب على هذا السؤال نقول: إذا كانت نفحة العطر تنعش الوجدان لدى الإنسان، فإن هذا العطر نفسه تستنشقه حشرة الجُعْلِ فتموت فور استنشاقه!!، **وهكذا حال البشر مع القرآن.**

فالقرآن جميعه كله شفاء، ولكن لا ينتفع به إلا المؤمنون الذين استجمعوا بالإيمان صلاحية الشفاء، أما غيرهم فلا يزيدهم إلا خسارًا، **فالعيب فيهم**

لا في القرآن.

✍ **كما قال الشافعي:**

نَعِيبُ زمانَنا والعيبُ فينا ... وما لزماننا عيبٌ سوانا
وقد نهجُو الزمانَ بغير جُرْمٍ ... ولو نطق الزمانُ بنا هجانا
فدُنْيانا التصنُّعُ والترائي ... ونحن به نُخادع من يرانا
وليس الذئبُ يأكل لحمَ ذئبٍ ... ويأكلُ بعضُنا بعضًا عِيانا

✍ **وقال آخر:**

وَمَنْ يَك ذا فَمٍ مُرٍّ مَريض ... يَجِد مُرًّا به الماء الزُّلالا.(١)

وما ذنب طبيب حاذقٍ مُجرِّبٍ أَمَرَ المريضَ بِتَنَاوُلِ دَوَاءٍ فلم يستعمله؟

وهل سمعت عن دواء قد اقتحم نفس إنسان مريض ليفرض عليه الشفاء رغم أنفه؟ ذلك ما لا يكون، **وهكذا البشر في علاقتهم مع القرآن.**

- إن جيِّد الطعام ورديئه سيان، فكلاهما يشبع الإنسان، لأن العافية هي التي تطيب هذا الطعام.

وإذا كان الأمر كذلك: فإن عافية الإنسان في كيان المسلم تجعله من القرآن في حقل بكر، ينتقي أطايبه، وكل ما فيه طيب.

---

(١) النحو الواضح: (٢/ ٥٠٧).

مجالات الشفاء في القرآن:

إن القرآن الكريم شفاء من أمراض النفس وأمراض الجسم معًا.

- **شفاء القرآن للنفس:**

إن القرآن شفاء لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان، فأشرقت وتفتحت لتلقي ما في القرآن من روح، وطمأنينة وأمان، وَفِي القرآن شفاء للنفس لأنه ينقي العقيدة من الوهم والخرافة، ففيه الحديث عن وحدانية الله سبحانه، وعن صفاته وأفعاله، وفيه الحديث عن اليوم الآخر،.....

وَفِي القرآن شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة، فهو يصل القلب بالله، فيسكن ويطمئن ويستشعر الحماية والأمن ويرضى فيستروح الرضى من الله والرضى عن الحياة.

وَفِي القرآن شفاء من الهوى والدنس والطمع والحسد ونزغات الشيطان.. وهي من آفات القلب تصيبه بالمرض والضعف والتعب، وتدفع به إلى التحطم والبلى والانهيار.

وَفِي القرآن شفاء من الاتجاهات المختلة في الشعور والتفكير. فهو يعصم العقل من الشطط، ويطلق له الحرية في مجالاته المثمرة، ويكفه عن إنفاق طاقته فيما لا يجدي، ويأخذه بمنهج سليم مضبوط، يجعل نشاطه منتجا ومأمونا. ويعصمه من الشطط والزلل.

- والقرآن شفاء للنفس لأنه يصون الأخلاق من الفساد، والسلوك من الانحراف، ويكفي أن نقرأ هذه الآيات ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ
وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ
وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ
فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ
وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا
﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا
تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ
رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ
خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ
إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن
قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾
وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ
كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ
تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ
عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ
طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ
الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم
بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الإسراء:٢٣-٤٠].

وهذه الآيات: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ
فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ

وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾
وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾
وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾
[لقمان: ١٦ – ١٩].

• شفاء القرآن للجسم:

والقرآن شفاء للجسم لأن فيه من البركة ما يصلح الله به مزاجه، ثم إنه ذكر كما قال تعالى: ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [ص:٨٧]، وبالذكر تطمئن القلوب ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد:٢٨]، والاطمئنان طارد للخوف، فيسلم الإنسان من آفة تمتص عافيته، ليظل بالقرآن صحيح الجسم موفور الطاقة، ينفق طاقاته في اعتدال بلا كبت ولا شطط فيحفظه سليما معافى ويدخر طاقاته للإنتاج المثمر.

✍ **يقول ابن القيم**: اشْتِمَال الْفَاتِحَةِ عَلَى الشِفَاءَيْنِ شِفَاءِ الْقُلُوبِ وَشِفَاءِ الْأَبْدَانِ:

اشْتِمَالُهَا عَلَى شِفَاءِ الْقُلُوبِ:

فَأَمَّا اشْتِمَالُهَا عَلَى شِفَاءِ الْقُلُوبِ: فَإِنَّهَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَتَمَّ اشْتِمَالٍ، فَإِنَّ مَدَارَ اعْتِلَالِ الْقُلُوبِ وَأَسْقَامِهَا عَلَى أَصْلَيْنِ: فَسَادِ الْعِلْمِ، وَفَسَادِ الْقَصْدِ.

وَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِمَا دَاءَانِ قَاتِلَانِ، وَهُمَا الضَّلَالُ وَالْغَضَبُ، فَالضَّلَالُ نَتِيجَةُ فَسَادِ الْعِلْمِ، وَالْغَضَبُ نَتِيجَةُ فَسَادِ الْقَصْدِ، وَهَذَانِ الْمَرَضَانِ هُمَا مِلَاكُ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ جَمِيعِهَا، فَهِدَايَةُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ تَتَضَمَّنُ الشِّفَاءَ مِنْ مَرَضِ

الضَّلَالِ، وَلِذَلِكَ كَانَ سُؤَالُ هَذِهِ الْهِدَايَةِ أَفْرَضَ دُعَاءٍ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ، وَأَوْجَبَهُ عَلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فِي كُلِّ صَلَاةٍ، لِشِدَّةِ ضَرُورَتِهِ وَفَاقَتِهِ إِلَى الْهِدَايَةِ الْمَطْلُوبَةِ، وَلَا يَقُومُ غَيْرُ هَذَا السُّؤَالِ مَقَامَهُ.

وَالتَّحَقُّقُ بِـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥] عِلْمًا وَمَعْرِفَةً، وَعَمَلًا وَحَالًا يَتَضَمَّنُ الشِّفَاءَ مِنْ مَرَضِ فَسَادِ الْقَلْبِ وَالْقَصْدِ، فَإِنَّ فَسَادَ الْقَصْدِ يَتَعَلَّقُ بِالْغَايَاتِ وَالْوَسَائِلِ، فَمَنْ طَلَبَ غَايَةً مُنْقَطِعَةً مُضْمَحِلَّةً فَانِيَةً، وَتَوَسَّلَ إِلَيْهَا بِأَنْوَاعِ الْوَسَائِلِ الْمُوَصِلَةِ إِلَيْهَا كَانَ كِلَا نَوْعِي قَصْدِهِ فَاسِدًا، وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ مَنْ كَانَ غَايَةُ مَطْلُوبِهِ غَيْرَ اللهِ وَعُبُودِيَّتِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَمُتَّبِعِي الشَّهَوَاتِ، الَّذِينَ لَا غَايَةَ لَهُمْ وَرَاءَهَا، وَأَصْحَابِ الرِّيَاسَاتِ الْمُتَّبِعِينَ لِإِقَامَةِ رِيَاسَتِهِمْ بِأَيِّ طَرِيقٍ كَانَ مِنْ حَقٍّ أَوْ بَاطِلٍ، فَإِذَا جَاءَ الْحَقُّ مُعَارِضًا فِي طَرِيقِ رِيَاسَتِهِمْ طَحَنُوهُ وَدَاسُوهُ بِأَرْجُلِهِمْ، فَإِنْ عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ دَفَعُوهُ دَفْعَ الصَّائِلِ، فَإِنْ عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ حَبَسُوهُ فِي الطَّرِيقِ، وَحَادُوا عَنْهُ إِلَى طَرِيقٍ أُخْرَى، وَهُمْ مُسْتَعِدُّونَ لِدَفْعِهِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ، فَإِذَا لَمْ يَجِدُوا مِنْهُ بُدًّا أَعْطَوْهُ السِّكَّةَ وَالْخُطْبَةَ وَعَزَلُوهُ عَنِ التَّصَرُّفِ وَالْحُكْمِ وَالتَّنْفِيذِ، وَإِنْ جَاءَ الْحَقُّ نَاصِرًا لَهُمْ وَكَانَ لَهُمْ صَالُوا بِهِ وَجَالُوا، وَأَتَوْا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ، لَا لِأَنَّهُ حَقٌّ، بَلْ لِمُوَافَقَتِهِ غَرَضَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ، وَانْتِصَارِهِمْ بِهِ ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ۝٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۝٤٩ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠﴾ [النور:٤٨-٥٠].

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ قَصْدَ هَؤُلَاءِ فَاسِدٌ فِي غَايَاتِهِمْ وَوَسَائِلِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ إِذَا بَطَلَتِ الْغَايَاتُ الَّتِي طَلَبُوهَا، وَاضْمَحَلَّتْ وَفَنِيَتْ، حَصَلُوا عَلَى أَعْظَمِ

الْخُسْرَانِ وَالْحَسرَاتِ، وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ نَدَامَةً وَتَحَسُّرًا إِذَا حَقَّ الْحَقُّ وَبَطَلَ الْبَاطِلُ، وَتَقَطَّعَتْ بِهِمْ أَسْبَابُ الْوَصْلِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ، وَتَيَقَّنُوا انْقِطَاعَهُمْ عَنْ رَكْبِ الْفَلَاحِ وَالسَّعَادَةِ، وَهَذَا يَظْهَرُ كَثِيرًا فِي الدُّنْيَا، وَيَظْهَرُ أَقْوَى مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ الرَّحِيلِ مِنْهَا وَالْقُدُومِ عَلَى اللهِ، وَيَشْتَدُّ ظُهُورُهُ وَتَحَقُّقُهُ فِي الْبَرْزَخِ، وَيَنْكَشِفُ كُلَّ الِانْكِشَافِ يَوْمَ اللِّقَاءِ، إِذَا حَقَّتِ الْحَقَائِقُ، وَفَازَ الْمُحِقُّونَ وَخَسِرَ الْمُبْطِلُونَ، وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ، وَكَانُوا مَخْدُوعِينَ مَغْرُورِينَ، فِيَالَهُ هُنَاكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ عَالِمَهُ، وَيَقِينٍ لَا يُنْجِي مُسْتَيْقِنَهُ.

وَكَذَلِكَ مَنْ طَلَبَ الْغَايَةَ الْعُلْيَا وَالْمَطْلَبَ الْأَسْمَى، وَلَكِنْ لَمْ يَتَوَسَّلْ إِلَيْهِ بِالْوَسِيلَةِ الْمُوَصِّلَةِ لَهُ وَإِلَيْهِ، بَلْ تَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِوَسِيلَةٍ ظَنَّهَا مُوَصِّلَةً إِلَيْهِ، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ الْقَوَاطِعِ عَنْهُ، فَحَالُهُ أَيضًا كَحَالِ هَذَا، وَكِلَاهُمَا فَاسِدُ الْقَصْدِ، وَلَا شِفَاءَ مِنْ هَذَا الْمَرَضِ إِلَّا بِدَوَاءِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]».

فَإِنَّ هَذَا الدَّوَاءَ مُرَكَّبٌ مِنْ سِتَّةِ أَجْزَاءٍ: (١) عُبُودِيَّةِ اللهِ لَا غَيْرِهِ. (٢) بِأَمْرِهِ وَشَرْعِهِ. (٣) لَا بِالْهَوَى، (٤) وَلَا بِآرَاءِ الرِّجَالِ وَأَوْضَاعِهِمْ، وَرُسُومِهِمْ، وَأَفْكَارِهِمْ. (٥) بِالِاسْتِعَانَةِ عَلَى عُبُودِيَّتِهِ بِهِ. (٦) لَا بِنَفْسِ الْعَبْدِ وَقُوَّتِهِ وَحَوْلِهِ وَلَا بِغَيْرِهِ.

فَهَذِهِ هِيَ أَجْزَاءُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥] فَإِذَا رَكَّبَهَا الطَّبِيبُ اللَّطِيفُ، الْعَالِمُ بِالْمَرَضِ، وَاسْتَعْمَلَهَا الْمَرِيضُ، حَصَلَ بِهَا الشِّفَاءُ التَّامُّ، وَمَا نَقَصَ مِنَ الشِّفَاءِ فَهُوَ لِفَوَاتِ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهَا، أَوِ اثْنَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ.

ثُمَّ إِنَّ الْقَلْبَ يَعْرِضُ لَهُ مَرَضَانِ عَظِيمَانِ، إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُمَا الْعَبْدُ تَرَامَيَا بِهِ

إِلَى التَّلَفِ وَلَا بُدَّ، وَهُمَا الرِّيَاءُ، وَالْكِبْرُ، فَدَوَاءُ الرِّيَاءِ بِـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] وَدَوَاءُ الْكِبْرِ بِـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥].

وَكَثِيرًا مَا كُنْتُ أَسْمَعُ شَيْخَ الْإِسْلَام ابْنَ تَيْمِيَّةَ قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ يَقُولُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] تَدْفَعُ الرِّيَاءَ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥] تَدْفَعُ الْكِبْرِيَاءَ.

فَإِذَا عُوفِيَ مِنْ مَرَضِ الرِّيَاءِ ب بِـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] وَمِنْ مَرَضِ الْكِبْرِيَاءِ وَالْعُجْبِ بِـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥] وَمِنْ مَرَضِ الضَّلَالِ وَالْجَهْلِ بِـ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة:٦] عُوفِيَ مِنْ أَمْرَاضِهِ وَأَسْقَامِهِ، وَرَفَلَ فِي أَثْوَابِ الْعَافِيَةِ، وَتَمَّتْ عَلَيْهِ النِّعْمَةُ، وَكَانَ مِنَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَهُمْ أَهْلُ فَسَادِ الْقَصْدِ، الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَعَدَلُوا عَنْهُ وَالضَّالِّينَ وَهُمْ أَهْلُ فَسَادِ الْعِلْمِ، الَّذِينَ جَهِلُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ.

وَحُقَّ لِسُورَةٍ تَشْتَمِلُ عَلَى هَذَيْنِ الشِّفَاءَيْنِ أَنْ يُسْتَشْفَى بِهَا مِنْ كُلِّ مَرَضٍ، وَلِهَذَا لَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَى هَذَا الشِّفَاءِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الشِّفَاءَيْنِ، كَانَ حُصُولُ الشِّفَاءِ الْأَدْنَى بِهَا أَوْلَى، كَمَا سَنُبَيِّنُهُ، فَلَا شَيْءَ أَشْفَى لِلْقُلُوبِ الَّتِي عَقَلَتْ عَنِ اللهِ وَكَلَامِهِ، وَفَهِمَتْ عَنْهُ فَهْمًا خَاصًّا، اخْتَصَّهَا بِهِ مِنْ مَعْنَى هَذِهِ السُّورَةِ.

تَضَمُّنُهَا لِشِفَاءِ الْأَبْدَانِ:

وَأَمَّا تَضَمُّنُهَا لِشِفَاءِ الْأَبْدَانِ فَنَذْكُرُ مِنْهُ مَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ، وَمَا شَهِدَتْ بِهِ

قَوَاعِدُ الطِّبِّ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ التَّجْرِبَةُ.

فَأَمَّا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ: فَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الْمُتَوَكِّلِ النَّاجِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ «أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مَرُّوا بِحَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ، فَلَمْ يُقْرُوهُمْ، وَلَمْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلُدِغَ سَيِّدُ الْحَيِّ، فَأَتَوْهُمْ، فَقَالُوا: هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ رُقْيَةٍ، أَوْ هَلْ فِيكُمْ مِنْ رَاقٍ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، وَلَكِنَّكُمْ لَمْ تَقْرُونَا، فَلَا نَفْعَلُ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا، فَجَعَلُوا لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ قَطِيعًا مِنَ الْغَنَمِ، فَجَعَلَ رَجُلٌ مِنَّا يَقْرَأُ عَلَيْهِ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَقَامَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ قَلَبَةٌ، فَقُلْنَا: لَا تَعْجَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَتَيْنَاهُ، فَذَكَرْنَا لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: **مَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ كُلُوا، وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ**».

فَقَدْ تَضَمَّنَ هَذَا الْحَدِيثُ حُصُولَ شِفَاءِ هَذَا اللَّدِيغِ بِقِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ عَلَيْهِ، فَأَغْنَتْهُ عَنِ الدَّوَاءِ، وَرُبَّمَا بَلَغَتْ مِنْ شِفَائِهِ مَا لَمْ يَبْلُغْهُ الدَّوَاءُ.

هَذَا مَعَ كَوْنِ الْمَحَلِّ غَيْرَ قَابِلٍ، إِمَّا لِكَوْنِ هَؤُلَاءِ الْحَيِّ غَيْرَ مُسْلِمِينَ، أَوْ أَهْلَ بُخْلٍ وَلُؤْمٍ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْمَحَلُّ قَابِلًا.(١)

إن الفلاسفة إذا اعترفوا بأن قراءة الرقى المجهولة لها آثار عظيمة في تحصيل المنافع ودفع المفاسد، فلأن تكون قراءة هذا القرآن العظيم المشتمل على ذكر جلال الله وكبريائه سببًا لحصول النفع في الدين والدنيا تكون أولى.(٢)

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ٧٧/ ٧٩).

(٢) تفسير الرازي: (٢١/ ٣٩٠).

✍ **وما أحسن ما قاله ابن القيم:** «فَمَنْ لَمْ يَشْفِهِ الْقُرْآنُ، فَلَا شَفَاهُ اللهُ، وَمَنْ لَمْ يَكْفِهِ، فَلَا كَفَاهُ اللهُ».(١)

وَفِي القرآن شفاء من العلل الاجتماعية التي تخلخل بناء الجماعات، وتذهب بسلامتها وأمنها وطمأنينتها. فتعيش الجماعة في ظل نظامه الاجتماعي وعدالته الشاملة في سلامة وأمن وطمأنينة.

القرآن رحمة:

وأما كون القرآن رحمة للمؤمنين، فإن الأمر كما يقول الرازي: إن الْأَرْوَاحَ الْبَشَرِيَّةَ مَرِيضَةٌ بِسَبَبِ الْعَقَائِدِ الْبَاطِلَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْفَاسِدَةِ، وَالْقُرْآنُ قِسْمَانِ:

- بَعْضُهُ يُفِيدُ الْخَلَاصَ عَنْ شُبَهَاتِ الضَّالِّينَ وَتَمْوِيهَاتِ الْمُبْطِلِينَ وَهُوَ الشِّفَاءُ.

- وَبَعْضُهُ يُفِيدُ تَعْلِيمَ كَيْفِيَّةِ اكْتِسَابِ الْعُلُومِ الْعَالِيَةِ، وَالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ الَّتِي بِهَا يَصِلُ الْإِنْسَانُ إِلَى جِوَارِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.(٢)

من دروس التربية:

إن القاعدة الإسلامية تقول: التخلية قبل التحلية، ومن أجل ذلك قدَّم الله في هذه الآية الكريمة الشفاء تطهيرًا للنفس من عللها أولًا، وبعد ذلك يجيء تكميل موجبات الصحة، مما يفرض على المربين ضرورة مساعدة الناشئ

---

(١) الطب النبوي: (ص: ٢٦٧).

(٢) تفسير الرازي: (٢١/ ٣٩٠).

على التخلص من عاداته السيئة أولًا، فإذا تمَّ ذلك، اتَّجه المربي إلى حيث يريد له من كمال.

✍ **وفِي هذا يقول الرازي**: وَلَمَّا كَانَ إِزَالَةُ الْمَرَضِ مُقَدَّمَةً عَلَى السَّعْيِ فِي تَكْمِيلِ مُوجِبَاتِ الصِّحَّةِ لَا جَرَمَ بَدَأَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِذِكْرِ الشِّفَاءِ ثُمَّ أَتْبَعَهُ بِذِكْرِ الرَّحْمَةِ.(١)

موقف الظالمين من القرآن:

هذا هو أثر القرآن في قلوب المؤمنين أما الذين ظلموا فوضعوا عقولهم وقلوبهم حيث أمرتهم شياطينهم، هؤلاء الذين لم يضعوا ملكاتهم في موضعها فكان طبيعيًا أن يكون جزاؤهم من جنس عملهم: طمسًا للبصيرة التي لم تعد صالحة لاستقبال واردات الهوى.

وَإِنَّمَا كَانَ أمرهم كَذَلِكَ لِأَنَّ سَمَاعَ الْقُرْآنِ يَزِيدُهُمْ غَيْظًا وَغَضَبًا وَحِقْدًا وَحَسَدًا، وَهَذِهِ الْأَخْلَاقُ الذَّمِيمَةُ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْأَعْمَالِ الْبَاطِلَةِ، وَتَزِيدُ فِي تَقْوِيَةِ تِلْكَ الْأَخْلَاقِ الْفَاسِدَةِ فِي جَوَاهِرِ نُفُوسِهِمْ، ثُمَّ لَا يَزَالُ الْخُلُقُ الْخَبِيثُ النَّفْسَانِيُّ يَحْمِلُ عَلَى الْأَعْمَالِ الْفَاسِدَةِ وَالْإِتْيَانُ بِتِلْكَ الْأَعْمَالِ يُقَوِّي تِلْكَ الْأَخْلَاقَ، فَبِهَذَا الطَّرِيقِ يَصِيرُ الْقُرْآنُ سَبَبًا لِتَزَايُدِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الضَّالِّينَ فِي دَرَجَاتِ الْخِزْيِ وَالضَّلَالِ وَالْفَسَادِ وَالنَّكَالِ.(٢)

- وإذا كانت الحسنة لدى المؤمنين تستدعي الحسنة لتصير إرادة الخير

---

(١) تفسير الرازي: (٢١/ ٣٩٠).

(٢) تفسير الرازي: (٢١/ ٣٩٠).

ملكة وطبعًا، فإن السيئة على الجانب الآخر تستدعي السيئة، لتصير النفس بؤرة للشر والضلال.

طبيعة الجاحدين:

لقد تحدَّث القرآن الكريم في مواطنَ كثيرةٍ كاشفًا عن هذا الفرق الهائل بين أصحاب الجنة وأصحاب السعير، وكيف يزيد المؤمنون بالقرآن إيمانًا، في الوقت الذي يزيد به الكافرون كفرانًا يقول صاحب العظمة: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤- ١٢٥].

ويقول صاحب الكبرياء: ﴿هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت:٤٤].

بل إن الجاحدين يبذلون فطرة العناد فيهم حين يديرون ظهورهم للآيات البينات، ثم يشغبون بما يثيرونه من شبه في أدمغتهم إزاء الآيات المشتبهات ابتغاء الفتنة قال أعزُّ من قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران:٧].

فانظر كيف كان زيغ القلـوب ومرضـها مَـانِعَيْن مـن وصـول الهدايـة إلى قلوب عليها أقفالها، من هذا الزيغ وهذا المرض.

الخاتمة نسأل الله حسنها

أَنَـــا الْفَقِيـــرُ إِلَـــى رَبِّ الْبَرِيَّـــاتِ ... أَنَا الْمُسَـيْكِينُ فِـي مَجْمُـوعِ حَـالَاتِي
أَنَـا الظَّلُـومُ لِنَفْسِـي وَهِـيَ ظَـالِمَتِي ... وَالْخَيْـرُ إِنْ يَأْتِنَـا مِـنْ عِنْـدِهِ يَـأْتِي
لَا أَسْـتَطِيعُ لِنَفْسِـي جَلْـبَ مَنْفَعَـةٍ ... وَلَا عَنِ الـنَّفْسِ لِـي دَفْـعُ الْمَضَـرَّاتِ
وَلَـيْسَ لِـي دُونَـهُ مَـوْلًى يُـدَبِّرُنِي ... وَلَا شَـفِيعٌ إِذَا حَاطَـتْ خَطِيئَـاتِي
إِلَّا بِـإِذْنٍ مِـنَ الـرَّحْمَنِ خَالِقِنَـا ... إِلَى الشَّفِيعِ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْآيَاتِ
وَلَسْـتُ أَمْلِـكُ شَـيْئًا دُونَـهُ أَبَـدًا ... وَلَا شَـرِيكٌ أَنَـا فِـي بَعْـضِ ذَرَّاتِ
وَلَا ظُهَيْـرٌ لَـهُ كَـيْ يَسْـتَعِينَ بِـهِ ... كَمَـا يَكُـونُ لِأَرْبَـابِ الْوِلَايَـاتِ
وَالْفَقْـرُ لِـي وَصْـفُ ذَاتٍ لَازِمٍ أَبَـدًا ... كَمَـا الْغِنَـى أَبَـدًا وَصْـفٌ لَـهُ ذَاتِـي
وَهَذِهِ الْحَالُ حَـالُ الْخَلْـقِ أَجْمَعِهِـمْ ... وَكُلُّهُـمْ عِنْـدَهُ عَبْـدٌ لَـهُ آتِـي
فَمَـنْ بَغَـى مَطْلَبًـا مِـنْ غَيْـرِ خَالِقِـهِ ... فَهُوَ الْجَهُولُ الظَّلُومُ الْمُشْرِكُ الْعَاتِي
وَالْحَمْـدُ لِلَّـهِ مِـلْءَ الْكَـوْنِ أَجْمَعِـهِ ... مَا كَـانَ مِنْـهُ وَمَـا مِـنْ بَعْـدُ قَـدْ يَـاتِي

الفهرس

الإهداء... ٧
مقدمة المؤلف ٨
عملي في هذا الكتاب.. ١٤
الموعظة الأولى: لماذا لا تتجه القلوب إلى الله؟ ٢٠
ومن هنا نبدأ: ٢٠
أحاديث تعرِّفُ بعظمة الله: ٢١
المعاملة على قدر المعرفة: ٢٣
أهمية المعرفة:... ٢٥
غاية المعرفة: ٢٧
التوحيد الخالص: ٢٨
الاكتفاء بالله: ٣٠
لوجدتني عنده: ٣٢
المعرفة المؤثرة: ٣٦
الموعظة الثانية: إِنّ الْعِزّةَ لِلّهِ جَمِيعًا ٤٠
إن طريق الدعوة الصحيح، لابد أن يمر بمرحلتين: ٤٠
الآيات المكية تُعرفنا بالآمر بينما الآيات المدنية تُعرفنا بالأمر الإلهي: ... ٤٠

وقفة تدبرية: ٤١

العزة خُلقٌ من أخلاق المؤمنين: ٤٤

عزة المسلم ورفعته في إيمانه وتوحيده: ٤٥

انقلاب من عُبِدُوا على مَنْ عَبَدُوهُم يوم القيامة: ٤٦

الإسلام دين العزة: ٤٦

المسلمون لا يخافون لأنهم يملكون منبع العزة: ٤٦

اعتزاز الأنبياء بالإيمان: ٤٧

الخليل إبراهيم: ٤٧

كليم الله موسى عليه السلام: ٤٨

اعتزاز أتباع الأنبياء بإيمانهم: ٤٩

العزة الكاذبة: ٥٠

كل عزة قامت على باطل لابد أن تزول: ٥٠

صاحب الجنتين واعتزازه بماله وأهله: ٥١

قارون واعتزازه بماله: ٥٢

أبو جهل وعزته الزائفة: ٥٣

عزة النفس: ٥٣

من أراد العزة فعليه بفعل ما يأتي: ٥٤

الموعظة الثالثة: لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا ٥٨

الله لا ينسى أحدًا من خلقه: ٦٠

كل شيء في هذا الكون قائم بأمر الله سبحانه: ٦١

كل شيء في هذا الكون يستمد احتياجاته من الله: ٦٢

عنده خزائن كل شيء:.............................٦٣
يدبر الأمور كلها: ٦٤
تدبير الله أَمْرَ موسى عليه السلام: ٦٥
تدبير الله لأمر رسوله صلى الله عليه وسلم: ٦٦
سراقة بن مالك يلاحق رسول الله صلى الله عليه وسلم: ٦٦
سبحان من بيده الأمر: ٦٩

الموعظة الرابعة: القوَّةُ لله جَمِيعًا ٧٤

أثر غياب فقه أن القوة لله في نشر اليأس والتشاؤم بين الناس: ٧٤
صفة القوة في القرآن والسنة:.............................٧٥
وصف الله عز وجل نفسه بِالْقُوَّةِ: ٧٦
ورود كلمة القوة في القرآن: ٧٦
الحكمة من اقتران اسم القوي باسم: (العزيز)، واسم: (المتين):.........٧٧
أحاديث نبوية تتحدث عن أسماء الله وصفاته:.........................٧٨
الفارق بين قوة الخالق والمخلوقين: ٨٠
دلالات ومجالات قوة الله عز وجل: ٨١
أولاً: قوة المشيئة النافذة في بطشه القادر على إتمام فعله: ٨٢
ثانيًا: قوة إبداع الخلق، إحياء وإماتة:.............................٨٢
ثالثًا: قوة إهلاك الكافرين والمجرمين: ٨٣
الآثار الإيمانية لاسم الله القوي: ٨٦
أولاً: الاعتزاز بقوة الله عز وجل: ٨٧
ثانيًا: حسن التوكل على القوي والاستسلام لعظمته: ٨٨

ثالثًا: التواضع وترك الغرور:.......................................٨٨
رابعًا: الاستخدام النافع للقوة الموهوبة:..............................٨٩
مصادر القوة كما بينها كتاب الله:.....................................٩١
الاستغفار والتوبة:..٩١
اليقين بأن القوة كلها من الله:...٩٢
الموعظة الخامسة: وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ٩٦
رسول الله يحببنا في هذا الحب:.......................................٩٨
الصحابة يحبون الله أكثر من أنفسهم:.................................٩٩
أنس بن النضر وحبه لله:..٩٩
الخنساء ومحبتها لله:..١٠٠
مصعب بن عمير ومحبته لله:...١٠١
أبو بصير ومحبته لله:...١٠١
الطريق إلى محبة الله:...١٠٤
مظاهر محبة الله سبحانه وتعالى:......................................١٠٦
١- من مظاهر محبة الله محبة القرآن:.................................١٠٦
٢- من مظاهر محبة الله محبة الرسول:...............................١٠٦
مَقْتَلُ ابْنِ الدَّثِنَّةِ وَمَثَلٌ مِنْ وَفَائِهِ ومحبته لِلرَّسُولِ:..........................١٠٨
٣ - من مظاهر محبة الله محبة الصالحين:.............................١٠٨
الموعظة السادسة: هل تحب ربك؟ ١١٢
أولاً: الرضا بالقضاء..١١٣
ثانيًا: التلذذ بالعبادة وسرعة المبادرة إليها:..............................١١٥

ثالثًا: الشوق إلى الله:.. ١١٦
رابعًا: التضحية من أجله والجهاد في سبيله: ١١٨
خامسًا: الرجاء والطمع فيما عند الله:...................................... ١١٩
سادسًا: الحياء من الله: ١٢٠
سابعًا: الشفقة على الخلق: ١٢١
ثامنًا: الغيرة لله: ١٢٢
تاسعًا: الغنى بالله:... ١٢٣
الموعظة السابعة: استنكار كفر الكفار بالله ١٢٨
التنبيه على أن الكفر ينشأ عن جهل:..................................... ١٢٩
من الذي أنشأ هذه الحياة؟ ١٢٩
الأدلة على أن الحياة من عند الله: ١٣٠
الأدلة على إمكانية البعث: ١٣٢
ترهيب من ينزع إلى الشر بأنه إلى الله راجع: ١٣٣
إنكار السَّمَاوَات والْأَرْض وَالْجِبَال الكفر بالله: ١٣٤
الموعظة الثامنة: احذر من تسوية الله بغيره ١٤٠
١-إن سورة الشعراء تكرر فيها الحديث عن صاحب العظمة والكبرياء بهذه الصفة: (رب العالمين) وبيان هذا كالتالي: ١٤١
٢- إن سورة الشعراء بينها وبين سورة الأنعام تشابه في معالجة بعض القضايا:.. ١٤٣
٣- إن بيان استحالة التسوية مذكور بتفاصيله في سورة الأنعام، إذ مقصدها وهدفها هو: (استحالة التسوية بين الله وبين غيره):.................... ١٤٥

٤- سورة الأنعام ذكرت أمورًا ثلاثة لا تُصرف إلا لله وهذا تأكيد على استحالة التسوية بين الله وبين غيره:........................١٤٧
صور من مظاهر التسوية:........................١٥١
الموعظة التاسعة: الأنس بالله ١٥٦
جهاد النفس مرتبة عظيمة: ١٥٦
الأنس بالله أعظم اللذات:........................١٥٧
أنس الصالحين في قيام الليل: ١٥٨
أهل الأنس بالله وحياتهم الطيبة:........................١٦١
كيف يصل العبد إلى الأنس بالله؟ ١٦١
أهل الأنس يستعذبون العذاب في سبيل الله: ١٦٥
الخليل إبراهيم وأنسه بالله:........................١٦٦
إبراهيم عليه السلام ينكر على قومه عبادة الأصنام: ١٦٦
إبراهيم عليه السلام يقذف في النار:........................١٦٧
سحرة فرعون وأنسهم بالله:........................١٦٩
حشد فرعون للسحرة:........................١٧٠
المواجهة بين موسى وفرعون:........................١٧٢
سجود السحرة لله تعالى: ١٧٥
ثبات السحرة أمام تهديد فرعون وغضبه: ١٧٦
قصة خبيب بن عدي:........................١٧٨
حبيب بن زيد بن عاصم:........................١٨٠
فوائد الأنس بالله: ١٨٠

الموعظة العاشرة: وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٨٢
منزلة الذكر: ١٨٤
درجات الذّكر: ١٨٥
معاني كلمة الذكر في القرآن الكريم: ١٨٨
الهدف من ذكر الله: ١٩٢
الحث على الذكر: ١٩٢
الإكثار من ذكر الله: ١٩٥
الحث من السنة على الذكر: ١٩٧
الحث على حضور مجالس الذكر: ١٩٩
التحذير من حضور مجالس الشر: ٢٠٢
الذكر كان سببًا في نجاة أحد المسلمين: ٢٠٥
الترهيب من الغفلة عن ذكر الله: ٢٠٦
من فضائل الذاكرين الله كثيرًا: ٢٠٨
الموعظة الحادية عشرة: البداية من العبد والتمام من الله ٢١٢
البداية من العبد: ٢١٣
الرسول يعرِّفنا بأهمية العمل: ٢١٤
مواقف تؤكد أن البداية من العبد: ٢١٥
نبي الله أيوب: ٢١٥
يونس عليه السلام: ٢١٦
زكريا عليه السلام: ٢١٦
قصة عُكَّاشَة بن محصن: ٢١٧

قصة السحرة: ٢١٩
قصة الثلاثة أصحاب الغار: ٢١٩
البداية من العبد: ٢٢٢
الموعظة الثانية عشرة: النوايا الحسنة والنوايا السيئة ٢٢٦
أولاً: النوايا الحسنة: ٢٢٨
هل ثناء الناس ومدحهم يجعل العمل مقبولًا: ٢٢٩
الزكاة نوعان: ٢٣٠
١- زكاة النفس: ٢٣٠
٢- زكاة المال: ٢٣٠
العمل المقبول ما أريد به وجه الله: ٢٣٠
إن المخلص لا يتأثر بأي ردة فعل ٢٣١
خالد بن الوليد وموقفه من عزل عمر له: ٢٣٢
خلَّد الله ذكر امرأت عمران بنيتها الصالحة: ٢٣٥
الثواب الكبير يحصَّل بالنية الصالحة: ٢٣٥
ثانيًا: النوايا السيئة: ٢٣٦
الرسول ﷺ يبين لنا خطر النية: ٢٣٨
قصة قرآنية تبين عِظَمَ النية: ٢٤٠
الموعظة الثالثة عشرة: التحدث الحقيقي بالنعمة ٢٤٤
تذكير الرسول ﷺ بنعم الله عليه: ٢٤٥
آيات أمرت برعاية اليتيم، وبالمحافظة على ماله: ٢٥٠
النهي عن إغلاظ القول للسائل: ٢٥١

الموعظة الرابعة عشرة ٢٥٥
كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ٢٥٦
الـمُثُل العُليا تشدُّ الناس إلى الدين أما الكلام فلا يؤثِّر: ٢٥٦
سر نجاح دعوة الأنبياء: ٢٥٧
العلم في الإسلام وسيلة وليس هدفًا: ٢٥٧
خطر مخالفة الأفعال للأقوال: ٢٥٨
النبي ﷺ يخبرنا بعذاب من خالف فعله قوله: ٢٥٩
الواجب تجاه أوامر الله ونواهيه: ٢٦٠
بعض مظاهر وصور مخالفة الأفعال للأقوال: ٢٦١
ضرورة إتباع الأقوال بالأفعال: ٢٦٢
الموعظة الخامسة عشرة: الذنوب سبب للحرمان ٢٦٦
حال كثير من الناس عند نزول مصيبة: ٢٦٦
القرآن يوضح لنا خطر الذنوب: ٢٦٧
الذُّنُوبُ تَطْبَعُ عَلَى الْقُلُوبِ: ٢٦٨
أمثلة لأضرار الذنوب والمعاصي في الأمم الماضية: ٢٦٨
١- صاحب الجنتين: ٢٦٩
٢- مملكة سبأ: ٢٦٩
٣- قوم عاد: ٢٦٩
مَنْ عَادَ للمعصية عَادَ الله عليه بالعذاب والعقوبة: ٢٧٠
نظرة على واقع الناس: ٢٧٠
ما تزول به عقوبة الذنوب: (كفارات الذنوب): ٢٧٠

أولاً: الإيمان بالله وتوحيده والعمل الصالح: ٢٧١
ثانيًا: اجتناب الكبائر من الذنوب: ٢٧١
ثالثًا: التوبة الصادقة:.. ٢٧١
رابعًا: الاستغفار: ٢٧٢
خامسًا: المصائب التي يكفر اللَّه بها الخطايا في الدنيا:................ ٢٧٣
سادسًا: الوضوء: ٢٧٣
سابعًا: الصلاة، والمشي إليها: ٢٧٣
ثامنًا: الصدقات: ٢٧٤
تاسعًا: الحج والعمرة:.. ٢٧٤
عاشرًا: صيام رمضان وقيامه: ٢٧٤
حادي عشر: دعاء المؤمنين للمؤمن: مثل صلاتهم على جنازته: ٢٧٥
ثاني عشر: شفاعة النبي ﷺ وغيره في أهل الذنوب يوم القيامة:......... ٢٧٥
وماذا بعد الكلام:.. ٢٧٦
الموعظة السادسة عشرة: شيئان لا يجتمعان: (التكبر والعلم) ٢٨٠
أخطر أنواع الكبر هو التكبر بالعلم: ٢٨٠
مكانة العلم في قصة آدم: ٢٨١
تواضع موسى عليه السلام مع الخضر: ٢٨٢
تواضع عمر بن الخطاب أمام علم أبي بكر الصديق: ٢٨٤
جزاء من تكبر بعلمه: ٢٨٤
قارون: ٢٨٤
بلعام بن باعوراء:.. ٢٨٥

الموعظة السابعة عشرة: كيف نحصل على المال ٢٩٢

كيف نحصل على المال والثراء السريع؟........................ ٢٩٣

أولاً: الاستغفار:.. ٢٩٣

ثانيًا: إقراض الله قَرْضًا حَسَنًا:.............................. ٢٩٤

لماذا أتصدق ولا يعود لي أضعاف المال؟ ٢٩٧

كيف تكون الصدقة حسنةً ومقبولةً: ٢٩٧

ثالثًا: اتباع ما أنزل الله:..................................... ٢٩٨

فكرة مقترحة:... ٢٩٩

رابعًا: الإيمان والتقوى: ٢٩٩

خامسًا: شكر نعم الله: ٣٠٠

الموعظة الثامنة عشرة: حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ٣٠٤

فتوى عاشق: ٣٠٥

ثمار تدبر القرآن:.. ٣٠٧

من أقوال العلماء في التدبر:................................. ٣١٠

الحد الأدنى المطلوب عند قراءة القرآن:...................... ٣١١

حال من عاشوا نزول القرآن أول مرة: ٣١٣

القرآن العظيم منهج واضح كامل:............................ ٣١٣

القرآن جاء ليقف بالقلب في مواجهة الكون كله:............. ٣١٥

القرآن كتاب كامل من جميع الوجوه: ٣١٥

الموعظة التاسعة عشرة: احذر أن يضيع عمرك ٣٢٠

القرآن يتحدث عن الوقت:................................... ٣٢٠

الأدلة من السنة المطهرة على أهمية الوقت: ٣٢١
تضييع كثير من الناس لأوقاتهم وقلة من يوفق للانتفاع بها: ٣٢٣
خصائص الوقت: ٣٢٧
الأولى: سرعة انقضاء الوقت: ٣٢٧
الثانية: الوقت لا يعود: ٣٢٨
الثالثة: الوقت أنفس ما يملك الإنسان: ٣٢٩
الوقت محل العبادات: ٣٣١
أحوال السلف الصالح وانتفاعهم بأوقاتهم: ٣٣٤
ابن تيمية: ٣٣٦
أبو يوسف: ٣٣٦
ابن حجر العسقلاني: ٣٣٧
صور لتضييع الأوقات: ٣٣٩
تضييع الأوقات في المكالمات الهاتفية المحرمة: ٣٣٩
تضييع الأوقات في تصفح الجرائد والمجلات غير النافعة: ٣٤٠
تضييع الأوقات في الأسواق والمنتديات: ٣٤٠
تضييع الأوقات أمام القنوات الفضائية: ٣٤١
تضييع الأوقات في القيل والقال والغيبة والنميمة وغير ذلك: ٣٤٢
نصائح في تنظيم الوقت: ٣٤٤
العمل بما نطيق: ٣٤٥
اغتنام أوقات الدعاء: ٣٤٧
المحافظة على الصلوات: ٣٤٧

الحذر من التسويف:........................٣٤٨
الموعظة العشرون: وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ٣٥٠
حديث القرآن عن محاسبة النفس: ٣٥٠
من الأحاديث الواردة في محاسبة النفس:......................٣٥١
من الآثار وأقوال العلماء والمفسرين الواردة في محاسبة النفس........٣٥٢
أهمية محاسبة النفس: ٣٥٤
أنواع محاسبة النفس: ٣٥٦
النّوع الأوّل المحاسبة قبل القول والعمل: ٣٥٦
النّوع الثّاني: محاسبة النّفس بعد العمل:........................٣٥٧
وحقّ الله تعالى في الطّاعة ستّة أمور: ٣٥٧
أركان المحاسبة: ٣٥٩
انتشار الفساد في الدنيا سببه قلة المحاسبة: ٣٦٢
من المنوط بالمحاسبة في المجتمع: ٣٦٢
المحاسِب في المجتمع: ٣٦٢
صور ونماذج للمحاسبة: ٣٦٣
١- الحاكم الذي نصبه الله ليقيم شرعه في الأمة..................٣٦٣
محاسبة العمال: ٣٦٣
صور من محاسبة عمر للولاة والرعية:........................٣٦٥
محاسبة عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص: ٣٦٥
محاسبة عمر للنعمان بن عدي:..............................٣٦٦
قصة سعيد بن عامر مع عمر بن الخطاب:......................٣٦٧

محاسبة عمر للربيع بن زياد:.................................... ٣٦٩
عمر بن عبد العزيز ومحاسبته لعماله:............................ ٣٧٠
٢- المجتمع الذي يحاسب صاحب الجريمة بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.. ٣٧٤
المواصفات المؤهلة للخيرية:.................................... ٣٧٤
ذم أهل الكتاب لتفريطهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ٣٧٥
٣- النفس التي تحاسب صاحبها وتلومه وتؤنبه: ٣٧٥
من فوائد (محاسبة النفس): ٣٧٦
الموعظة الحادية والعشرون: إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ٣٧٨
لماذا نكره الموت؟!.. ٣٨٠
إن الأسباب التي جعلت الناس يكرهون الموت كثيرة ومنها ما يلي: ٣٨١
١- الحياء من الله:.. ٣٨١
٢- أين المستقر وإلى أين المصير:.................................. ٣٨٣
٣- قلة الزاد:.. ٣٨٣
٤- الإسراف على النفس:... ٣٨٦
باب التوبة مفتوح لأهل الإسراف قبل فوات الأوان: ٣٨٨
رسائل من الله قبل الوصول: ٣٨٨
١- المرض: ٣٨٩
٢- الشيب: ٣٩٠
٣- فراق الأهل والأحباب:.. ٣٩١
فوائد ذكر الموت: ٣٩٢

١- شغل الأوقات بما ينفع:.. ٣٩٢
٢- العفو والتسامح:... ٣٩٥
٣- الإنفاق في سبيل الله:.. ٣٩٧
الإنفاق ثمرة ودواء: ٣٩٨
٤- المسارعة في الخيرات:.. ٣٩٨
عابد يسبقُ أجرُه أجرَ شهِيد! ٣٩٩
الموعظة الثانية والعشرون: وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ٤٠٢
وللكفر أنواع كثيرة، أهمها: ٤٠٢
النوع الأول: كفر الإنكار والتكذيب: ٤٠٢
من أمثلة هذا النوع من أنواع الكفر الأكبر:......................... ٤٠٣
النوع الثاني: كفر الشك والظن: ٤٠٦
من أمثلة هذا النوع:.. ٤٠٧
النوع الثالث: كفر الامتناع والاستكبار: ٤٠٧
أوضح مثال على هذا النوع من أنواع الكفر:........................ ٤٠٨
النوع الرابع: كفر السبّ والاستهزاء:.............................. ٤٠٨
النوع الخامس: كفر البغض:....................................... ٤١٠
النوع السادس: كفر الإعراض: ٤١١
الإعراض عن دين الله تعالى قسمان: ٤١٢
القسم الأول: الإعراض المكفر: ٤١٢
القسم الثاني: الإعراض غير المكفر:................................ ٤١٣

الموعظة الثالثة و العشرون: يقظة متأخرة فات أوانها ٤١٨
من لم يستخدم بصره في طاعة الله في الدنيا أعماه الله في الآخرة: ٤١٩
يقظة الخليل إبراهيم عليه السلام: ٤٢٠
يقظة إسماعيل عليه السلام: ٤٢١
يقظة يوسف عليه السلام: ٤٢٢
يقظة موسى عليه السلام: ٤٢٢
يقظة سحرة فرعون: ٤٢٣
يقظة قلب رسولنا صلى الله عليه وسلم: ٤٢٣
يقظة أصحاب الغار: ٤٢٤
صور اليقظة في واقع الحياة: ٤٢٦
إن القرارات الصائبة نتيجة ليقظة عقل وقلب: ٤٢٧
١- صاحب الجنتين: ٤٢٨
٢- أصحاب الجنة: ٤٢٨
الموعظة الرابعة والعشرون: الكنز المفقود ٤٣٢
مجالات الشفاء في القرآن: ٤٣٤
شفاء القرآن للنفس: ٤٣٤
شفاء القرآن للجسم: ٤٣٦
اشْتِمَالُهَا عَلَى شِفَاءِ الْقُلُوبِ: ٤٣٦
تَضَمُّنُهَا لِشِفَاءِ الْأَبْدَانِ: ٤٣٩
القرآن رحمة: ٤٤١
من دروس التربية: ٤٤١

موقف الظالمين من القرآن: ٤٤٢
طبيعة الجاحدين: ٤٤٣
الخاتمة نسأل الله حسنها.. ٤٤٥
الفهرس.. ٤٤٦